إسماعيل يس... حكاية رجل حزين



إسماعيل يس... حكاية رجل حزين خلف الحبايب الحلقة الاولى

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

قبل رحيله بثلاثة أيام قال الفنان الراحل إسماعيل يس: {أنا لست خائفاً من الموت، فقد أعددت له ألف نكتة... سوف أموت كما عشت... من الضحك!!

بين الحياة والموت قصة طويلة تروي كفاح فنان عاش طفولة بائسة ومعذّبة وشقية. حياته كتاب مفتوح، لسبب بسيط ووحيد، أنه روى أدقّ تفاصيلها بنفسه ...الأهم أنه رواها بصدق وبلا خجل، وإن ما زالت هناك مراحل كثيرة من حياته غير معروفة، ليس لأنه لم يتطرق إلى تفاصيل بعينها في حياته، فلم يكن هذا الأمر يمثل أدنى مشكلة له، بل لأنها تعدّ جزءاً من الظلم الكبير الذي تعرّض له هذا الفنان- الأسطورة، سواء في حياته، منذ لحظة ولادته، مروراً بكل مراحل صعوده ثم هبوطه، انتهاء برحيله عن الدنيا.

لم ينل هذا الفنان ـ الأسطورة ما استحقه من تكريم ومكانة لائقين به، بعد ما مرّ به من رحلة شقاء حتى وصل إلى القمة، ليبدأ المنحنى في الرجوع مرة أخرى وينتهي من حيث بدأ، بالتالي ظلّ التعتيم على مراحل طواها النسيان بمرور السنين.

ربما كان هذا هو السبب الرئيس والأهم لتناولنا في «الجريدة» رحلة هذا الفنان ـ الأسطورة في حلقات يومية، في محاولة لدرء ظلم كبير وقع عليه وإعطائه ولو النذر القليل من كثير جداً يستحقه.

قدّم هذا الفنان ـ الأسطورة للسينما المصرية الكثير من الأعمال، ففي يوم وفاته كان رصيد إسماعيل ياسين من الأفلام حوالى ٨٠٠ فيلم، ما عدا المسرحيات. نعم الرقم صحيح وليس خطأ مطبعياً، وهو ما قدّر بما يقرب من ربع رصيد السينما المصرية عند رحيله، ما بين أدوار ثانوية وأدوار ثانية وبطولات مطلقة، فضلا عن أنه الفنان الوحيد في تاريخ السينما المصرية لغاية اليوم الذي قدمت له سلسلة أفلام ـ تزيد على ٢٠ فيلماً ـ تحمل اسمه.

لذا كان من أهم الصعوبات التي واجهتنا، بعيداً عن البحث والتدقيق في المراحل المعتمة في حياة هذا الفنان- الأسطورة، اختيار عنوان لهذه الحلقات بعد الانتهاء من كتابتها. غير أن المثير في الأمر أننا اكتشفنا أن أفلاماً كثيرة لهذا الفنان تصلح عنواناً رائعاً لحلقاته أو الحديث عنه، من بينها:« خلف الحبايب»، «البني آدم»، «الصيت ولا الغنى»، «السعادة المحرّمة»، «الناصح»، «المليونير»، «ماكنش ع البال»، «نهاية قصة»، «قليل البخت»، «الدنيا لما تضحك»، «بشرة خير»، «إنسان غلبان»، {المليونير الفقير» وغيرها.

فضلاً عن سلسلة أفلامه التي تحمل اسمه «إسماعيل ياسين في...» ومن بينها ما يصلح عنواناً لهذه السيرة الدرامية أيضاً مثل: «مغامرات إسماعيل ياسين» و « {إسماعيل ياسين للبيع!»

الأسطورة بين التاريخ والجغرافيا

أبصر هذا الفنان النور في مدينة السويس في ١٥ سبتمبر ١٩١٢، التحق طفلا بأحد» الكتاتيب» ثم بمدرسة ابتدائية مدة أربع سنوات، انتهت بعدها علاقته بالدراسة، لأن الأحداث المؤلمة بدأت رحلتها معه. توفيت والدته ودخل والده السجن إثر إفلاس محل بيع الذهب الذي كان يملكه، ثم كفلته جدته لأمه، التي كانت إحدى علامات القسوة في حياته، ما اضطر الفتى إلى العمل «منادياً» أمام محل لبيع الأقمشة (يقف على الرصيف ليحث الناس على الدخول والشراء، معدداً مزايا الأقمشة المتوافرة في المتجر) فقد كان عليه أن يتحمل مسؤولية نفسه منذ صغره، في تلك المدينة الفقيرة والقليلة الموارد، ما خلا استثناءات لبعض العائلات التي اختارتها موطناً لها، من بعض المحافظات والمدن القريبة منها، لأسباب مختلفة ربما كان أهمها موقعها الجغرافي الذي حباها الله به، تقول كتب الجغرافيا إن المدن التاريخية ذات الأصول الحضارية تنشأ وتنمو دائماً على موقع طبيعي متميز، كأن تطل على البحر وتتصدر قناة ملاحية أو تتربع على واد، ما يجعلها على احتكاك مستمر بحضارات العالم القديمة والحديثة.

وهكذا كانت مدينة السويس منذ آلاف السنين، لا يخلو كتاب للجغرافيا أو التاريخ من ذكر اسمها أو الإشارة إليها.

هذا الموضع الذي شغلته مدينة السويس، إن كان قد تغير وتبدل نتيجة ظروف جغرافية وسياسية،

إلا أنها بقيت مدينة تطلّ على ميناء مصر وعلى برزخ السويس رغم اختلاف اسمها على مر العصور.

شاء القدر لهذه المدينة المناضلة أن تظلّ الحارسة الأمينة بمكانتها الفريدة على حدود مصر الشرقية، فسطرت بدماء شهدائها أسمى آيات البطولة والبذل والعطاء، استعذب شعبها كل التضحيات لإعلاء شريعة الحق ولواء الشرف والكرامة، سجلت أسطورة تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل، أكّد شعبها أن إيمان الإنسان بالله ووطنه لا ينفصل عن إيمانه بقضيته وبحقه في الحياة الكريمة .كذلك أثبت شعبها المناضل أن إرادة الشعوب فوق كل عدوان وهي التي تنتصر دائماً، فقد حملت في عنقها اسم الشعب المصري كله وعبرت عن بطولة كل مدينة وكل شبر من أرض مصر، منذ أن وجدت هذه المدينة الباسلة على أرض مصر، التي يؤكد المؤرخ «جيم برستد « أنها تعود الى فجر التاريخ.

المدينة الباسلة

مدينة السويس لها تاريخ عريق بدأ مع العصر الفرعوني، ففى عام ٢٥٦٣ ق. م .كانت تسمى ‘‘سيكوت’’ وفي عهد الأسرتين الفرعونيتين ١٩ و٢٢ كان الفراعنة يطلقون عليها ‘‘يو ـ سويتس’’ وقد اتخذ منها فرعون مصر قاعدة لعملياته الحربية لتأمين مناجم سيناء ولردع الغزاة.

أطلق على مدينة السويس أثناء حكم اليونان لمصر اسم ‘‘هيرو بوليس’’ ومعناها مدينة الأبطال، وفي عصر الملكة كليوباترا أطلق عليها اسم ‘‘كليو باتريس» وفي القرن التاسع الميلادي أطلق عليها خمارويه بن أحمد بن طولون اسم {السويس.{

تحتلّ هذه المدينة العريقة موقعاً فريداً، جعلها مطمعاً لكثير من الاستعماريين ومدخلاً لأي هجوم على مصر من جهة الشرق، كذلك تعتبر، بمكانتها في برزخ السويس، ملتقى ومعبراً بشرياً للأجناس العربية والآسيوية على مرّ العصور، إذ تقع مدينة السويس جنوب شرقي الدلتا في أقصى غرب خليج السويس وعلى المدخل الجنوبي لقناة السويس على البحر الأحمر، يحدّها شرقاً قناة السويس ثم شبه جزيرة سيناء، غرباً الصحراء الفاصلة بينها وبين القاهرة والجيزة وبني سويف، شمالا محافظة الإسماعيلية، جنوباً البحر الأحمر عند منطقة الزعفرانة.

تمتاز مدينة السويس القديمة بشوارعها الضيقة ومبانيها ذات الطابع المملوكي .بدأت نهضة السويس بشق القناة وإنشاء ميناء ‘‘بور توفيق’’، ليستقبل السفن القادمة إلى الشرق الأقصى وحوض إصلاح السفن.

شريان الحياة

ظلت السويس مدينة صغيرة هادئة، حتى القرن التاسع عشر، تقوم بوظيفة الميناء الذي يربط مصر بالأراضي المقدسة والشرق عموماً، وما أن حُفرت القناة حتى دخلت المدينة عهداً جديداً في تاريخها الحافل، فاطّرد نمو العمران فيها وازداد عدد سكانها بمعدلات سريعة، وعندما أُنشئ الخط الحديدي بين القاهرة والسويس، تولّت الحكومة المصرية نقل الماء من القاهرة إلى السويس في صهاريج، لذلك يُعدّ حفر ترعة السويس العذبة «ترعة الإسماعيلية»، أحد العوامل المهمة التي أدّت إلى تطوّر المدينة ونموّ العمران فيها.

ما إن وصلت مياه النيل العذبة إلى السويس، حتى انقلبت الحياة البشرية في منطقة برزخ السويس

رأساً على عقب وتحوّل الهدوء إلى حياة صاخبة، وإن لم تكن هذه الحياة من صنْع قناة السويس بقدر ما هي من صنْع مياه النيل التي وصلت إلى هناك.

كان سكان السويس قبل الفتح الإسلامي يعملون بالصيد والقرصنة، لكن لم تلبث السويس أن شهدت نشاطاً واسعاً وانتعشت انتعاشاً واضحاً، في العصر الإسلامي.

أول ما اشتهرت به السويس، في ميدان النشاط الاقتصادي، بناء السفن وكان لها أهميتها الكبرى في صناعتها، وكانت أحد مراكز ثلاثة كبرى في مصر، لبناء السفن التجارية وغير التجارية.

كذلك، ظهر لمنطقة السويس أهمية اقتصادية، خصوصاً في العصور الوسطى، تجلت في غِنى تلك المنطقة بالثروة المعدنية، مثل الذهب والزمرد، وهو ما جعل السويس مركزاً مهماً لصياغة الحلي وصناعة المشغولات الذهبية في ذلك الوقت، على وجه الخصوص في حي الأربعين، الحي الأشهر على مرّ تاريخ المدينة، الذي يمثل أكبر نسبة من عدد السكان وكان يحمل طابعاً شعبياً، بما يناسب غالبية سكانه الذين يعملون في الحرف اليدوية والمنسوجات وصياغة الذهب.

صائغ أباً عن جد

وفي حي الأربعين العتيق في مدينة السويس ورث «ياسين علي نخلة» صياغة الذهب وبيع الحلي عن والده التاجر «علي نخلة» وكانت من المهن التي يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، ليس لما فيها من حرفية عالية وأسرار في الصياغة، لكن لما تحتاجه من أموال كثيرة، فكان لا بد من أن تكون العائلة التي تمتهن هذه المهنة ، ليست ميسورة الحال فحسب، بل ثرية وفق معايير نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فضلا عن اختيار بعض الأسر لتتخصص في مهنة بعينها.

اختار «المعلم علي نخلة» الاتجار بالذهب وتصنيعه ـ على الرغم من أنه كان من المهن المقصورة على التجار الأقباط آنذاك، ولم تكن بالانتشار الكافي في مدينة السويس ـ وكان حريصاً على أن تنتقل هذه المهنة بأسرارها إلى نجله الوحيد من الذكور «ياسين».

-علي نخلة: اسمع يا ياسين.. أعرف أنك ما زلت طفلا ولكن لابد من أن تعرف أنك إبنى البكر والرجل الوحيد الآن. صياغة الذهب وبيعه مهنتنا، فإذا أخلصت لها ستعطيك الكثير. لا تظن أنني بدأت كما ترى الآن، فما أكثر ما عانيته حتى أجد لي مكاناً بين التجار وأصنع اسماً، لا أريد أن يضيع على يدك.

- ياسين: سأكون إن شاء الله كما تريد وأكثر.

على الرغم من ذلك لاقى ياسين الكثير من التدليل والرفاهية، ليس لأنه الابن الذكر الوحيد للأسرة إلى جانب فتاة أخرى شقيقة فحسب، بل لأن الأسرة كانت ميسورة الحال أيضاً، وهو ما جعل ياسين ينال ما يطلبه من أموال ينفقها على لهوه ولعبه.

كان ياسين حريصاً على أن ينال حظه من الشباب، وكان لا يترك مناسبة من أفراح أو حفلات يقيمها التجار الكبار إلا ويحضرها ويتباهى بشبابه وأمواله، ولم يترك مكاناً يمكن أن يكون فيه لهو ورقص إلا وطرقه.

في الوقت الذي كانت مصر تئن من وطأة الاحتلال البريطاني، كان كثر من جنود الاحتلال ينتشرون، ليس في مدينة السويس وحدها، بل في كل الشريط الساحلي لمدن القناة: السويس، الإسماعيلية، بور توفيق، بور فؤاد، بور سعيد، بالإضافة إلى جاليات أخرى يونانية وإيطالية وتركية تعيش في مدينة السويس بحكم أنها مدينة ساحلية وكانت تنحصر تجارة هؤلاء في غالبيتهم في فتح البارات والمراقص والملاهي، وهو ما كان يجد فيها ياسين ضالته!

الفتى المدلل

بعدما أصبح ياسين شاباً يافعاً، لم يجد بداً من أن يقف إلى جوار والده في تجارته، وكان هذا الأخير يلحّ عليه في أن يلتفت إلى مهنته ومهنة آبائه وأجداده، فاضطر ياسين إلى الالتزام بمشاركة والده عمله، على مضض، غير أن اللافت سرعته في التقاط أسرار المهنة وتفاصيلها، حتى أنه أصبح، خلال فترة قصيرة، واحداً من أمهر صنّاعها، وهو ما جعل والده يعتمد عليه بشكل كبير في البيع والشراء بل وفي التصنيع.

شعر ياسين بذاته ولم يكن قد أكمل عامه الحادي والعشرين حتى أصبح واحداً من أمهر صنّاع الذهب وراح يتعامل مع الناس على هذا الأساس، فما إن ينتهي يومه في المساء، حتى يعود إلى بيته يتهيأ بأفخم الملابس ليبدأ يومه الحقيقي في بارات حي الأربعين ومراقصه وبقية أحياء مدينة السويس.

لم يكن ياسين يعود إلى بيته إلا مع النسمات الأولى للصباح، في الوقت الذي كان والده يستعدّ فيه لأداء صلاة الفجر، ولأنه الولد المدلل لوالده لم يرغب هذا الأخير في أن يثير معه المشاكل، خصوصاً أنه كان يراه يتقدم بشكل جيد في مهنته. على عكس ما كانت تجري العادة، أي أن يثور الأب ويغضب لتصرفات الابن والأم تدافع، كانت أم ياسين هي التي تثور دائماً على تصرفات الابن ويؤكد لها الأب دائماً:

-علي نخلة: أتركيه فلن يبقى على هذه الحال طويلا... أعرف أنها مرحلة طيش وشباب، وهو يريد أن يأخذ حظه منها.

-الأم: إلى متى؟ فقد بلغ مبلغ الرجال وبدلا من الحالة التي يعيش عليها لماذا لا نزوجه، فهو الولد الوحيد في العائلة ونريد أن يملأ الدنيا علينا أولاداً ليعوّض عدم وجود أشقاء ذكور له.

-علي: لا تشغلي بالك كثيرا بهذا الأمر، فزواجه سيحدث اليوم أو غداً، لكن أكثر ما يهمني الآن أن يتحمل المسؤولية ويحمل تجارة والده وجده خصوصاً أن العمر يجري.

تتكرر شكاوى الأم، مرة تتحدث مع ياسين وأخرى مع والده، وفي كل مرة يأتي الجواب على لسان الأب:

-علي نخلة: ابحثي له عن عروس من عائلة محترمة، لأقيم له فرحاً تتحدث عنه السويس بأكملها.

لم يكن هذا الكلام يشغل بال ياسين أو يعبأ به، فهو يريد أن يعيش مثل أصدقائه من أولاد كبار التجار، الذين زاد عليهم مجموعة من الأصدقاء الجدد من اليونانيين والإيطاليين وغيرهم سواء من الرجال أو النساء، وتحديداً النساء!

مع ذلك ربما كان ياسين أكثر حرصاً من والده على ألا تكون هناك علاقة من أي نوع مع جنود الإحتلال البريطاني، الذين كانت تعج بهم المدينة، تحديداً عندما تجمعهم الصدفة في البارات والحانات والمراقص الليلية.

البحث عن عروس

بفعل ذكاء ياسين وحرص والده بدأت تجارته تزداد وتنمو، ما جعل والده يتوسع في تجارته ويزداد عدد الصناع والعاملين لديه، بعدما اطمأن إلى مهارة نجله، ويتغاضى عن كثير من أحواله التي لم تكن ترضيه. غير أن التوسعات الجديدة خلقت من ياسين شخصاً جديداً، فزاد إحساسه بذاته وشبابه وثرائه، وبدأ يمارس سطوته كصاحب تجارة، في الوقت الذي تراجع دور والده في التجارة لكبر السن وانحصر في أن يجلس في الدكان الذي ازدادت مساحته ليضمّ في خلفيته ورشة للتصنيع، يبيع ويشتري وربما يذهب لتحصيل الأموال من بعض التجار، في حين أصبح ياسين المشرف على التصنيع والصياغة، وقبل أن ينهي يومه يتفق مع أصدقائه على المكان الذي سيقضى فيه ليلته.

زاد إحساس الثقة بالنفس عند ياسين، لدرجة أنه لم يعد يعبأ متى يعود إلى البيت وفي أي شكل، حتى اليوم الذي عاد فيه قبيل الفجر، فبينما كان والده يستعدّ لصلاة الفجر، سمع صوت عربة «سوارس» فأطلّ برأسه من شرفة البيت، ليرى ابنه الوحيد ينزل من العربة التي فيها امرأة.

وقف الأب في انتظاره ودخل ياسين البيت كعادته، فازداد الأمر تعقيداً حين شم والده رائحة الخمر تفوح من فمه، عندئذ جن جنونه، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يصفع فيها الأب الابن المدلل على وجهه وعلى صراخه استيقظ كل من بالبيت، الأم والشقيقة.

-علي: نساء وخمر، وصل الموضوع إلى هذا الحد!

أصبح هذا اليوم علامة فارقة في حياة الفتى المدلل، بعدما تبدلت علاقة والده به وتحول الأمر، فبعدما كان الحزم والشدة يأتيان من الأم، واللين والحنان المتدفق من الأب، خيم جو من التوتر على العلاقة بين الأب والابن، التدقيق في كل خطوة، الإنفاق بحساب، من يأتي إليه ومن يخرج معه ومتى يعود إلى البيت... لدرجة جعلت الأم تشفق على «المدلل» الذي كان.

على عكس ما جرت العادة بين الأسر في ذلك الوقت، إذ يكون البحث عن زواج الفتيات أولا ومع اقتراب شقيقة ياسين من سن الزواج، إلا أن الأب قرر أن يكون الزواج للولد أولا، قبل أن ينجرف في طريق اللاعودة.



إسماعيل يس... حكاية رجل حزين فرحة ما تمّت (الحلقة٢)

إسماعيل يس...
حكاية رجل حزين
فرحة ما تمّت

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

لم يتأزم الموقف بين ياسين ووالده تماماً، غير أنه أحدث شرخاً في العلاقة بينهما، خصوصاً مع إحساس الأب أنه كان وراء وصول الابن إلى هذه الحالة، فربما نجح في أن يجعل منه صائغاً ماهراً ومشروع تاجر متميز، سرعان ما أخذ مكانه بين كبار تجار المدينة، غير أن دافعه إلى ذلك يعود إلى خوفه عليه من أن يسلك طريق الفدائيين الذين يحاولون مقاومة الاحتلال الإنكليزي

في المدينة، كحال بقية مدن المحروسة، وهو الطريق الذي يمكن أن يأخذ منه ابنه الوحيد، لذا كان تدليله الزائد عن الحد. كل هذه الأسباب أدت إلى ابتعاد الابن عن الأب، فاتخذ طريقاً خاصاً به واهتمامات خاصة، زاد فيها انغماسه في حياة اللهو والنساء، توسيع صداقاته وعلاقاته، خصوصاً مع أبناء الجاليات الأجنبية الموجودة في المدينة في ذلك الوقت.

على الرغم من صغر هذه المدينة وهدوئها، إلا أنها كان تتسم بكثرة المراقص والملاهي الليلية والحانات وكان أكثر المترددين عليها من الجاليات الأجنبية وجنود الإحتلال والأهالي المتعاملين معهم، فضلا عن كبار التجار الذين كانوا يعملون في تجارة الأسماك والأقمشة والزيوت والمعادن.

عاش الأجانب لا سيما اليونانيين والأرمن والفرنسيين في السويس كأنهم من أبنائها وكانوا يملكون المتاجر والمصانع الصغيرة أو ما يطلق عليها «الورش «ومحلات البقالة والمطاعم، الأمر المدهش أن هؤلاء الأجانب كانوا يتكلمون العربية كأنهم مصريون ولم يعاملهم أبناء المدينة باعتبارهم غرباء أو أجانب، بل جزء منهم. لكن اختلف الأمر بالنسبة إلى الإنكليز، لأنهم مثلوا دائماً رمز الظلم والطغيان والإحتلال وكانت معسكراتهم وثكناتهم تنتشر على أطراف المدينة من كل الجهات وتجثم على صدر سكانها.

كانت المدينة تعيش تحت نير الاحتلال البريطاني على غرار بقية مدن مصر، ولم يكن لشعب تحت الاحتلال أحلام أبعد من حلم الاستقلال، فكان هذا الأخير الهمّ الأكبر الذي استحوذ على القادة والشباب على السواء، لذا لم يكن ذلك الزمن جميلا مرصعاً بالأحلام والآمال، من حيث التكوين الاجتماعي أو التركيبة السكانية.

على غرار بقية مدن القناة، تكونت السويس من خليط شكلته هجرات المصريين اليها في وقت تزامن مع افتتاح القناة وظهور شكل جديد للحياة في هذه المنطقة، ولم يجد أهل الجنوب، الذين نزحوا مع حفر القناة، أمامهم سوى الانخراط في أعمال وحرف تتطلبها حاجات الحياة والمعيشة في المدينة، مفضلين ذلك على العودة إلى منابع هجرتهم في صعيد مصر.

أما الهجرة الثانية فجاءت من شمال الدلتا وتكونت من الصيادين في المناطق التي تطلّ على بحيرة المنزلة، الذين وجدوا في المجرى المائي للقناة الجديدة مورداً جديداً للرزق، فنزحوا مع عائلاتهم إلى مدنها من بينها السويس، ليكوّنوا مجتمعاً يقوم على صيد الأسماك والتجارة فيها.

قلق على المستقبل

كان للمعلم علي نخلة علاقات اضطرارية مع البريطانيين، باعتباره أحد تجار تصنيع الذهب وكان هذا الأخير يُنقل بالسفن إلى بريطانيا أولاً بأول لأن سوقه لم تكن رائجة في مصر في ذلك الوقت، وكان الاعتماد بشكل أساسي على البيع للجاليات الأجنبية، ثم البيع الاضطراري بأبخس الأثمان للبريطانيين ليتم تصديره إلى بريطانيا وإعادة تصنيعه.

لهذه الأسباب كلها ولضعف التجارة وهبوطها وصعودها وفقا لأهواء المحتل، كان الأب يخشى على نجله ومستقبله، لذا حرص على أن يتعلم ياسين أصول التجارة ويكوّن شبكة علاقات واسعة مع كبار التجار، وهو ما جعله لا ينظر سوى إلى هذه الزاوية المهمة، لذلك كان إحساسه بالندم على ما جرى مع ابنه، إلا أنه جاء متأخرا، فقد بلغ ياسين مبلغ الرجال وأصبحت له جلساته الخاصة بعيداً عن الجلسات التي كان يصطحبه فيها الأب وراح يظهر في شكل كبار التجار. كان

ملفتاً بين أصدقاء الأب سؤالهم الدائم له كيف يترك ولده يصل إلى هذه السن ـ العشرينيات ـ من دون زواج؟!

-إلى متى تنتظر على زواج ياسين، فمن هم في مثل عمره لديهم أولاد يجرونهم أمامهم، كيف تتركه من دون زواج؟

-هل تظن أن هذا يرضيني؟ تعبت من كثرة الحديث معه في هذا الموضوع، ليس لي دعاء في كل صلاة سوى أن أرى حفيداً لي من ياسين، فهذه أمنيتي قبل أن أموت.

-الرجال ليس لهم في هذا الموضوع، فهو من اختصاص الحريم فلتبحث أم ياسين عن عروس بين الجيران والأقارب والمعارف.

رحيل الأب

بدأت رحلة البحث عن عروس للفتى المدلل ياسين، كان ذلك من مهام النساء بحكم لقاءاتهن في البيوت وجلسات الحريم وعرض كل واحدة منهن ما لديها من مواصفات فتيات في سن الزواج. كانت تسفر هذه الجلسات في الغالب عن زواج، من ثمّ بدأت رحلة استعراض العرائس على الفتى المدلل.

-الأم: ما رأيك في نسب المعلم أمين الحداد؟

-ياسين: يا أم ياسين، اللي يجاور الحداد ينكوي بناره.

-الأم: بلاش الحداد، الحاج علي القماش لديه ابنة في سن الزواج يتحاكون بأخلاقها.

-ياسين: نعم يتحاكون بأخلاقها لأنه لن يجرؤ أحد على أن يتحدث عن خلقتها، فلي صديق على صلة قرابة بأسرتها وأكد لي مرة أن والدها الحاج علي القماش يفوقها في الجمال!

-الأم: احترت معك، سأنفض يدي من هذا الموضوع وسأدع والدك يبحث لك عن العروس المناسبة ووقتها قل له: هذه جميلة وتلك قبيحة.

يتقدم ياسين من والدته ويقبّل يدها.

ـ ياسين: أبوس يديك، فأنا أعرف بمَ يفكر ولو أنه زوجني ابنة صديقه يوسف تاجر السمك، سألقي بنفسي في المالح ـ يقصد البحر ـ فأنا لا أحب أكل السمك، كيف أتزوجه!!

لم يدم البحث عن زوجة لياسين طويلا، ففي الوقت الذي كان والداه مشغولين بذلك، كان هو أكثر انشغالا منهما في البحث عن زوجة، ليس حباً في الزواج ولكن خوفاً من أن يختارا له زوجة تكون سبباً في شقائه طيلة حياته، حتى عثر أخيرا على الفتاة المناسبة، ربما لم تكن أكثرهن جمالا أو أكثرهن ثراء لكنه تعلّق بها منذ اللحظة الأولى التي رآها تدخل عليه لتشتري أساور ذهب. على الفور قرر ياسين أن ينقذ نفسه من العروض التي تنهال عليه ودخل على أمه يوماً وهو متهلل الوجه.

ياسين: خلاص يا أم ياسين وجدت العروسة المناسبة وعرفت كل شيء عنها وعن أهلها، من بكره نروح نزورهم. كلمي أبو ياسين وحاولي تقنعيه.

الأم: أقنعه!! ليه هي مش بنت ناس؟

ياسين: بنت ناس طبعاً... بس!...

لم يكد ياسين يكمل جملته حتى سمع ووالدته طرقاً على الباب، دخل الأب محمولا بين أيدي أصدقائه بعدما سقط في الشارع أثناء عودته. وظل أياماً طريح الفراش. يبدو أنها النهاية التي لم يكن يتوقعها ياسين بهذه السرعة، فرحل الأب قبل أن يحقق أمنيته برؤية أحفاده.

رجل البيت الوحيد

بفقدان الأب شعر ياسين أنه أصبح في العراء، على عكس ما كان يظن البعض من أنه برحيل والده سيصبح أكثر تحرراً وسيهمل تجارته ويضيّع كل ما كوّنه أبوه في سنوات عمره في الملذات وشرب الخمر والنساء، بل كل ما فعله رحيل الأب هو تأجيل فكرة الزواج، ربما إلى أجل غير مسمى، لكن في المقابل زاد إحساس ياسين بالمسؤولية، أصبح فجأة مسؤولاً عن تجارة والده بمفرده، لذا حرص على ألا تضيع منه بعدما تكاتف عليه بعض أصدقاء الأب حرصاً منهم على ألا يكون سبباً في ضياع اسم والده.

-أنت الآن كبير الأسرة والرجل بعد والدك، ووالدتك وشقيقتك أمانة في عنقك، لا بد من أن تلتفت إلى تجارة والدك وتبتعد عن الطريق الذي يمكن أن يأخذك بلا عودة.

-أعرف كل ما تريدون قوله، فليس لي غيرهما الآن ويجب أن تتزوج شقيقتي في فرح تحكي عنه السويس كلها وليس حي الأربعين. إذا كان الحاج علي بذل سنوات عمره ليصنع اسمه وتجارته، فلن يكون لي همّ سوى أن يكبرا وستكشف الأيام صدق كلامي.

التفّ كبار التجار حوله واعتبروه واحداً منهم، مرت الأشهر وياسين يفي بما قطعه على نفسه. أصبح الرجل في البيت وفي التجارة التي تكبر وتنمو ويزداد فخر الأم به يوماً بعد يوم.

لكن مع أول عرض من أحد الأصدقاء القدامى، بدأت مرحلة الانهيار والتراجع.

-إيه يا عم ياسين، خلاص نسيتنا ونسيت أيامنا؟

-معقول وإحنا نستغني، بس من يوم المرحوم والواحد حاسس إن الدنيا كلها على دماغه وبعدين يا سيدي الأيام جايه. شوف أنت بس مناسبة ورتب لنا سهرة حلوة.

-المناسبة موجودة والسهرات الحلوة مفيش أكتر منها.

-وأنا جاهز من دلوقتي.

-كلام جميل، يبقى النهاردة عند المعلم أبو العز السويسي.

-بتاع السمك؟

-أيوه، جايب صبيت من مصر والسهرة صباحي.

-أكيد جايب الشيخ يوسف المنيلاوي، ده مفيش زيه.

-الشيخ يوسف المنيلاوي تعيش أنت من قبل رمضان اللي فات.

-عليه رحمة الله، أمال جايب مين ؟!

-الشيخ عبد الحي حلمي والتخت بتاعه.

- يبقى السهرة صباحي.

زواج الفتى المدلل

كانت تلك الليلة شرارة العودة إلى أيام السهر واللهو، فلاحظت أم ياسين عودة ابنها إلى الحال الذي كان عليه قبل رحيل والده: السهر حتى آذان الفجر والعودة إلى المنزل مترنحاً ورائحة الخمر تفوح من فمه والنوم إلى ما بعد صلاة عصر اليوم التالي، في الوقت الذي يأتي فيه العمال في المحل وورشة صياغة الذهب منذ الصباح الباكر إلى المنزل من دون جدوى، ويعودون للوقوف أمام المحل والورشة إلى حين استيقاظ ياسين والذهاب إليهم، ولا يلبث أن يمضي ساعات قليلة في المحل ثم ينصرف مسرعاً إلى سهرات اللهو والطرب والحانات والمراقص. كل يوم مخصص لمكان يذهب إليه.

لم تجد أم ياسين حلاً سوى إعادة إحياء فكرة الزواج مرة أخرى، فقد مضى ما يزيد على العام على وفاة والده.

عاد الكلام عن العروس التي كان وقع اختيار ياسين عليها، فهي ما زالت غير متزوجة خصوصاً أنها انشغلت به، فوجد ياسين أنها فرصة ليبعد عن رأسه الصداع الدائم الذي تسببته له والدته بضرورة الزواج، وهو على يقين بأنها لن ترفض هذه العروس، على الرغم من بساطة أسرتها، فهي لم تكن في المستوى الاجتماعي نفسه لأسرة ياسين، إنما من أسرة بسيطة توفي عائلها والأم «أليفة» هي الحاكم الآمر في كل شيء وتتمتع بجرأة الرجال وصلابتهم، وليس لأشقاء الفتاة أو أعمامها أو حتى أخوالها كلمة بعد كلمتها.

كانت المعلمة أليفة ـ كما كانوا يطلقون عليها ـ من نوعية النساء اللواتي خلعن قلوبهن ووضعن مكانها قطعة من الحجر أو الحديد الذي لا يلين. ففي الوقت الذي كان فيه الرجال يخشون التجوّل في شوارع المدينة ليلا، كانت «أليفة «تذهب لتدخّن «الشيشة» في منطقة مهجورة على أطراف المدينة، بالقرب من المقابر، وفي كثير من الأحيان كان ذلك يتمّ داخل أحد أحواش المقابر!

هذه الأمور كلها جعلت لها كلمة مسموعة عند الرجال قبل النساء، فإذا قالت كلمة لا تردّها، مهما كلفها ذلك، وإذا أخذت انطباعاً عن شخص ما تعاملت معه، لا يتغير هذا الانطباع مهما اجتهد هذا الشخص في تغييره.

كانت تتاجر في الأقمشة والزيوت وتعمل كوسيط بين كبار التجار وبين الباعة بالتجزئة، لم يكن ذلك يدرّ عليها بالمال الوفير، في الوقت الذي كانت تنفق فيه الكثير على حياتها الشخصية، لذا لم تجلس معها أم ياسين سوى مرة واحدة، تم الاتفاق فيها على كل شيء ولم تستطع مجالستها مرة أخرى بعدما عرفت أنها تدخّن «الشيشة» حتى في وجود الرجال، وتولى ياسين في ما بعد الاتفاق معها على ما تبقى من تفاصيل الزواج.

على الرغم من الاتفاق على كل شيء، إلا أنه حرص على أن يزوّج شقيقته قبل أن يزفّ إلى عروسه، ما أدخل السرور إلى قلب أمه، فشعرت بالفعل أنه يمكن أن يحلّ محل الأب.

عودة إلى السهر والملذات

لم يمض وقت طويل على زواج شقيقة ياسين، حتى أقيمت الأفراح، وزف ياسين لعروسه في مطلع عام ١٩١١، فأصبح مسؤولاً عن أسرة جديدة وعاش ياسين مع زوجته وأمه، كأسعد ما يكون الزواج. كان حريصاً على أن يبني أسرة جديدة وأن يحقق حلم والده في أن يكون له «عزوة» من الأولاد يملأون عليه حياته، وهو ما جعل أم ياسين تطمئن عليه بعد شهر واحد من الزواج.

- مش تتجدعني بقى علشان نفرح بذريتكم.

في خجل واضح

-بلاش الكلام ده يا نينة.

لكن سرعان ما تبددت أجواء السعادة التي كانت تخيّم على البيت، مع انتهاء الأسابيع الأولى من الزواج، إذ بدأ الحنين إلى الحياة الأولى يأخذ ياسين مرة أخرى وعاد أصدقاء السوء يتكالبون عليه.

- يبدو أن أخلاقك فسدت بعد الزواج، فأصبحت لا تغادر البيت بعد العشاء.

-اتركه ربما كانت زوجته تغلق باب البيت مبكراً!!

-لا داعي لهذا الكلام وبدلا من السخرية أنت وهو إبحثا لنا عن المكان الذي سنقضي فيه ليلتنا.

-هذا هو الكلام، لتعود أيام الأنس.

-ما رأيكما أن نسهر اليوم عند «ياسو» فقد سمعت أنه أتى براقصة من مصر، يتحاكون بجمالها.

-فلتكن الليلة عند «ياسو»!

في انتظار ولي العهد

كانت الأم تظن أن الزواج سيجعل من ياسين رجلا جديداً، بعيداً عن الفتى المدلل الذي تربى على أن تلبى كل طلباته حتى فسدت أخلاقه، وعندما بدأ يتعامل مع زوجته بعد الشهر الأول من

الزواج بفظاظة، كانت تعمل على إرضائها وتطييب خاطرها حتى لا تنقل ما يحدث معها إلى أمها المعلمة «أليفة» وحتى لا يفشل زواج ابنها الوحيد وتتركه فريسة لحياة اللهو والعبث في الوقت نفسه، ومع كل محالات الود والحب التي كانت تحاول زرعهما في نفس زوجة ياسين، إلا أن ياسين عاد مرة أخرى إلى سابق عهده مع حياة الليل وصحبة السوء، النساء والخمر والسهر حتى الصباح.

لم يستطع الزواج أن يغير من حياة ياسين التي اعتاد عليها سنوات طويلة: نوم طوال النهار، سهر طوال الليل، دائم الشجار مع زوجته. ما إن تبدأ بمفاتحته في ما وصل إليه حاله وحال تجارته، بناء على نصيحة والدته لها، حتى يبدأ الشجار الذي كان ينتهي غالباً بالضرب، وفي إحدى المرات وقبل أن يهوي بيده على وجهها، سقطت مغشياً عليها، حملها إلى السرير على الفور وحاولت الأم إفاقتها، غير أن هذه الأخيرة لم تمرر حادث سقوطها مغشياً عليها مرور الكرام، فاستدعت على الفور السيدة «رزقة المولدة» لتكشف عليها، صدق حدسها، خرجت السيدة «رزقة» من الغرفة وهي تزغرد، لتؤكد أن على ياسين أن ينتظر ستة أشهر ليستقبل ولي العهد.

لم تتمالك أم ياسين نفسها من الفرحة وانهمرت دموعها، سوف تتحقق أمنية الأب ويأتي الحفيد.

نزل الخبر على سمع ياسين ليفعل فعل السحر، فلم تكن زوجته تتصور أنه سيفرح كل هذا الفرح. لم يتمالك نفسه من الفرحة وخرج إلى الشارع ليخبر كل من يقابله بأنه سيصبح أباً خلال أشهر قليلة. عاش الجميع الأشهر المتبقية في شوق ولهفة بانتظار وصول المولود المنتظر.



إسماعيل يس... حكاية رجل حزين بيت النتاش (الحلقة ٣)

إسماعيل يس...
حكاية رجل حزين
بيت النتاش

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

درجت العادة أن يستقبل أهل مصر شهر رمضان بالاحتفالات والفرح والطبول تعبيراً عن

سرورهم بهذا الشهر الكريم، فتضاء الشوارع والحواري والأزقة بالفوانيس، في الليل يسهر الصائمون حتى وقت السحور لصلاة الفجر، وفي النهار تضجّ الأسواق بالباعة والمشترين. ولشهر رمضان عادات وتقاليد خصوصاً في مدينة السويس يتوارثها الناس عن آبائهم وأجدادهم، فما أن تثبت رؤية الهلال إيذانا ببدء الصوم، حتى تغلق أغلب الحانات والمراقص ـ مع أن أصحابها ليسوا مصريين أو مسلمين ـ ويجتمع الناس، رجالا ونساءً وأطفالا، في المساجد والساحات العامة يستمعون إلى الأناشيد والمدائح النبوية والصوفية، ابتهاجاً بحلول هذا الشهر الفضيل، ويطوف العلماء والفقهاء على المساجد والتكايا التي كانت تفتح أبوابها طوال الشهر ـ على طريقة موائد الرحمن الحالية ـ لتفقد ما يجري فيها من تنظيف وإصلاح وتعليق قناديل وإضاءة شموع وتعطيرها بأنواع البخور والمسك والعود الهندي والكافور وتجهيز أدوات الطهي والطبخ.

كان للفانوس أهمية خاصة ـ منذ دخول الفاطميين مصر ـ واستعمالات عديدة، يحمله الكبار لينير دروبهم أثناء السير ويجوب به الأطفال الحواري والأزقة والشوارع وهم ينشدون الأغاني الرمضانية الجميلة.

رحيل الأم... وولادة النجم

ما إن حلّ شهر رمضان في العام ١٣٣٠ في التقويم الهجري، الذي يقابله أغسطس وسبتمبر من العام ١٩١٢ في التقويم الميلادي، وهو الشهر الذي كان مقدراً أن تلد فيه زوجة ياسين مولودها الأول، وفق حسابات السيدة {رزقة المولدة}، حتى بدأت أسرة ياسين الاستعداد لاستقبال مولودها، وراح ياسين يشتري كل ما لذ وطاب بما في ذلك {الفانوس}، غير أن حسابات السيدة {رزقة المولدة} لم تكن دقيقة بالقدر الكافي، ومرّ الشهر سريعاً من دون أن يصل الضيف المنتظر.

أبى القدر أن يمهل والدة ياسين لتتحقق أمنيتها برؤية حفيدها الذي انتظرته طويلا، إذ وافتها المنية ورحلت وهي في شوق ولهفة لأن ترى ذرية ياسين. حزن هذا الأخير حزناً كبيراً على فراقها كما لم يحزن في السابق، حتى على والده الذي كان مصدر سعادته وتدليله. شعر باليتم ـ على كبر سنه ـ واعتصر الحزن قلبه على فراق من أحب... وانتظر بفارغ الصبر أن يأتي الحفيد الذي أحبته والدته قبل أن تراه.

مرّ شهر رمضان بأكمله وثلاثة أيام من عيد الفطر المبارك، وفي اليوم الرابع استقبل ياسين والدنيا كلها هذا المولود الذي أطلق عليه والده اسم {إسماعيل {وذلك في الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩١٢، الموافق الرابع من شوال عام ١٣٣٠، فأعلن عن مولد {إسماعيل يس.{

آمال... وآلام

فرحت الأم كما لم تفرح في السابق بقدوم مولودها {إسماعيل}، فعلى الرغم من أن زواجها لم يمرّ عليه سوى عام أو يزيد قليلا، إلا أنها شعرت بأن السماء أرادت أن تعوضها أيام الشقاء والتعاسة التي عاشتها خلال هذه الفترة... فها هو إسماعيل سيملأ عليها حياتها، بعدما فرغ البيت برحيل الحماة جدة إسماعيل، وسيكون هو سلواها في ظل غياب والده ياسين عن البيت.

على الرغم من حالة الانكسار التي أصبح عليها ياسين برحيل والدته، إلا أنه فرح بمولوده الأول، وراح يمني نفسه بأن ما إن يشتد عود إسماعيل حتى يبدأ في إعداده ليكون خليفة له، كما فعل معه

والده، يعلمه تجارته ويشربه {الصنعة {التي نشأ وتربى عليها، وهي صياغة الذهب، وإن كان لأم إسماعيل رأي آخر، فهي تريد أن يكون طالب علم أو أحد علماء الأزهر الشريف في مصر، أو يلتحق بمدرسة} المهندس خانة} ـ كلية الهندسة ـ أو غيرها من المدارس العلمية، وهو ما جعلها ترفض نية الأب في أن يكون الابن امتداداً له.

قرر ياسين أن يبدأ حياة جديدة بوصول ابنه إسماعيل، أصبح أكثر حرصاً على العودة مبكراً إلى البيت، لم يعد إلى سهرات المراقص والملاهي الليلية، ابتعد عن شرب الخمور، أصبح أكثر انضباطاً كرب أسرة مسؤول عن أسرته، وزاد من إحساسه بالمسؤولية أنه فقد من كان يركن إليهما، أي والده ووالدته.

التغيير الذي حدث في حياة ياسين بوصول نجله شعرت به {أم إسماعيل}، وراحت تمني نفسها بحياة جديدة بعيداً عن المشاكل التي أرقتها في السنة الأولى من زواجها، وبتربية {إسماعيل} كما تريد، ولم تكن تدري أن هناك الكثير ـ بين المر والحلو ـ الذي يخفيه القدر لها ولهذا الطفل الذي لم يمض على وجوده في الدنيا سوى أشهر قليلة.

كانت بداية المصائب برحيل الجدة وانعكس ذلك بشكل كبير على الأب ياسين، الذي شعر بأنها رحلت وأخذت معها كل شيء جميل، رحلت وأخذت معها الخير، وحين جاء إسماعيل اعتقد المقرّبون من الأب أنه سيقلع عن ألاعيبه وما عُرف عنه من تحرر وسيتفرغ لتربية ابنه والإعتناء بعائلته، وحاول هؤلاء ثنيه عما كان يعيش فيه من لهو وعبث:

-أنت الآن كبير العائلة يا ياسين، وأصبحت أبا ولا بد من أن تلقي خلف ظهرك ما كنت تفعله في السابق وأن تلتفت إلى تجارتك وابنك لتحسن تربيته.

-أعرف ذلك، هذا بالفعل ما أنوي فعله، لكن لا أخفي عليك أنني أشعر للمرة الأولى بالوحدة في هذه الدنيا وبالمسؤولية بحق.

-جميل أن تشعر بالمسؤولية، لكن لست وحدك فكلنا أهلك واعلم أننا معك في الخير فحسب، لكن إذا عدت إلى ما كنت عليه، فلن تجد أحداً بجوارك!

بداية الكوارث

منذ بداية الحرب العالمية الأولى، أصبحت السويس ميناء مهماً على الحدود الشرقية لمصر، تضج بالجنود في معسكرات جيش الاحتلال الإنكليزي، وكانت القناة إحدى نقاط الارتكاز له في الحرب، وقد أدى هذا الوضع إلى انتشار المحلات التجارية التي تقوم على خدمتهم، خصوصاً البارات والملاهي الليلية وبيوت البغاء، كذلك على خدمة أهالي السويس الذين يتعاملون معهم، خصوصاً الفئات التي تجد في يدها في آخر اليوم فائضاً من الربح من دون تعب أو عناء!

لم يمض وقت طويل على استقامة ياسين حتى عاد إلى سابق عهده، غير أنه كان هذه المرة أسوأ، عاد من جديد إلى سهراته ومغامراته النسائية والسهر حتى الصباح. انصرف عن عمله وشغلته غرامياته عن أسرته وابنه فعاشت زوجته المرّ والشقاء من جديد، انصرف عنه الجميع، بمن فيهم أصدقاء السهرات والحظ، لسبب بسيط أنه لم يعد لديه ما يبتغونه منه بعدما بدا إفلاسه وشيكا، أهمل تجارته وقلّص عدد العاملين لديه ولم يبقِ إلا على قلة منهم.

بسبب سوء أحواله أصبح ياسين دائم الشجار مع زوجته {أم إسماعيل} لأنه لم يعد ينفق على البيت، حتى مصروف الأكل والشرب، كان يترك الأم وطفلها أياما وربما أسابيع من دون أن يسأل عنهما وكيف يأكلان ويشربان وكيف تدفع ثمن تعليم الصغير في {الكُتاب} الذي حرصت على أن يلتحق به ليتعلم قراءة القرآن الكريم.

لم يكن أمامها إلا اللجوء إلى أسرتها لتدبير بعض النقود للمأكل والمشرب .شكت الزوجة لأمها {أليفة} فهي الأقرب لها ومستودع أسرارها، لكن لم تكن الأم تملك من الأمر شيئاً سوى أن تدبّر لها نقوداً بسيطة تكفل لها الأكل والشرب بالكاد، وتفعل ذلك على مضض، من أجل ابنتها!!

لم تقبل والدة إسماعيل يس بهذا الوضع المهين بأي شكل من الأشكال، كرهت الحياة مع زوج يهمل بيته وابنه ويهجرها ليلا، وما أكثر الخلافات التي وقعت بينهما وكانت تؤدي أحياناً إلى الغضب وإساءة معاملة الزوجة، بل وتشويه صورتها أمام الجيران!

حاولت الأم أن تتماسك وتتحمل من أجل ابنها وبيتها الذي يوشك على الانهيار، وزوجها الذي يسير في طريق لا نهاية له ويجرف استقرار البيت ومستقبل الابن معه، الذي بدأ يكبر ويفهم معنى أن يتشاجر والداه يومياً، لدرجة أنه كان يستيقظ في أواخر الليل على أصوات صراخهما، عندما يأتي الوالد في ساعات متأخرة ويتمايل مخموراً.

يتم مبكر

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى عمّت البلاد حالة جديدة من الكساد ووصل الأمر بياسين إلى حد الاستدانة من القريب والغريب وما أن تدخل جيبه أية نقود حتى يسرع إلى شراء الخمر.

مع برد الشتاء القارس، وفي ظل عدم وجود ما يحمي الأم وصغيرها من البرد ولا يملأ معدتها من طعام، بدأت الأمراض تداهمها، فأصاب المرض صدرها، مع ذلك كان همها الوحيد الحرص على حياة هذا الوليد، فلا ذنب له ليأتي إلى الدنيا ليشقى. كانت تمنع نفسها من الطعام لتطعمه وتتحمل برودة الجو لتدفّيه وتدبر بالكاد ما يكفل استمرار تعليمه الذي كانت حريصة عليه علّه يحقق حلمها يوماً ويكون كما تمنت، كل ذلك جعل صحتها تتدهور وتصبح وهي في ريعان الشباب، عجوزا طاعنة في السن!

يمضي الحال بالأسرة من سيئ إلى أسوأ حتى جاء اليوم الفصل، ليس الفصل في العلاقة بينهما بل في حياتهما معاً وحياة طفلهما، فلم يكن شجارهما في هذا اليوم مثلما سبق، كانت المرة الأولى بل الأخيرة التي يصل فيها الشجار بينهما إلى هذا الحد:

-ألم تعد ترى كيف أصبحنا أنا وابنك؟! هل تدري أننا نتسول قوت يومنا؟! هل ترى الملابس التي نرتديها؟! هل تعلم أننا لم نذق الطعام منذ عصر الأمس؟!

-وماذا أفعل البلد حالها توقف تماماً ولم يعد هناك لا بيع ولا شراء

-أي حال وأي بلد، أنت وحدك الذي توقف حالك وأوقفت حالنا معك. الناس تعمل وأحوالها إلى خير إلا أنت وحدك لأنك اخترت طريق الشر والخمر والنساء والعربدة.

-ألن ننتهي من هذه السيرة، أية نساء؟! فلم يعد لي علاقة بهن ، ألن تنتهي غيرتك العمياء تلك؟

-أنت واهم، أية غيرة وأية نساء؟! افعل ما تشاء ولكن أمّن لي ولهذا الطفل طعامنا وشرابنا وكسوتنا.

-لماذا لا تتحملين معي هذه الظروف العصيبة؟! فهي فترة وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه بل وأفضل.

-لقد تحملت الكثير، ويمكن أن أتحمل أكثر، لكن ما ذنب هذا الطفل الذي يشعر باليتم وأهله على قيد الحياة؟!

احتدّت الزوجة واحتدّ ياسين، ولم يتحمل كلامها الذي شعر بأنه سكين يمزق أحشاءه فدفعها بيده ليبعدها عن طريقه وهمّ بالخروج من البيت، غير أنه فوجئ بها تسقط على الأرض، فعاد إليها مسرعاً.

-أم إسماعيل، مالك، ردي عليّ، أم إسماعيل!

لكنها لم تنطق سوى بكلمة واحدة

-إسماعيل...

وضع رأسه على صدرها لم يسمع نبضاً، خرج إلى الشارع وحاول أن يستغيث بالجيران، أو يفعل أي شيء. وتجمع الجيران، لكن أحدا لم يستطع أن يفعل شيئاً، ماتت الزوجة المسكينة على الفور.

عزيز قوم ذل

مع أن والد إسماعيل كان يسوم زوجته سوء العذاب في حياتها إلا أنه حزن حزناً شديداً على رحيلها، ربما لأنه أدرك أنه السبب في العذاب الذي عاشته بسبب الجري وراء ملذاته، ولم يشعر بمدى حبه لها إلا بعد فقدها وحرمانه منها للأبد. ففي ظل المشاكل والشجار اليومي الذي كان يدور بينهما باستمرار، لم تكن تترك بيتها، بل حرصت على أن يظل مفتوحاً لترعى شؤون الصغير الوحيد إسماعيل، الذي أصبح مشكلة المشاكل بالنسبة إلى أبيه، فقد خلا البيت عليهما.

لم يجد ياسين ما ينسيه همومه وتراكم الكوارث فوق رأسه سوى أن يعود مرة أخرى إلى الخمر، شعر بأنه يضيع، أصبح عاجزاً عن فعل أي شيء، وبعدما فشلت الخمر في أن تنسيه ما هو فيه، اتجه إلى تعاطي المخدرات، فأهمل الورشة، لدرجة أنه لم يبق على أحد من العاملين فيها، ولم يعد قادراً على أن يدفع لهم أجورهم بعدما تراكمت عليه الديون، فاضطر في النهاية إلى أن يبيع ما فيها ليدفع جزءاً من ديونه وينفق ما تبقى على شرب الخمر، وتحول المحل من بيع الذهب إلى بيع بعض مشغولات الفضة التي لم تكن تكفي حتى لقوته اليومي هو والصغير إسماعيل، وعندما زاد الموقف تأزماً اضطر إلى التضحية بتجارته وتجارة والده وأجداده، لتنتهي إلى الأبد، فباع الورشة وأغلق المحل، مع ذلك لم يبق ثمن الورشة معه أكثر من شهر، وما إن نفدت نقوده حتى تبدل شكله وحاله، وبعدما كان يرتدي أفضل الملابس وأغلاها ثمناً، أصبحت ملابسه رثة، وفي بعض الأحيان ممزقة، فيبدو لمن يراه ولا يعرفه أنه يتسول قوت يومه!!

اضطر إلى العمل عند زميل له، عطف عليه وأشفق على حاله بعدما وجد أنه تحطم تماماً، ولم يعد يجد ما يسدّ به رمقه ورمق صغيره.

على الرغم من أن إسماعيل كان في سن مبكرة من عمره، إلا أنه كان على درجة من الوعي والمعرفة ما جعله يدرك حجم الكارثة التي حلّت بأبيه فضلا عن حزنه الشديد على رحيل أمه، القلب الوحيد الذي عشقه وتألم له، حتى وهي في النفس الأخير لم يكن هناك شيء في الدنيا يهمها سواه، وكان اسمه آخر ما نطقت به.

أيام الرعب... والشقاء

كان الصغير يقضي نهاره مع الأولاد في الشارع، يلعب ويلهو معهم، وكان أكثر ما يتمناه أن يستمر اليوم نهاراً بشكل دائم، لأن ما كان يثير الرعب في نفسه أن يأتي الليل ويضطر مثل بقية أقرانه إلى أن يعود إلى البيت، غير أن هؤلاء يعودون ليرتموا في أحضان آبائهم وأمهاتهم يأكلون ويشربون وينامون وهم يشعرون بالأمان.

كانت الساعات تمضي ثقيلة مرعبة، وإسماعيل بمفرده في البيت، الذي يسيطر عليه الظلام من كل جانب، شعرت بذلك إحدى الجارات فتطوعت لتشعل له {لمبة الغاز{، وفي كثير من الأحيان يتم نسيانه، أو تأخذه إحداهن ليأكل ويظل مع أولادها حتى تنتهي رحلة الأب من العمل ثم المرور على إحدى الخمارات ليشرب كأسين أو} ربع زجاجة} ويعود إلى البيت، معه بعض اللقيمات التي يسدّ بها جوع صغيره، وربما لا يأكل هو ليوفر للصغير هذه اللقيمات ويكتفي هو بالشراب.

حياة بؤس وشقاء وجوع وفقر بل ورعب، تلك التي كان من المفترض أن يتحملها هذا الصغير في هذه السن المبكرة. كان والده كلما رأى ما عليه صغيره يزيد حزنه وغمه ويفرط في الشراب وكأنه كان يتمنى لو انتهت حياته هو وبقيت أم إسماعيل، فربما تبدل حال الصغير إلى أفضل مما هو عليه الآن عشرات المرات، لكنه القدر الذي اختارها ليتركه يتعذب بذنبها.

مرت الأيام ثقيلة وياسين يعاني الأمرّين، سواء من حالة الكساد التي يعيشها أو من الحمل الثقيل الذي تركته له زوجته برحيلها. فهو غير قادر على الاعتناء بابنه إسماعيل وتربيته، وكان يتألم عندما يراه أمامه صامتاً، غير أن نظرات الصغير تحولت إلى سكاكين تقطع أحشاءه، فكان يحنو عليه أحيانا ويصطحبه معه إلى العمل ويتركه يلهو ويلعب أمامه إلى حين الانتهاء من عمله .يبدو أن وجود إسماعيل معه جعله يخجل من أن يذهب كعادته اليومية إلى الخمارات والمراقص التي اعتاد أن ينفق فيها ما لديه من مال.

بعد فترة بدأت الأموال تجري في يد ياسين من جديد، فقرر شراء المشغولات الذهبية والفضية بالأجل، وأعاد فتح المحل مرة أخرى وعادت الحياة تبتسم من جديد، ولو قليلا، إلا أن الحال أصبح غير ذي قبل وانتبه ياسين إلى أن البيت أصبح مهجوراً، وأنه لم يعد قادراً على خدمة إسماعيل، والأهم من هذا وذاك أنه لم يعد قادراً على العيش من دون امرأة، ففكر في الزواج من أخرى ربما استطاع أن يكوّن أسرة من جديد تعيد إليه ما فقده.

وتسرع الأيام لتقدم له مفاجأة جديدة، سرعان ما نسي الأب المحب للحياة والنساء، الزوجة التي ماتت، وأن ابنه في حاجة إلى رعايته، فقرر الزواج مرة أخرى، بما أن المال أصبح متوافراً وهو يحتاج إلى امرأة.



إسماعيل يس... حكاية رجل حزين الستات عفاريت (الحلقة ٤)

إسماعيل يس...
حكاية رجل حزين
الستات عفاريت

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

لم تكد الحرب العالمية الأولى تطوي صفحاتها في العام ١٩١٨، حتى اشتعلت كل مدن مصر ومحافظاتها بالثورة في العام التالي ١٩١٩، كان المصريون يطالبون بالإفراج عن سعد زغلول ورفاقه الذين اعتقلهم الإنكليز لأنهم طالبوا باستقلال مصر، ومنعوهم من السفر إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح والمطالبة بحق مصر في تقرير مصيرها، طبقاً للمبدأ الذي أعلنه الرئيس الأميركي ويلسون {حق كل شعب في تقرير مصيره.{

رفضت سلطات الاحتلال البريطاني السماح لهم بالسفر بحجة أنهم لا يمثلون الشعب المصري وليست لهم أية صفة رسمية، بناء على ذلك طبع الوفد آلاف التوكيلات ووزعها في كل أقاليم مصر للحصول على توقيع المصريين عليها، وقد أرسل سعد زغلول برقية إلى ويلسون يطالبه فيها بمساندة القضية المصرية.

نجحت حملة جمع التوكيلات نجاحاً كبيراً وتوالت البرقيات على الديوان السلطاني تعلن تأييد سعد زغلول وعليها آلاف التوقيعات؛ ما جعل السير وينجت ـ المندوب السامي البريطاني آنذاك ـ يخشى تبلور زعامة مصرية جديدة بعدما خلت الساحة من زعيم يلتفّ حوله المصريون بوفاة مصطفى كامل وهجرة محمد فريد، لذلك ألقى وينجت القبض على أعضاء الوفد وأرسلهم إلى بورسعيد في ٨ مارس1919 ، من هناك نُقلوا في إحدى السفن الحربية إلى مالطة.

في اليوم التالي قامت التظاهرات في كل محافظات مصر، بدأها طلاب الجامعة المصرية، ثم طلاب الأزهر وانتشرت في كل الأقاليم وشاركت فيها فئات الشعب من عمال وفلاحين وتجار وغيرهم، كذلك شاركت النساء في التظاهرات للمرة الأولى، وانهالت الاحتجاجات والبرقيات على الديوان السلطاني تعلن تأييد الأمة لسعد زغلول والاحتجاج على القبض عليه وتطالب بالإفراج عنه والسماح له بالسفر إلى باريس. فلم تجد انكلترا بُداً من الإفراج عنه والسماح له بالسفر إلى باريس، لإقناع برلمانات الشعوب الأوروبية بحق مصر في تقرير مصيرها.

عملت انكلترا على عزل الوفد المصري والالتفاف عليه في محاولة التفاوض مع الحكومة المصرية وبعض زعماء الصف الثاني للوصول إلى حلّ وسط خصوصاً أن سعد زغلول لم يكن يرضى عن الاستقلال التام بديلاً، فأرسلت انكلترا لجنة برئاسة اللورد ملنر لهذا الغرض، لكن الشعب المصري قاطعها وأعلن احتجاجه عليها مؤكداً أن الوفد المصري برئاسة سعد زغلول هو الممثل الشرعي والوحيد للشعب المصري، فعاد ملنر خاوي الوفاض وأوصى في تقريره بضرورة التفاوض مع سعد.

استجابت انكلترا للتوصية، لكن مفاوضات (سعد ـ ملنر) فشلت نتيجة إصرار سعد على حصول مصر على الاستقلال التام وإصرار ملنر على ضرورة الإبقاء على الوجود البريطاني في قناة السويس تحت دعوى حماية الأجانب في مصر، ما أدى إلى زيادة قوات وجنود الاحتلال في مدن القناة (السويس والإسماعيلية وبورسعيد) وأشعل الحركة الوطنية ونشط حركة الفدائيين في مدن القناة من ناحية وزاد حركة التجارة وارتفاع الأسعار من ناحية أخرى، كل هذه العوامل أدت إلى خلق حالة جديدة من النشاط وثراء بعض التجار الذين أوشكوا على الإفلاس.

كان من بين هؤلاء التجار الذين انتعشت حالتهم ياسين، فأقدم على الزواج من جديد، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى سابق عهده في السهر والنساء والخمر وترك صغيره {إسماعيل} فريسة بين براثن زوجته الجديدة.

-خد يا إسماعيل، جبت لك جلابية جديدة أهه، زي ما جبت لنفسي.

-بس أنت جبت تلاتة لنفسك وكمان جبت طواقي وشيلان.

-أيوه ما هو علشان العروسة، أنا عايزك تسمع كلامها علشان تحبك وتاخد بالها منك، دي هتبقى زي أمك.

نظر إليه إسماعيل طويلا ثم انصرف بعدما قال:

-أنا أمي ماتت عند ربنا.

عذاب زوجة الأب

مرّ عامان على زواج الأب وبلغ إسماعيل الثامنة من عمره وبدأ يعرف معنى اليتم وفقدان الأم، القلب الحنون الذي كان يحتضنه ويحميه، وراح الصغير يبحث عن الحنان المفقود وعن القلب الذي يضمه ويعوّضه ما فقد لكن بلا جدوى.

كالعادة... لا تطيق الزوجة الجديدة، أن ترى ابن {ضرتها} السابقة، فأذاقته صنوف العذاب وتعاملت معه باعتباره خادماً في البيت وليس صاحبه وله الحق قبلها وبعدها في كل شيء، فكانت تجبره على التنظيف وقضاء حاجياتها من الشارع، لدرجة أنه لم يكن يلتقط أنفاسه أو حتى يشعر بطفولته أو يمارس حياته مثل بقية أقرانه في الشارع من لعب ولهو، ومنعته من الذهاب إلى المدرسة التي ألحقه بها والده لينال حظه من التعليم.

-تعليم إيه... هو ده وش مدارس... ده يفضل في البيت علشان يجيب اللي يحتاجه البيت... ولاً عايزني أنا أخرج إلى الشارع!

-أيوه بس الولد لازم يدخل المدرسة ويتعلم.

-أهو كفاية اللي أخده في الكتاب.

لم يكن إسماعيل يشكو لوالده سوء معاملة زوجته، بل كان يحدث العكس. فما إن يدخل ياسين البيت، حتى تسرد له زوجته شكاواها من إسماعيل، فهو برأيها قليل التربية ولم يجد من يربيه وعلى والده إيجاد حلّ، فإما هو أو هي في البيت.

وضعت الزوجة الجديدة الأب في مأزق، فاسماعيل ابنه الوحيد وليس له غيره، وعندما فكر أن يذهب به عند شقيقته (عمة إسماعيل)، ألمح زوج شقيقته أن بيته أولى به.

هنا طرأت فكرة على رأس ياسين، لماذا لا يعهد بإسماعيل إلى جدته؟ من غير المعقول أن تتركه هذه الأخيرة في هذا العذاب، خصوصاً أنه لم يعد قادراً على أن يرعاه، فقرر أن يذهب به إلى جدته لأمه {أليفة}، فهي الوحيدة في هذا العالم التي يمكن أن تعتني به وترعاه، أو على أقل تقدير يضمن له أن يأكل ويشرب وينام في أمان، بعدما تبدلت آمال والدته بتحصيله العلم قبل رحيلها!

الانتقال إلى عذاب الجدة

انتقل الطفل إلى جدته على أمل أن يجد الأمان الذي حرم منه مرتين: مرة بوفاة الأم، ومرة بتخلي الأب عنه حين اصطحبه إلى جدته!

-إسماعيل أهوه يا خالة أليفة... سلم على جدتك يا سمعة.

-أيوه عارفاه... أهلا.

-خالة أليفة... أنا... أنا كنت عايز...

-عايز إيه... فلوس... أنا سمعت إن الأشيا معدن معاك والفلوس رجعت تجري تاني في إيدك... ده حتى بيقولوا أنك اتجوزت.

-أيوه... الحمد لله... أنا بس كنت جايب إسماعيل يومين كده بس يتفسح عندك.

-كانوا قالولك إني صاحبة جناين... جايبه يتفسح هنا.

-لا مش القصد... بس يعني...

-متكملش... سيب الواد واتكل أنت.

وكأن الجدة {أليفة} انتظرت هذه الفرصة الذهبية التي ساقتها إليها السماء، لتستطيع {أن تفش غلها} وتنتقم من زوج ابنتها في ابنه.

كانت الجدة تعتقد أن ياسين السبب في قصف عمر ابنتها مبكراً، وأن سوء معاملته لها هي التي أودت بحياتها سريعاً، فضلا عن تنكره لذكراها بزواجه السريع من أخرى.. كلها مبررات كانت كافية لتقتصّ منه في شخص ابنه إسماعيل الذي يحمل اسمه.

على عكس ما توقع إسماعيل أو والده... كانت الجدة تتعمد أن تعامل الصغير معاملة قاسية جافة بل وسيئة، ليس لأنها قاسية بطبيعتها وتتعامل بقلب خال من العواطف والمشاعر فحسب، بل لأنها كانت تفعل ذلك بدافع الانتقام من ياسين في صورة {إسماعيل}، فكانت لا تهتم بطعامه أو شرابه أو نومه وبلغت قسوتها أنها كانت تحضر لنفسها ما لذ وطاب من أنواع الطعام، وما إن ترمقه يقف بعيداً يبلع ريقه، حتى تنهره:

-واقف عندك بتعمل إيه؟

-ولا حاجة.

-طب امشى انجر أدخل نام.

-أنا ما أكلتش من الصبح.

-فين الطبق اللي كنت بتاكل فيه الصبح.

-جوه.

-خلاص خش كل اللي فاضل فيه.

-ده فاضي... خلص مفهوش حاجة.

-طب أمال إيه ... عايز تاكلني أنا كمان... خش اتخمد نام.

وما أكثر الليالي التي نام فيها إسماعيل طاوياً بطنه على الجوع ويحلم بلقمة خبز يسدّ بها جوعه وليس قطعة من الدجاج الذي كانت تأكله جدته، غير أنه استخدم ذكاءه الفطري في سدّ جوعه وملء بطنه، ووجد فرصته التي ينتظرها كل يوم عندما يذهب لشراء طعام الإفطار لجدته، فكان يأخذ نصيبيه منه وهو في طريق العودة إلى المنزل. تنبهت الجدة لفعلته وبعد ما نال {علقة ساخنة} ثمن ما ذاقه من طعام، قررت في ما بعد أن تحرمه فرصة شراء الطعام.

الرعب بين المقابر

هكذا قضى إسماعيل السنوات الأولى في حياته يتيم الأم، وحرم من حنان الأب وحياة الأسرة ودفئها، عاني من هذه الجدة القاسية التي كانت حياته معها سلسلة ممتدة من الآلام والعذاب.

لم يعرف الأب شيئاً عن تعاسة ابنه، فقد كان مشغولا بزوجته التي زادت من همه وعرف بعدها قيمة أم إسماعيل، ما جعله يدمن المخدرات إلى جانب الخمور، وكان يجهل بالطبع أن الجدة كانت تحرم إسماعيل من الطعام وتضع له كل يوم وجبة واحدة عبارة عن رغيف واحد بالسمن والسكر وتمنعه من طلب المزيد وحتى التعبير عن شعوره بالجوع إلى أن توقف تماماً عن المطالبة بالأكل، لأنها كانت في كثير من الأحيان تعرضه لما يخيفه إذا تجرأ وطلب قلة منه.

كان أشد ما يخيفه ويثير الرعب في نفسه أن يزور القبور، ليس طواعية بل مرغماً، كانت جدته تصحبه بشكل شبه يومي إلى هناك، ليس لزيارة موتاها ومنهم ابنتها أم إسماعيل، بل لأنها كانت تلتقي هناك مجموعة من النسوة على شاكلتها، يقمن بتدخين {الشيشة}، وكان مكانهن المفضل لتدخينها بين الأموات !وكان دور إسماعيل أن يحمل لها {الشيشة} ومستلزماتها، ثم يتولى خدمتها وخدمة أولئك النسوة أثناء جلسة التدخين.

ذات يوم تأخرت جدة إسماعيل عن موعد عودة النساء اللواتي كن معها، وبقيت وحدها وإسماعيل حتى حلّ الظلام، هي تدخن {الشيشة} وهو يكاد قلبه يتوقف من شدة الرعب الذي يزداد كلما زاد الظلام، فهما يجلسان في المقابر وسط الأموات وصور له عقله الطفل أن هذا هو المكان الذي يجتمع فيه {العفاريت} كل ليلة قبل أن يتم توزيعهم على المناطق، فيقف كبيرهم ليقول لهذا أنت اذهب إلى هنا ولذاك أنت اذهب إلى هناك، وهكذا، بالتالي لا بد من أن يطلع لإسماعيل أحد هؤلاء العفاريت الآن، يكفي عفريت واحد ليقضي عليه، فما بالك بمجموعة من العفاريت؟!

مرت الدقائق على إسماعيل ثقيلة مرعبة، عيناه في وسط رأسه وكلما زاد الظلام زاد اتساع عينيه ليرى جيداً ولا يغافله أحد العفاريت، حتى ابتلع ريقه أخيرا حين طلبت جدته أن يلملم الأشياء ليرحلا.

في رحلة العودة كان الظلام قد خيم على المكان بأكمله ولا يوجد مصباح واحد على امتداد الطريق، لدرجة أنك إذا بسطت يدك أمامك قد لا تراها، ما جعل الجدة تضل الطريق.

وكما يقال في المثل الشعبي المصري {اللى يخاف من العفريت يطلع له}، حدث ما كان يخشاه إسماعيل: عينان واسعتان تطلقان الشرر، لابد أنهما عينا عفريت كبير.. التصق إسماعيل بملابس جدته وهي تبعده وتطلب منه أن يبتعد عنها، وكلما اقتربت العينان زاد رعبه، فجأة وجد إسماعيل نفسه في مواجهة سيارة لجيش الإحتلال البريطاني.

ما كاد الجنود يرون الجدة وحفيدها حتى شهروا أسلحتهم واقتربوا منهما وهددوهما لأنهما دخلا منطقة محرمة على المدنيين من الأهالي.

-قفا مكانكما.

-إيه ده؟ هو فيه إيه؟

-من أين أتيتما وإلى أين أنتما ذاهبان؟!

-احنا كنا في المقابر بنزور بنتي أم الولد ده.

-ماذا تقولين... لماذا دخلتما المعسكر؟!

-معسكر إيه... إحنا كنا مروحين.

-هذا معسكر الجيش البريطاني.

-أنا معرفش.

-هل معك سلاح أو نقود؟

-أنا مش معايا أي حاجة غير الولد ده تاخدوه.

ينكمش إسماعيل من الرعب وينظر إلى جدته في استعطاف، ماذا تقول؟ هل تريد أن تبيعه؟ هل تتخلص منه حتى ولو من دون مقابل؟

كاد الجنود أن يفتكوا بها وبإسماعيل لولا أن حدثت معجزة تمثلت بوصول ضابط برتبة عالية وتساءل عن سبب ذلك الهرج وطلب أن تؤخذ العجوز والطفل للتحقيق، تم ذلك بعد أخذ الشيشة منهما، وأمام المحقق وقفت الجدة تقول:

-ارحموني، أنا ست كبيرة في السن، لو عايزين تاخدوا الولد ده خدوه وافعلوا به ما تريدون، حتى لو قتلتوه، ولكن اتركوني في حال سبيلي!!

-انصرفي أنت وهذا الولد. ولو رأيتك ثانية أنت التي ستقتلين.

خرج إسماعيل مع جدته من مكتب الضابط الإنكليزي وقد خلق منه هذا الموقف شخصا آخر. أدرك أي كره تكنّه له جدته، لكن ماذا يفعل وكيف يتصرف وإلى أين يذهب؟

علقة ساخنة

أدرك إسماعيل بعد هذا الموقف أن الحياة مع جدته أصبحت صعبة وتكاد تكون مستحيلة، خصوصاً أن هذا الموقف لم يكن الأول، كما أنه لم يكن الوحيد، فقد كانت جدته تعمد، في كثير من الأحيان، إلى وضعه في مواقف مخيفة تثير الرعب في نفسه، كأنها تريد له أن يموت، لا سيما عندما ترسله في الليل إلى أماكن بعيدة، في الوقت الذي كان التجول ممنوعاً بعد العشاء بأوامر من جيش الإحتلال.

وذات مرة أرسلته عند قريبة لها تعمل في رعي الغنم وتربية الماعز، حين دخل إسماعيل {الحوش} الذي تربى فيها الماعز، فرح برؤيتها وبدأ يداعب {الماعز {وهو يصرخ فرحاً:

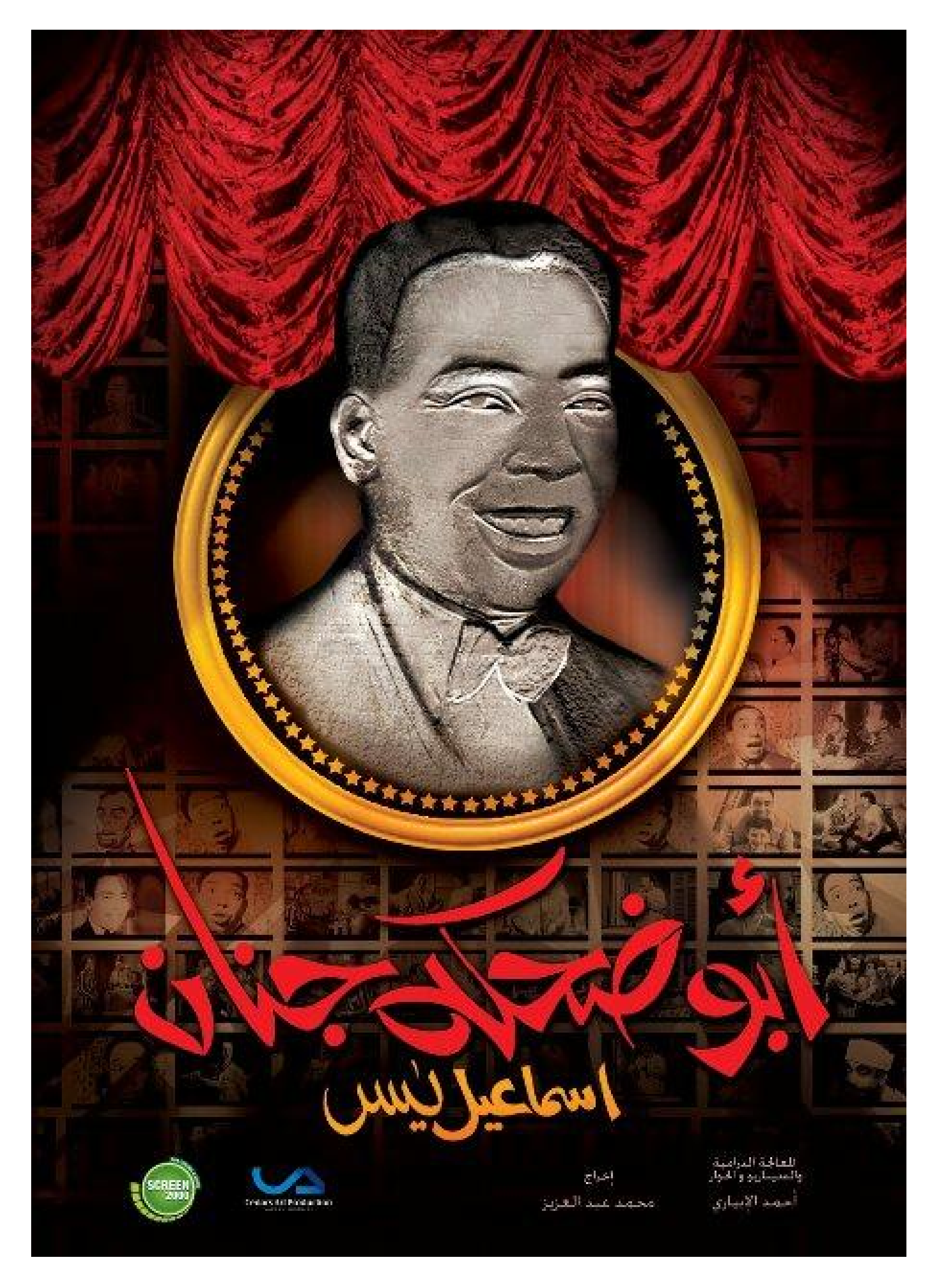
-معيز معيز!

وعلى الفور تعالت أصوات سكان البيت بالاستغاثة ظناً منهم أن الولد كان يقول إنكليز إنكليز، وكانت مجرد كلمة {إنكليز} تثير الرعب في النفوس لأن هؤلاء كانوا يهجمون على البيوت في ذلك الوقت من الليل ويعتدون على حرماتها!

على أصوات النساء هب نصف سكان الحي لنجدة العائلة المسكينة، غير أنهم اكتشفوا أن الحكاية ليست حكاية إنكليز بل حكاية {معيز}، وظنوا أن الصغير إسماعيل فعل ذلك عمداً فأوسعوه ضرباً، وأخذوه إلى جدته وهم يضربونه طوال الطريق، فما كان منها إلا أن زادت في ضربه، بل حبسته ثلاثة أيام في المنزل وربطت يديه ورجليه بحيث لا يستطيع الحراك.

عانى الصغير كثيرا وكان أول ما فعله حين أطلقت جدته سراحه أن هرب من البيت ولكن الجدة عثرت عليه وأعادته وشدّت وثاقه من جديد، وراحت تتفنن في ابتكار أساليب جديدة من العذاب.

وفي ذلك الوقت كان إسماعيل يغتنم فرصة غياب جدته ساعة أو بعض الساعة ليخرج إلى الشارع ويلتقي أصدقاءه الصغار ويسلي نفسه معهم باللعب تارة وبالغناء لهم تارة أخرى، فعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه كان يتردّد على المقهى القريب من الميدان بجوار الشارع الذي تسكن فيه جدته، فيجلس على الرصيف المجاور للمقهى، لا لشيء إلا ليسمع صوت {الفونوغراف}، الذي كان يخرج أصواتا لم يكن إسماعيل يعرفها في ذلك الوقت، غير أنه كان يتمايل معها طرباً، وفي كثير من الأحيان كان يردد مع {الفونوغراف} هذه الأغاني، حتى حفظ الكثير منها ورددها على مسامع أصدقائه من الأولاد الذين يلعب معهم، فاشتهر بينهم بـ {الصبيت} لجمال صوته وإتقانه أداء الأغاني على غرار أصحابها: عبد اللطيف البنا وزكي مراد وصالح عبد الحي، والمطرب الجديد محمد عبد الوهاب.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين إنسان غلبان (الحلقة ٥)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
إنسان غلبان.

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

كانت المقاهي المنتشرة في حي الأربعين هي السلوى الوحيدة للطفل إسماعيل ياسين، فما أن يلاحظ {صبي المقهى} جلوسه وقتاً طويلا حتى يبادر إلى سؤاله:

*قاعد كده ليه... عايز حاجة يابني؟

**لا مش عايز.

*طب اسرح... هنا مش تكية.

**لو طلبت شاي ممكن أقعد؟

*أيوه... بس أنت هتشرب شاي!! عشنا وشفنا العيال تشرب شاي.

**والشاي بكام يا عم؟

*بتلاتة مليم... معاك ولا هتشرب على النوتة (بالأجل.)

قبل أن يكمل صبي المقهى حديثه ينصرف إسماعيل على الفور، فهو لا يملك ما يأكل به، وهكذا يتنقل من مقهى إلى مقهى، وكلما لاحظ {صبي المقهى} وجوده يهم إسماعيل بالانصراف قبل أن ينهره هذا الأخير أو أحد الرواد.

كانت تجذبه {حضرة الذكر} التي يقيمها أصحاب {الطرق الصوفية} في إحدى الزوايا القريبة من بيت جدته، أو أحد الموالد الكثيرة التي كانت تقام في الحي أو في أحد الأحياء المجاورة. كذلك كانت تجذبه دقات {الصاجات {المتناغمة وأناشيد الذكر المسجوعة وهمهمات التجلّي الصاعدة من الحناجر وقراءة القرآن الكريم مرتلا وأصوات المنشدين المنغمة ذات الإيقاعات من الطبقات المختلفة.

عرف عنه أصدقاؤه ولعه وحفظه للأغاني، فكان يغني لهم في جلسات اللهو البريء وكانوا يحبون خفة دمه وسرعة بديهته، فأصبح إسماعيل {مطرب الشلة} الذي يغني لها في جلسات المرح أو المناسبات الخاصة.

حفظ إسماعيل في ذلك الوقت أغاني عبد اللطيف البنا وزكي مراد وصالح عبد الحي والشاب الجديد محمد عبد الوهاب من {الفونوغراف} المنتشر في أغلب مقاهي الحي باستثناء المقهى المواجه لبيت جدته، وهو أمر أراح ياسين بعض الشيء لأنه كان يحبذ أن يكون المقهى بعيداً.

كان أصحاب المقاهي يتبارون في تقديم كل ما هو جديد لروادهم لا سيما اسطوانات سيد درويش، فيحضر بعضهم عشاءه معه ويتخذ كل منهم ركناً ويستعدّ لوصلة استماع من العيار الثقيل، يعيش فيها لحظات جميلة من الطرب والتجلي.

-جاي النهارده قهوة المعلم فنجري؟

-أنا وظروفي، يمكن أعدي شويه بعد المغرب.

-لا النهارده مفيهاش يمكن... وكمان مفيهاش بعد المغرب... لازم تيجي من بدري.

-اشمعنى؟! هم هيجوزوا المعلم فنجري من تاني ولا إيه؟

-لا وأنت الصادق النهارده هنسمع الشيخ سيد درويش عند المعلم فنجري.. بيقول جايب أسطوانة محصلتش.

-من العصرية هكون هناك طبعاً.

فإذا كان هؤلاء مجرد {سميعة} يحتفون كل هذا الاحتفاء بسماع إحدى أسطوانات الشيخ سيد، فكيف يكون حال إسماعيل وهو يحضّر نفسه ليكون في يوم من الأيام أحد هؤلاء {الصييتة} ويجلس السميعة هكذا في انتظار أن يطل عليهم بصوته.

استعداد خاص لسيد درويش

يكون هذا اليوم بمثابة عيد عند إسماعيل، يجهز نفسه مثل الرواد تماماً، فيحتفظ بطعام غدائه ولا يأكله، مثلما اعتاد بعد صلاة العصر، بل يدخره إلى المساء، ويحضر أحد {الأجولة} التي كان يمتلئ بها بيت جدته، بعدما تفرغ من البضائع التي كان يحضرها لها التجار، ويأتي إلى أحد الأركان على {الرصيف {الملاصق للمقهى ويفترش {الجوال} ويجلس عليه وبحوزته طعامه.

ويدور {الفونوغراف} وتبدأ وصلة السماع والسميعة يهتفون:

-الله الله يا شيخ سيد..

-الله يفتح عليك يا شيخ سيد.

ويجد إسماعيل نفسه يهتف مثلهم وما إن تنتهي وصلة السماع الأولى حتى يبدأ الجميع باحتساء الشاي والزنجبيل واليانسون.

مثلهم يفعل إسماعيل، يبدأ بتناول طعامه ولكن من دون أن يطلب شراباً، وحتى لو لم يأكل فيكفيه أن يعيش مع صوت الشيخ سيد، وهو يردد خلفه ما يسمعه منه ويسرح بخياله ويحلم بأن يكون يوماً مكانه.

في تلك الفترة أي في العشرينيات من القرن الماضي بدأت تنمو لهفة الطفل إسماعيل ياسين إلى الفن، وكثيراً ما كان يتخيّل نفسه مطرباً مشهوراً يرتدي ملابس {السموكنغ}، التي كان يرتديها المطربون في الحفلات الكبرى، ويغني للناس الكبار.

ظلت هذه الصورة تملأ خيال الطفل إسماعيل ياسين كلما طلب منه أولاد الجيران أن يغني أحدث ما سمعه وحفظه، وكان يفرح عندما يطلبون منه الإعادة ثانية وثالثة ولم يكن يفسد عليه الانسجام إلا وصول جدته فجأة وهي تصرخ في وجهه.

-ولد يا إسماعيل، تعالَ هنا... انت مش عايز تبطل المسخرة اللي بتعملها دي.

-دي أغاني الشيخ عبد اللطيف البنا وصالح عبد الحي والشيخ سيد.

-أغاني... ما أنت عايز تطلع هلاس زي أبوك... قطيعة تقطعك أنت وأبوك في يوم واحد.

-أبويا ملوش دعوة... أنا اللي بحب الغنا.

-بتحب الغنا... والله ما أنت فالح في حاجة... أمشي قدامي... داهية تاخدك وتاخد أبوك.

تسحبه من يده بعنف وهي تنهره عن هذه {الهيافة} وتأمره بأن يتوجه إلى فراشه المكون من {حصيرة خشنة و{لحاف} رقيق والذي لم يتغير سواء في الصيف أو في الشتاء،

التفكير في الاحتراف مبكرا

قضى الطفل اسماعيل ياسين أيامه في الشوارع يستمع إلى الغناء في المقاهي ويلعب مع الأولاد ويغني لهم بمتعة. عندما لاحظ مدى الإعجاب والاستحسان اللذين ينالهما من الأولاد، فكر في حيلة يستغل بها هذا الإعجاب ليسد بها جوعه، لماذا لا يدفعون ثمن هذا الإعجاب؟! على أن يكون الثمن أن يقتسم معهم السندويشات التي يجلبونها من منازلهم أو يشترونها. كانت هذه الحيلة تفلح أحيانا وتفشل أحياناً أخرى.

مرّت الأيام ثقيلة، وزاد من ثقلها إحساس إسماعيل بها، كمن ينتظر حدوث حادث ما أو شيء، من دون أن يدري ماذا تخبئ له الأقدار. غير أن أكثر ما أحزنه وأشعره باليتم الحقيقي، غياب أم تدافع عن مستقبله أو أب يحرص على ابنه الوحيد، وذلك عندما قررت جدته منعه من متابعة تعليمه في المدرسة الابتدائية، ليس لتوفير المال الذي تنفقه عليه في المدرسة ولكن نكاية بوالده الذي ارتكن إلى وجوده عند جدته ونسي مجرد السؤال عن أحوال ابنه.

-لحد امتى هفضل أصرف عليك... وأنت بقيت زي البغل كده.

-أنا مش عايز أكل ولا أشرب... بس بلاش أخرج من المدرسة.

-يعني هتبقى إيه... قنصل زى أبوك... الولاد كلهم بيشتغلوا... شوفلك شغلانه أصرف بيها على نفسك... اللي أقوله تنفذه بالحرف الواحد... مفيش مدرسة يعني مفيش مدرسة.

حزن إسماعيل على خروجه من الصف الرابع في المرحلة الابتدائية، وصدم بقرار جدته الذي قضى على طموحاته.

الطرد بسبب الغناء

في الوقت الذي كان فيه إسماعيل يبحث عن مكان له في الحياة، كان سقوط الأب يزداد وحياته تنهار، فإدمانه المخدرات جعله ينسى تماماً الابن الذي بدأ يكبر، ولم يعد قادراً حتى على الإنفاق على نفسه وبيته وزوجته.

لم يجد إسماعيل بداً من أن يعتمد على نفسه ويشقّ طريقه بحثاً عن عمل حتى لا يظلّ عالة على جدته، التي أعلنت تخليها تماماً عن الإنفاق عليه.

حاول إسماعيل أن يستغلّ علاقاته التي كوّنها من خلال تردده على المقاهي، ولأنه كان خفيف الدم يحفظ النكات وله أسلوب خاص في إلقائها، أحبّه كثر، ما شجعه على أن يطلب عملا من هذا أو ذاك، فكان يجد مبتغاه أحياناً في بعض الأعمال الهامشية الصغيرة، كأن يعمل منادياً أمام أحد محلات بيع الأقمشة عن الأسعار وأنواع الأقمشة الموجودة في الداخل. غير أنه في أحد الأيام طرأت فكرة على رأسه، طالما ينادي بصوت جهوري على البضائع والأقمشة، فما المانع من اعتماد طريقة الغناء؟

-قرب تعالَ {لحم الهوانم} دي قماشة عال.

قرب تعالَ بضاعة رخيصة وعال العال.

عندما سمعه صاحب المحل ظنّ أنه يسخر من البضائع أو يتخذ من عمله لعباً ولهواً، فنهره ووبخه قبل أن يطرده، عندها انتقل للعمل عند خواجة يوناني لديه محل لبيع الساعات، لكن ما لبث هذا الأخير أن طرده بعدما دأب إسماعيل على التأخر عن موعد العمل بسبب سهره في المقاهي لسماع الأسطوانات الجديدة.

لم يعجب هذا {الحال المايل} الجدة واضطرارها للبحث عنه يومياً في المقاهي التي يسهر فيها لتعكر صفوه وتسوقه إلى المنزل من بين أصدقائه، حتى لا يتأخر في الاستيقاظ مبكرا للذهاب إلى عمله.

ولم يكن أمام إسماعيل من متنفس ينسيه عناء العمل وقسوة الحياة ومطالبها سوى جلسات الأصدقاء على المقهى أو المشي بمفرده - ربما لساعات - يغني لنفسه الأغنيات التي سمعها أخيراً.

الأفراح... تجمع الابن مع الأب

ما بين استهزاء الجدة بموهبته التي بدأت تظهر وتدهور حالة الأب المالية والصحية، عاش إسماعيل أياما صعبة، لم يهون عليه صعوبتها إلا حلمه بأن يصبح يوماً مطرباً كهذا الشاب {محمد عبد الوهاب}، الذي بدأ يشق طريقه بسرعة، فقرر أن يتخذ خطوات عملية لتحقيقه، لا سيما أن المحيطين به يؤكدون له أن صوته جميل، بل ويطربهم، فما المانع من أن يكون مطرباً بالفعل، ولكن كيف؟!

وجد إسماعيل في حفلات الطهور والسبوع والأفراح التي يحضرها مجاملة للأصدقاء والأحباب متنفساً له ليفرغ طاقته وشحنته الغنائية ويقترب من تحقيق حلمه ويجد مهرباً له من الحياة البائسة التي يعيشها.

لم يلاحظ الجمهور في صوت اسماعيل ما يطربه لكنه شجعه لأنه كان يستمتع بأدائه الفرح.

في الثالثة عشرة من عمره بدأ إسماعيل يسأل عن أبيه، وكان يهرب من بيت جدته ليبحث عنه لعله يجده ويطلب منه أن يخلصه من عذابه، لكنه كان يعود بائساً، فلا أحد يعرف مكان والده.

في إحدى الليالي سمع إسماعيل من أحد أصدقائه أن فرحا سيقام في أحد الأحياء القريبة لأحد

كبار التجار، وأن هذا الأخير استقدم مطربين و{صبيته} من مصر ـ القاهرة ـ وستكون السهرة {صباحي}، فوجد إسماعيل فيها فرصة ليرى المطربين و{الصبيته} الذين طالما استمع إليهم، ولم يعلم أن القدر يحمل له مفاجأة أخرى، فما كاد يدخل الفرح حتى وجد نفسه وجها لوجه مع والده الذي بحث عنه طويلا.

وما كاد الاثنان يلتقيان حتى غمرتهما الدموع، احتضنا بعضهما البعض، وغسلت دموع الأب عذاب الابن، وتحول {الفرح} الذي حضر كل منهما للمشاركة فيه، إلى مأتم حقيقي، شعر إسماعيل كأن والدته ماتت اليوم، وشاهد ياسين شريط حياته الطويل وما مرّ بها من عذابات ومراحل صعود وهبوط. جلسا معا، وراح يشكو كل منهما همه للآخر. يشكو الأب تدهور أحواله الاقتصادية وضياع تجارته وتجارة أبيه وحياة الشقاء التي يعيشها مع زوجته الأخرى، ويشكو له إسماعيل أيام العذاب والشقاء، ومعاناته في بيت جدته.

قبل أن ينتهي الفرح طلب إسماعيل من والده أن يعيش معه ورحب الأب بذلك.

-معلش يا أبويا... أنا ما بقيتش قادر أتحمل أعيش في بيت جدتي، متعرفش هي بتعاملني إزاي.

-عارف يا بني... عارف... هي كده {أليفة} طول عمرها شايله قلبها وحاطة مكانه حجر... حتى أيام المرحومة... مكانتش بترضى تروح عندها علشان كانت عارفه طبعها.

-أبويا... تزعل يعني لو...

-لو إيه قول يا إسماعيل... لو إيه...

-يعنى تزعل لو جيت أعيش معاك في البيت.

-أزعل... إنت بتقول إيه يا بني... أنا أزعل انك تيجي تعيش معايا... صدقنى يا بني أنا اللي خلاني بعتك عند جدتك القلة والعجز عن تأمين قوتك اليومي...

-يعنى يمكن مراتك تزعل ولا تخليك تضربني.

-ولا تعمل حسابها... ما تتحرق بجاز... صدقني يا إسماعيل يا بني أنا مطلعتش من الدنيا دي غير بيك... أنت اللي فاضللي.

في تلك الليلة لم يعد إسماعيل إلى بيت جدته التي نامت ملء جفنيها ولم يجزع قلبها لعدم عودته ولا حتى في الليالي التي تبعتها، إلى أن عرفت من بعض المقربين أن إسماعيل عاد إلى والده، ولم يزد تعليقها عن:

-والله بركة... في ستين داهيه... اتلم المتعوس على خايب الرجا!

عاش إسماعيل ياسين أياماً جديدة في بيت والده، رأى فيها بعض ملامح السعادة التي كاد أن ينساها: يأكل... يشرب... ينام مطمئناً... يخرج ويدخل وقتما يريد، يذهب إلى المقهى الذي يجلس فيه والده... يشرب زنجبيل ويانسون، والحساب عند والده.

-خد يا إسماعيل.

-إيه ده يا ابويا؟

-فلوس.. امسك.

-نص ريال بحاله؟ أنا مش مصدق نفسي!!

-لا صدق وكمان عايزك تصرفه كله النهارده ولو صرفته النهارده هديلك زيه بكره.

-أنت بتتكلم جد يا أبويا.

-وجد الجد، الفلوس في ايدك، وجرب وأنت تشوف.

-ده كده أنا بقيت ابن معلم بجد.

-أبوك طول عمره معلم ابن معلم... بس هو الزمن... لكن معلش بكره الحال يرجع أحسن من اللي كان.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين يحيا الفنّ (الحلقة ٦)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
يحيا الفنّ.

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة
صاحبة الحق الاصلى

مرت أيام قليلة، كان إسماعيل يجتهد فيها لإنفاق {النصف ريال} وكان يفلح أحياناً، ويخفق أحياناً أخرى، حتى اكتشف سر هذا السخاء الذي هبط فجأة على والده، وسر {الأنصاف ريالات}

الكثيرة التي تنهال عليه يومياً منه، ولماذا كان يعنّفه طالباً منه أن ينفقها كلها. اكتشف بطريق الصدفة أن والده على صلة بعصابة تزيّف النقود! نعم والده يعمل بتزييف النقود، مع عصابة تملك آلة تزييف للعملات الصغيرة الفضية من فئة القرش، والقرشين، والخمسة قروش، والعشرة قروش.

لم ينكسر ياسين أمام ابنه عندما انكشف أمره... بل كانت المفاجأة الأكبر التي لم يتوقعها اسماعيل، أن يطلب منه والده وبلهجة الآمر، ترويج هذه العملات التي يتم تزييفها في الأسواق بين الباعة والمتاجر، أي أنه عرض صريح لأن يعمل إسماعيل معه ضمن أفراد {عصابة التزييف!{

لم يكن إسماعيل يملك غير الطاعة خوفاً من أن يطلب منه والده العودة إلى جدته، فوافق على مضض، وكان دوره، كما أوضح والده، أن يصرف العملات المعدنية من فئتي الخمسة والعشرة قروش.

يبدو ألا راحة في العمل حتى إذا كان {تصنيع النقود}. كان على اسماعيل أن يتنقل طوال اليوم على قدميه من حي إلى حي، ومن شارع إلى آخر، ومن حارة إلى زقاق، كي يتمكّن من تصريف ما معه من عملات، ليعود آخر اليوم وقد صرف ما صرف وبقي معه ما بقي... كانت مهمته تحويل العملة المزيفة إلى صحيحة، بالتحايل على أصحاب المحلات التجارية بإعطائهم العملات المزيفة لشراء شيء ما، ويعطيه صاحب المحل بقية المبلغ من العملة الصحيحة... وهكذا. في أحد حواراته مع والده:

-صرفت كام النهارده يا سمعه؟

-أخدت خمسة جنيه واللي فاضل معايا بعد المصاريف أربعة جنيه وخمسة وستين قرش واتناشر مليم.

-طب عال كويس قوي.

دخل عليهما رجل يعمل مع والده في التزييف، لكن هيئته تقول غير ذلك لأنه كان خفيف الدم مرحاً. تحدث بلغة غير مفهومة ليست إيطالية ولا إنكليزية ولا يونانية... قد تكون خليطاً بين هذه اللغات أو لا شيء إطلاقاً، مجرد هواء!

-كليسيرا معلم ياسين.

-أهلا... معلم فرج.

- (يشير إلى إسماعيل) بيبتو.

-أيوه ابني سمعه.

-ياسو... ياسو... أفخر ستوبولي لا فروتا.

-الواد مش هيفهم اللي بتقوله.

-أوه... إكسي أوريستا لا ذاكي كليمارا.

-هو بيقول إيه يابا.

-متخدش في بالك يا سمعه.

-موسخري لافروتا لابيستا لاميرميلاتا... كليسيرا.

أخذ الرجل بعض النقود من ياسين وانصرف...

-أول مرة أشوف خواجة لابس جلابية.

-خواجة إيه ده مصري سويسي... ومن حي الجناين.

-سويسي ويتكلم أجنبي كده.

-أجنبي إيه ده حمار... كلمتين إيطالي على كلمة جريجي على كلمة إنكليزي والباقي هوا من عنده.

-بس عاجبني قوي.

-لأنك حمار زيه!

ثم نال إسماعيل نصيبه الذي لا يتعدى {القرشين} فقد انتهت مرحلة {النصف ريال} لأنه اكتشف أنها مرحلة {جر رجل}، وعلى رغم أن القرشين كانا كافيين لأن ينفقهما إسماعيل في ذلك الوقت، فضلاً عن مأكله ومشربه ونومه في بيت والده، إضافة إلى ما ينفقه وهو يصرف النقود المزيفة، إلا أن هذا كله لم يكن أبداً طموحه، ولا حتى الهدف من العودة إلى بيت أبيه، بل كان هدفه البحث عن الحضن الدافئ والإحساس بالأمان وملء بطنه من قهر الجوع، ثم بعد ذلك التفكير في مستقبله، والسعي إلى تحقيق حلمه الذي أصبح يسيطر عليه ويملأ حياته، ولم يكن مزيداً من النقود أو الثراء، فهو يبحث عن حلم آخر لم يعد له وجود في بيت أبيه... في ظل المهمة الجديدة التي أسندها إليه.

البحث عن مخرج

في هذه الفترة كان إسماعيل على عتبة الشباب، وهنا بدأ الأصدقاء ينصحونه بعد أن سمعوا صوته بأن يصبح مطرباً، لكن أهم ما ينقصه تعلم أصول الموسيقى مثلما يفعل كبار المطربين، والمكان الوحيد الذي قد يدرس فيه الموسيقى {معهد الموسيقى العربية} في القاهرة، فما إن كان إسماعيل يلتقي بأحد المطربين الذين يزورون السويس، حتى يقول له هذا الكلام:

-يا بني علشان تبقى مطرب حقيقي لازم تتعلم أصول الموسيقى.

-إزاي؟ ما أنا بفهم في الموسيقى كويس، وأقدر أفرق بين أصوات المطربين وكمان أقلد لك أي

واحد منهم.

-مش كفاية إنك تسمع كويس أو تقلد أو حتى تغني كويس. لازم تدرس أصول الموسيقى، ودلوقت أي حد عايز يغني أو يعزف لازم يدرس في معهد الموسيقى.

-حتى الشيوخ اللي لابسين عمة وجبة وقفطان.

-اللبس ملهوش دعوة، أنت عايز تتعلم موسقى ومغنى ولا عايز تبقى شيخ بعمة؟

-عايز أبقى مطرب زي المطرب الجديد اللي اسمه محمد عبد الوهاب.

-خلاص... عليك وعلى معهد الموسيقى.

ظل كل من يقابله يقول له ذلك، حتى اقتنع بأنه لا مفر من هذا الطريق، وليس الطريق الذي اختاره له والده، مرغماً، وقد يودي به إلى السجن، أو أن يكون أحد كبار المزورين أو المهربين.

وفكر اسماعيل أن أفضل طريقة لتحقيق حلمه أن يسافر إلى القاهرة حيث محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وصالح عبد الحي والفرص الكثيرة... فمصر أم الدنيا :الشهرة، المجد، المال، وفرص العمل... سواء في شارع عماد الدين، أو شارع محمد علي. وكبر الحلم في عقل اسماعيل، وحلم بالأضواء والشهرة والنجاح.

عزم على اتخاذ قراره بالسفر إلى القاهرة التي لم يكن قد رآها سابقاً، لكن قبل أن يتخذ هذه الخطوة كانت أسئلة عدة تلح عليه ويبحث لها عن إجابات:

-يا ترى أقول لوالدي على اللي نويت أعمله؟

-وياترى والدي هيوافق؟

-وإذا وافق... إزاي هسافر وأنا مفيش في جيبي مليم واحد؟

بحث إسماعيل في داخله ولم يتوصل إلى إجابات شافية إلى درجة أنه فكر في أن يأخذ حصيلة ما يقوم بتصريفه من نقود مزيفة ويهرب بها إلى القاهرة، لكن الحصيلة قد لا تتعدى الجنيه أو الإثنين... وهذا المبلغ لن يكون كافياً بأية حال، فهو لا يعرف ماذا ينتظره في القاهرة، وكيف ستكون حياته فيها، ولا يعرف كيف سيعيش ويأكل ويشرب ويتعلم؟

فكر أن يطلب من والده مبلغاً يعينه على السفر إلى القاهرة والعيش فيها لتعلم الموسيقى، لكنه عاد بسرعة وأكد لنفسه أن والده سيرفض حتماً، فقد تقدم به السن ويريد منه أن يبقى إلى جواره، لكنه في هذه الحالة سيبقى مزيفاً للنقود، وسيضيع مستقبله.

وطرد إسماعيل من رأسه فكرة أن يستعين بوالده، وتذكر أن جدته {أليفة} كانت تحتفظ ببعض المال في خزانة ملابسها، لكن كيف الوصول إليها وقد تركها وهرب من بيتها حتى من دون أن يستأذنها، وكيف يعود إليها الآن، وماذا سيقول لها؟

-أطلب منها الصفح والغفران كي تطمئن لي، وهكذا أستطيع أن أحصل منها على بعض المال.

-لكن كيف سترضى أن تقرضني مبلغاً كبيراً، وهي التي لم تكن تعطيني {قرش تعريفة} طوال فترة إقامتي عندها، هل ستأتي الآن وتقول خذ هذا المبلغ الكبير؟

-ولم لا؟ فأنا أعرف أنها لا تحبني بسبب والدي، لكن عندما تعرف أنني سأبتعد عنها وعن أبي وأسافر إلى مصر لتعلم الموسيقى حتماً ستعطيني.

لكن الظروف وفرت على إسماعيل ما كان يفكر به، فقد تصادف حين وصل إلى بيت جدته أنها لم تكن موجودة، جلس ينتظرها طويلاً، لكنها لم تأت، وعندما هم بالانصراف طرأت على رأسه فكرة قرر تنفيذها. تردد، وقف ثم مشى، ثم عاد ثم وقف، فكر قليلاً ثم اتجه بسرعة قبل أن يتردد ثانية إلى {خزانة ملابس} جدته، أخذ آلة حادة وفتحها، ووجد فيها نقوداً كثيرة، لكن كما يقال، أخذ ما غلا ثمنه وخف وزنه، فلم يقترب من الجنيهات الذهبية أو النقود المعدنية، واكتفى بأن يأخذ ستة جنيهات، وهو يؤكد لنفسه أنها ليست سرقة بل قرضاً سيرده فور أن يفتح الله عليه ويعمل في هوايته التي يحبها، الغناء...

وضع إسماعيل الجنيهات الستة في جيبه وغادر البيت فوراً من دون أن يراه أحد، متجهاً إلى محطة {السكك الحديدية} حيث جلس في انتظار أول قطار إلى القاهرة ليستقله.

في محطة مصر

مع النسمات الأولى من صباح اليوم التالي يصل قطار السويس إلى {محطة مصر} في قلب العاصمة المصرية القاهرة، التي كان، ولا يزال، يطلق عليها جميع أهل الريف والمدن والمحافظات الأخرى اسم {مصر} مجازاً...

ومعروف أن القاهرة لا ترحب عادة بالصور المقلدة ولا ترضى بأقل من الأصل، بل والمتميز والجديد، فهي تضج بمن يطلق عليهم {الصور الكربونية} سواء في شارع محمد علي، أو في عماد الدين، أو روض الفرج.

وجاء اسماعيل وحيداً، غريباً لا يعرف أحداً، وليست لديه بوصلة تهديه، لكن يكفي أن لديه الرغبة الصادقة ويملك الأمل والثقة في النفس، وجنيهات ستة} اقترضها} من جدته، وملابسه المتمثلة في {بدلة} قديمة، و{جلباب بلدي {للنوم، وقبل ذلك كله رأس ماله الحقيقي... صوته، إضافة إلى قدرته على تقليد الآخرين في الغناء، وأحلامه في أن يصبح مطرباً.

خرج إسماعيل من {محطة مصر} ينظر يميناً ويساراً، مبهوراً بما يراه، فهي المرة الأولى التي يخرج فيها من مدينته السويس، التي كان يظن أنها أجمل بقاع الأرض، بشوارعها المزدحمة بالمحلات ومبانيها القديمة، وبمياهها الصافية، لكنه اصطدم بواقع لم يره سابقاً، وكان أول ما وقعت عليه عيناه تمثال {نهضة مصر} الذي انتقل إلى هذا المكان حديثاً، عندما أسهم الشعب المصري في اكتتاب عام لإقامته، حيث أقيمت حفلة كبيرة في ميدان باب الحديد لوضعه في هذا المكان في ٢ مايو (أيار) من عام ١٩٢٨، قبل أن ينتقل إلى مكانه الحالي في مواجهة جامعة القاهرة.

انتقل إسماعيل من أمام باب محطة مصر إلى الرصيف المقابل وهو يتأمل التمثال والمكان

المحيط به، ومباني وسط القاهرة، وبانتقاله إلى الرصيف المقابل شعر بالجوع عندما وقعت عيناه على عربة تبيع {الفول المدمس} يلتف حولها مجموعة من البشر يلتهمون طعامهم بشراهة، لم يتردد... واندس بينهم وراح يأكل وقلبه يتراقص من الفرح.

قبل أن يفرغ إسماعيل من طعامه كان قد سأل عن مكان معهد الموسيقى العربية، واكتشف أنه ليس بعيداً، فقط محطتين بالترام، الذي شعر إسماعيل باستمتاع غريب وهو يركبه متجهاً إلى المعهد.

ذهب إسماعيل إلى معهد الموسيقى العربية ففوجئ به مغلقاً، وسأل عن السبب:

-كل سنة وأنت طيب المعهد دلوقت في {المسامحة} (الأجازة الصيفية) ارجع وعليك خير بعد أربعة أشهر.

-أربعة أشهر؟

-أيوه المسامحة أربعة أشهر.

حسنا لا بد طبعاً من أن يعود، لكن ماذا سيفعل حتى تنتهي هذه الأشهر الأربعة، وأين يمضيها؟ وتاه إسماعيل في شوارع القاهرة فكان يمشي من مكان إلى آخر من دون هدف أو غاية، لأنه لا يعرف إلى أين يذهب أو ما هي غايته، وكان يفكر أحياناً:

-ترى هل أعود إلى والدي أو إلى جدتي، وهل تغفر لي جدتي ما فعلته حين سرقت جنيهاتها لو عدت إليها؟

واستقر رأيه على أن يبقى في القاهرة، وليفعل فيه القدر ما يشاء. لكن القاهرة قاسية القلب، لا تحسن استقبال الغرباء، فهي تستقبل الألوف مثله يومياً من النازحين من قرى ومدن الريف ليس بحثاً عن فرصة عمل فحسب، لكن أيضاً لأجل ثراء المدينة وحياة الترف.

لكنه ليس مثل هؤلاء الذين لا يهمهم ماذا سيعملون، سواء في معسكرات الإنكليز، أو لدى الأسر التي تحتاج إلى خدم.

هنا القاهرة

ذهب إسماعيل إلى إحدى {اللوكاندات} الرخيصة والقريبة من منطقة وسط القاهرة ومحطة مصر، وفي الوقت نفسه قريبة من معهد الموسيقى. أقام فيها أياماً عاطلاً عن العمل، يخرج صباحاً ويجوب شوارع القاهرة ومنطقة وسط البلد، ثم الأزبكية وشارع عماد الدين ليلاً، ويعود إلى اللوكاندة منهكاً لينام، وتتكرر الحال في اليوم التالي، يوماً تلو آخر انتهت نقوده، ولم يبق معه من الجنيهات الستة سوى قروش بسيطة، وقد صادر صاحب اللوكاندة كل ما يحمله من ثياب ومتاع:

-الفلوس خلصت وبقيت {أبيض ياورد}... تعمل إيه وتروح فين يا واد يا سمعه. ده كمان لسه المعهد قدامه فترة طويلة علشان يفتح...

وخطرت له فكرة، فهو يعرف أن ابنتي خاله تزوجتا هنا في مصر، بل إن عناوينهما معه، فقد ذكرها خاله لجدته أمامه مراراً، وهنا قرر أن يلجأ إلى إحداهما .وذهب إلى ابنة خاله الأولى، التي كان زوجها أزهرياً عصبي المزاج يكره أقاربها، وما كاد يرى اسماعيل حتى {كشّر} في وجهه، خصوصاً بعد أن قال إنه جاء إلى القاهرة كي يتعلّم الموسيقى:

-قلت لي بقى جاي مصر ليه؟

-علشان أقدم في معهد الموسيقى العربية، نفسي يا عمي أبقى مطرب مشهور.

-مطرب مشهور! عليك لعنة الله. عايز يعني تشتغل مع العوالم وبتوع {هشك بشك.{

-لا مش العوالم. بقولك زي سي محمد أفندي عبد الوهاب، أو الشيخ زكريا أحمد.. أو...

-والشيخ زكريا بقى شيخ في أي مسجد إن شاء الله. قوم فز من قدامي، باب السكة أهه قدامك شايفه.

-أيوه شايفه.

-تخرج منه وماتورنيش وشك هنا تاني... فز امشي.

البحث عن مأوى

خرج إسماعيل حزيناً، لكنه لم ييأس بعد، فما زال الأمل معقوداً على ابنة خاله الثانية. ذهب إليها فوراً، لكن القدر لعب لعبته معه:

-الست إحسان سافرت من هنا.

-وراجعة امتى؟

-لا يا بني مش راجعة. دي قاعدة مع جوزها القاضي الشرعي في المنصورة أصله اتنقل من الشتوية اللي فاتت هناك.

هكذا وجد إسماعيل نفسه بلا مأوى وبلا مليم في جيبه. هام مجدداً على وجهه في شوارع القاهرة حتى قادته قدماه إلى مسجد {السيدة زينب}، دخله فرأى الصلاة قائمة، توضأ وأدى صلاة المغرب، وبقي في المسجد حتى حانت صلاة العشاء فصلى مع المصلين، وقبل أن يخلو المسجد من المصلين كان قد اختفى في أحد أركانه، وحين أطفئت الأنوار غرق في نوم عميق إلى أذان الفجر.

عاش أسبوعاً في المسجد، يأتيه عند صلاة العشاء ويتركه بعد صلاة الفجر أما الطعام فقد كان يقتسمه مع بعض من يطلق عليهم {مجاذيب الست} الذين يعيشون حول المسجد وبجواره، يقتاتون على {الحسنات والخيرات والنذور} التي يقدمها أهل الخير، وكان أحياناً يتظاهر بأنه واحد منهم، فيعطونه حصته من الطعام.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين متشرّد مظلوم (الحلقة ٧)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
متشرّد مظلوم..

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة
صاحبة الحق الاصلى

ظلّ اسماعيل على هذه الحال أياماً طويلة، حتى اكتشفه أحد خدام المسجد، رجل ضخم فظ وغليظ القلب، هوى على وجه اسماعيل بصفعات عدة قبل أن يطرده.

مرّت الأيام، وازدادت حالته سوءاً! وظهرت على هيئته ملامح البؤس والفقر، إضافة الى قذارة ملابسه، وكما تبخرت نقوده تبخرت الوعود والأحلام كافة، فلم تسنح فرصة واحدة للمطرب الشاب القادم من السويس لغزو القاهرة. ازداد انبهاره بشارع عماد الدين ورواده من الفنانين، وبالأضواء التي لا تنطفئ ليلاً وتحيل الشارع إلى نهار.

ازدادت مشاكل إسماعيل، فلجأ إلى محطة {كوبري الليمون} بعد طرده من النوم في المساجد، ثم هرب منها خوفاً من عساكر الشرطة وعاد مجدداً إلى رحلة البحث عن مأوى. تجوّل في شوارع القاهرة، حتى أعياه التعب فجلس وارتاح على الرصيف ومن شدة التعب نام في مكانه.

ومع إشراقة الفجر الأولى، وحين بدأ الناس يتجولون في الشوارع، خاف أن يلاحظه أحد العساكر فيأخذه إلى السجن، فواصل رحلة المشي على غير هدى، وبلغ به التعب ليلاً حداً كبيراً فكان يمشي وهو نائم إلى أن وجد مقهى ليس فيه كثير من الناس فدخله وارتمى بجسده المتهالك في زاوية بعيدة عن العيون ونام.

مجدداً، فتح إسماعيل عينيه صباحاً على رجل غليظ القلب يضربه برجله ويقول له:

-قوم يا متشرد يا ابن المتشردة، قوم من هنا.

ثم عاد كي يضربه في بطنه الخاوية من الطعام منذ يومين، وليت الرجل اكتفى بذلك، بل تطلع الى اسماعيل وصرخ:

-هو ده الواد اللي سرق طقم الشاي إمبارح. أنا الخلقة دي متروحش من بالي أبداً... هو يعني هو.

فجاء أهالي الحي وشاركوا الرجل في ضرب اسماعيل، وهم يصرخون:

-كده تسرق طقم الشاي يا حرامي يا وش الإجرام.

انسابت دموع إسماعيل ساخنة على خديه وبكى من أثر الاتهام الكاذب وقسوته، وعلى ما ينتظره من مستقبل مظلم نهايته السجن:

-والله عمري ما شفت أي طقم شاي في حياتي، ولا حتى سرقت جدتي ولا حاجة، أنا مش حرامي يا ناس... أنا غلبان!

لكن الجميع صمّم على اقتياده إلى مركز الشرطة، وبدأت التظاهرة صغيرة وما لبثت أن كبرت وانضم إليها كثر أخذوا يشاركون في جذبه وصفعه وشتمه، ويشهدون هم أيضاً على أنه هو الذي سرق طقم الشاي، وإسماعيل يقول لهم:

-يا ناس حرام عليكم تشهدوا زور.

لكن لم تشفع له دموعه وملامح البراءة البادية على وجهه وتصرفاته وحيرة الإنسان الصادق عندما تحاصره الأكاذيب، ونبرات الصوت المشحونة بالحزن والمرارة الصادرة منه نافية الاتهام، ونظرات عينيه الحائرة المستجيرة، الباحثة عن قلب رحيم يأخذ بيده وينقذه من هول الموقف الذي يقف فيه، وفي الطريق إلى مركز الشرطة سقط إسماعيل مغشياً عليه من شدة الضرب. فتدخل القدر لينقذه حين جاء شيخ المسجد الذي كان لمح السارق وهو يهرب ونظر إلى اسماعيل، قائلاً لمن تجمّعوا حوله:

-أتركوه يا جماعة، إنه ليس سارق الشاي.

تركه الجميع، وحين أفاق من إغمائه وجد شيخ المسجد أمامه فارتمى على صدره واندفع في نوبة بكاء حادة، ارتعش فيها جسده كله ونبرات صوته، وقص على الشيخ قصته بكلمات حارة صادقة، وبعينين حزينتين نافياً الاتهام الظالم الذي تعرض له، فنصحه الشيخ بالعودة إلى السويس كي لا تسوء حالته أكثر، ولا يتعرض إلى مصاعب أخرى في بلد غريب:

-اسمع مني يا ابني، الأفضل لك أن تعود إلى والدك في السويس.

فأجاب إسماعيل:

-حاضر يا مولانا.

صمت إسماعيل وهو يجفف دموعه، ومدّ الشيخ يده في جيبه وأخرج منها جنيهاً) مبلغ ضخم في ذلك الوقت) وأعطاه له. تردد إسماعيل ثم مدّ يده على استحياء وأخذه، ومن دون تفكير اتجه فوراً إلى محطة السكة الحديدية ليقطع تذكرة إلى السويس، فأخذ الشيخ بيده وودّعه في المحطة، وهو يستقل القطار إلى السويس، بعد أن تكفّل له أيضاً بوجبة غذائية.

شعر إسماعيل بالاطمئنان والثقة في الناس مجدداً، وأن القلوب الرحيمة لا تزال موجودة وعلى استعداد كي تنقذ غريقاً، أو بريئاً قد يحيط به الاتهام.

وحين بدأ القطار يتحرّك هطلت دموعه مجدداً، لكن هذه المرة ليس لأن الدنيا لا تزال بخير، بل لإحساسه بأنه فشل في تحقيق أحلامه، فشل في أن يتعلم الموسيقى كي يصبح مطرباً ولا بد من أن يطرد من ذهنه هذا الحلم، ويعود إلى بلده مهما حدث بعدما شاهد قسوة الظروف التي مرّ بها.

العودة إلى السويس

عاد إسماعيل إلى السويس حزيناً، مكتئباً، مهزوماً، غير أن جذوة الأمل لم تنطفئ بالكامل في قلبه المتعلّق بالغناء والطرب. وصل إلى بيته، ولم يجد ما يسّره أو يزيح عنه هموم ما رآه في القاهرة، فقد وجد والده في حالة يرثى لها، كان يرتدي ملابس رثة، وقد تدهورت صحته، وقُبض على عصابة تزييف النقود، لكن لحسن الحظ كان الأب تركهم، وتبدلت حالته وتحوّل إلى {صنايعي} أجير في أحد محلات {الصاغة} بعد أن كان صاحب محل، ولم يعد بإمكانه مساعدة ابنه أو الإنفاق عليه، فهو بالكاد يسد متطلبات حياته وزوجته.

أذلّ المرض والد إسماعيل وهدّه إدمان المخدرات، وبدأت تظهر عليه آثارهما، فأصبح أكثر تفهماً لأحلام ابنه الغامضة في السفر إلى القاهرة.

محو آثار الهزيمة

أكثر ما أسعد إسماعيل أن {شلّة} الأصدقاء التي تركها ما زالت تحمل له الود والحب، واستقبلته كابن لها يعود من رحلة غياب، وليس من رحلة فشل يستحق عليها التأنيب أو السخرية منه، كما كان يخشى.

روى اسماعيل لأصدقائه تجربته المريرة القاسية في القاهرة، وأخبرهم عن أحلامه لو أنه استطاع الاستمرار، فمعركة إثبات الوجود طويلة وتحتاج جهداً كبيراً من المثابرة والصبر.

وكعادة الأصدقاء، لم ترضَ {الشلّة} بفشل أحد أعضائها، فتولّدت الرغبة في المساعدة والتصميم على إعادة المحاولة، والوقوف إلى جانب إسماعيل كي يعود ليغزو القاهرة. استقبلت السويس إسماعيل في حفلات الزفاف، مع تلك الفرق البسيطة التي تحيي الليالي بالغناء والموسيقى والرقص، لتبعث البهجة في النفوس المتعبة، وتحاول أن تكسر رتابة أيامها وإن من خلال مناسبة بسيطة تخفّف عنها أعباء الحياة، وما تعيشه من ضيق وذلّ في ظلّ وجود الاحتلال البريطاني.

اجتهد الأصدقاء في دفع إسماعيل إلى المناسبات لمساعدته، فلم يعد لديه عمل أو مهنة، حتى قادته الصدفة في أحد الأيام إلى إحياء فرح في منزل أحد أثرياء مدينة السويس يدعى الشيخ إسماعيل الفار، وهناك لقي قبول الجميع، وأصبح محط أنظارهم، وما إن انتهى من الغناء حتى تقدم منه شاب وسيم يحييه على غنائه، فأثار فضول إسماعيل هذا الثناء والإعجاب، وتعرف إلى الشاب الذي اتضح أنه من عائلة قدري باشا التي كان أفرادها يحضرون الفرح، فأبدوا إعجابهم بإسماعيل ووجدوا فيه {شيئاً} طريفاً جديداً، ثم طلبوا منه أن يزورهم في القاهرة، فقد وجدوا فيه وجهاً جديداً لم يشاهدوه في أمثاله من المطربين من أبناء القاهرة، وخفّة ظل و}نكات وقفشات} يستطيع من خلالها إدخال البهجة والسرور إلى قلوبهم. وبدوره وجد اسماعيل فيهم إصراراً على أن يحيي لهم ليالي} السمر} بنكاته وطريقة تقليده المطربين الجدد.

عودة الروح

ناوله الشاب الوسيم بطاقة تعريف، فيها الاسم والمهنة والعنوان. اندهش إسماعيل عندما لم يجد شيئاً في البطاقة، مجرد أحد الأثرياء، فماذا سيفعل عنده؟ لكن ما من مانع، فقد تكون البداية من هنا.

رأى أصدقاء إسماعيل أن هذه {الدعوة الفرصة} هي {القشة} التي ينتظرها الغريق لتحمله إلى بر الأمان في القاهرة، وأن الفرصة أصبحت مواتية له ليعيد التفكير في تحقيق طموحاته وأحلامه التي وضعها جانباً منذ عودته من القاهرة، فقرروا التكاتف في ما بينهم، وتذليل عقبة المصاريف الأولى اللازمة لبداية الرحلة. جمعوا مبلغاً من المال، ربما لا يتعدى المبلغ نفسه الذي بدأ اسماعيل به رحلته السابقة، الجنيهات الستة التي بقيت عالقة في ذهنه وربما لم ينسَها طوال حياته.

شعر والد اسماعيل بالوحدة والعجز، وعارض سفر ابنه معارضة العاجز الذي لا يقدر على

المساعدة أو المنع، لكنه لم يجد بداً من أن يوافق على سفره، فربما فُتحت له أبواب مغلقة، واستطاع أن يعيد الأسرة إلى سيرتها الأولى.

سافر إسماعيل إلى القاهرة ورغبته في الانتصار عارمة، فهذه المرة ليست كما الأولى، لأنه يسافر الآن على هدى، يعرف أين يذهب، ومن المؤكد أن القاهرة ستفتح له ذراعيها مجدداً.

{مصر من تاني}

لم تستقبل القاهرة إسماعيل هذه المرة بقسوة، كما فعلت أول مرة. توجه فور وصوله إلى قصر قدري باشا، وكما توقع وربما أكثر كان الاستقبال حافلاً، واستطاع خلال ساعات قليلة أمضاها في القصر أن يكسب ثقة جميع من يعيش فيه، من نساء ورجال، تحديداً الأطفال، فقد روى لهم بظلّه الخفيف النكات والحكايات، فسُعدوا به وبدأوا يعاملونه بطريقة طيبة. بعد أيام قليلة أصبح كأحد أفراد الأسرة، فاختاره الشاب الذي استدعاه ليكون سكرتيراً خاصاً له :يأكل ويشرب وينام ويلبس على نفقته، إضافة إلى راتب يعطيه له في نهاية الشهر.

كانت مهمة اسماعيل مرافقة هذا الشاب في كل مكان يذهب إليه، والغناء له في سهراته الخاصة، ومسامرته في جلساته ورواية نكات تثير ضحكاته كلما تجهّم وجهه، أو غضب من شيء:

-اسمع يا سمعه... أنت مش مطلوب منك أي شيء غير أنك تخليني أضحك على طول.

-بس كده سيادتك تأمر... أنا مفيش حاجة ورايا غير كده.

-أيوه، أنا عندي هموم كتير، حسابات وأطيان وبورصة.

-طب والغنا، مش هغني؟

-تغني ترقص تقول نكت، إعمل أي حاجة تبسطني.

وكان هذا الرجل أعطى اسماعيل مفتاح السعادة، فقد كانت أسعد أوقاته خلال الأيام التي كان مخدومه يمضيها مساءً بين المسارح والملاهي الليلية ودور السينما، ولم يكن هذا يحدث كلما سمحت الظروف، بل يومياً، فلم يكن لدى هذا الشاب ما يشغله، وتحديداً مساء، سوى ساعات الحظ فهو ابن ذوات، ولا بد من أن يجد ما يقتل به الوقت كل ليلة، ويسعد نفسه.

وكان من عادة الأسر الثرية آنذاك إقامة سهرات تتضمن الغناء والرقص كنوع من الترفيه، إذ لم تكن ثمة وسائل ترفيهية سوى {الفونوغراف} أو العزف على} البيانو} وكانت كل أسرة تحتضن مغنياً أو راقصة كضيف دائم لإحياء هذه الليالي.

بدأ اسماعيل، من خلال تلك السهرات التي كان يحضرها برفقة ذلك الشاب في المسارح والملاهي والحفلات الخاصة، التعرّف الى نجوم فن {المونولوغ} في القاهرة آنذاك، من أمثال حسين المليجي وسيد سليم، ومصطفى صالح وحسين إبراهيم وغيرهم. وبتردّده على تلك الأماكن والسهرات بدأ يحفظ مونولوغاتهم ويردّدها في السهرات الخاصة التي يحضرها مع مخدومه.

من هنا عادت أحلام الفن تراود إسماعيل، فآهات الاستحسان والتصفيق اللذين كان يتلقاهما

جعلت أفكاره تمنيه بأن يصبح مطرباً حقيقياً مثل عبد الوهاب، وليس مجرد {مسلياتي} لمخدومه ومجموعة أصدقائه، غير أنه بعد السهرات والليالي الملاح، وحفظه الكثير من المونولوغات، بدأ يجد في نفسه ميلاً شديداً إلى فن {المونولوغ الفكاهي} بل إنه اختبر نفسه في ذلك الفن من خلال جلساته مع مخدومه التي كان يقلّد فيها الذين يقدِّمون المونولوغ في الملاهي.

عشق المونولوغ

غرق إسماعيل تماماً في حب المونولوغ وحفظ أعمال سيد سليمان، وحين كان يردّدها في السهرات الخاصة كان الجميع يشجعه ويصفق له ويطلب منه المزيد. من هنا اتخذ إسماعيل القرار الأهم في حياته وهو احتراف فن {المونولوغ{، وتخلّى لأول مرة عن حلمه بأن يصبح مطرباً كبيراً مثل محمد عبد الوهاب .وشجّعه على ذلك أحد أبناء الذوات من أصدقاء مخدومه، الذي كان بدوره يهوى التلحين والمونولوغ، فتعرّف إليه إسماعيل وتقترّب منه، وعرف أنه خليل حمدي المحامي، وكانت تلك الصدفة بمثابة {طاقة القدر} التي فُتحت له، فقد كان ذلك المحامي مغرماً بالغناء والرقص والموسيقى ومحباً لجلسات اللهو والمرح، وكان دائم التردد على المسارح والصالات.

كان على اسماعيل أن يتخذ قراراً بشأن مستقبله، وبقاؤه لدى أسرة قدري باشا ليس بالأمر السيئ، لكنه هكذا سيظلّ على حاله، بل سينتهي به الأمر كما بدأ، وليس هذا ما يتمناه، وإذا كان تخلى عن أحلامه وطموحاته الفنية، فذلك موقتاً حتى تسير الأمور وتضحك له الدنيا ويتخلى عن أيام الفقر والبؤس، لكن لن يقبل بأية حال أن يكون هذا دوره في الحياة، ومنتهى طموحه. وقبل أن يتخذ قراره راح يعاتب نفسه:

-لكن يا سمعه مش لما تتخلى عن أسرة قدري باشا تبقى {قلة أصل} منك؟

-وإيه قلة الأصل في كده؟

-الناس أكرموك وفتحوا لك بيتهم كأنك واحد منهم وبعدين تسيبهم أول ما تلاقي غيرهم؟

-وبعدين انت عارف كويس... إنهم لو زهقوا منك ممكن بسهولة يرموك ويشوفوا حد غيرك برضه علشان يسليهم ويضحكهم.

-يعني فكرك اسيبهم واشتغل عند المحامي ده؟

-مفيش غير كده... لازم تفكر بقى في مستقبلك.

-تقصد إيه؟

-أقصد اللي أنا وأنت فاهمينه.

-إيه يا أخويا اللخبطة دي... ما هو أنا أنت وأنت أنا.

-أنا عارف بقى... أنا قلتلك وخلاص... سلامو عليكو.

قرر إسماعيل الانتقال الى العمل لدى المحامي، لكن قبل ذلك استأذن أسرة قدري باشا، وجاء الرد بسيطاً وسهلاً:

-إحنا موافقين بس بشرط... أوعى تنسانا... ونحب نشوفك دايماً ولما نحتاجك متقولش لأ.

-بس كده... من عنيا الجوز.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى انتقل إسماعيل ياسين من العمل لدى أسرة قدري باشا إلى العمل لدى المحامي الثري.

!



إسماعيل يس حكاية رجل حزين عفريتة هانم (الحلقة ٨)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
عفريتة هانم..

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

كان إسماعيل قد انتقل إلى العمل عند المحامي، وسرعان ما أحبه الأخير وأعجب بسرعة بديهته وتصرفاته وحركاته، وخفة دمه، فقد قرر أن يتخذ منه رفيقاً وسكرتيراً وكاتماً لأسراره وخادماً، فهو أعزب، ويحتاج إلى من يؤنس وحدته ويرافقه في جلساته، في البيت وخارجه، أصبح إسماعيل يلازمه كظله في كل مكان يذهب إليه، وبدأ يعرف طريقه إلى السهرات في الصالات والكازينوهات.

بدأت تظهر على إسماعيل اهتمامات أخرى، فكان يستغل وجود الصحف والمجلات في مكتب المحامي، ويحرص يومياً على قراءة كل ما تصل إليه يداه من المجلات الفنية وغير الفنية التي كانت تصدر آنذاك، فأخذ يطلع على آخر أخبار الفن والفنانين في مصر، خصوصاً أخبار المونولوغ، وبدأ يسمع عن الفرق المسرحية المنتشرة، مثل فرقة رمسيس ليوسف وهبي، وعزيز عيد ونجيب الريحاني وعلي الكسار، ومن بين ما عرفه إسماعيل من خلال الصحف وشدّ انتباهه أن الزجال} أبو بثينة} هو الذي يؤلف مونولوغات سيد سليمان، ففكر في كيفية الوصول إليه، وإذا وصل إليه هل يستطيع أن يقنعه بأن يعطيه مونولوغاً يغنيه؟ ومن يكون إسماعيل ياسين ليكتب له {أبو بثينة'؟!

أسئلة كثيرة دارت في رأسه حول {أبو بثينة} الزجال، لكن إجاباتها المحبطة لم تستطع أن تثنيه عما انتوى أن يفعله.

نتاج الأزمة

كانت حقبة الثلاثينات في مصر تشهد أزمة اقتصادية طاحنة، جاء تأثيرها واضحاً على كل شيء بما فيها الفنون، وفي الوقت نفسه شهدت الحقبة أيضاً تطورات سياسية وثقافية وفنية كثيرة، إذ كانت الحكومة المصرية قبلها قد بدأت في إرسال البعثات إلى الخارج وعاد هؤلاء الدارسون، ليقدموا كل ما درسوه على طبق من ذهب إلى المجتمع المصري، ما شكّل حركة فكرية وثقافية كبيرة، فضلاً عن تنمية الوعي السياسي.

آنذاك كان الفنان الكبير نجيب الريحاني يواصل نجاحاته المسرحية، وتقديمه الملحنين الموهوبين والجدد، فبعد رحيل أسطورة الموسيقى الشيخ سيد درويش، وتقديمه الشيخ زكريا أحمد تعاون مع محمد القصبجي في تقديم رواية {نجمة الصبح} من بطولة المطربة هدى، ثم قدّم أول محاولة للاقتباس من رواية} اتبحبح} التي اقتبسها عن الرواية الفرنسية، وفي عام ١٩٣١ شكلت الحكومة المصرية لجنة للإشراف على المسرح كان ضمن أعضائها الشيخ مصطفى عبد الرازق و د.طه حسين الذي كان يشيد كثيراً بالريحاني وفرقته، فقد كان الريحاني بارعاً في اجتذاب الجمهور عبر تقديم أعمال فنية يجد الناس أنفسهم فيها، ويحرص على تناول شخصية الإنسان المطحون المكافح في سبيل لقمة العيش، وقد بدأ ترسيخ هذا الاتجاه مع أعماله المسرحية مثل {الجنيه المصري} وغيرها.

غير أن التمثيل لم يكن أحد أهداف ياسين، لكنه بدأ يسمع عن نجوم هذا المجتمع الجديد عليه، وكان يعرف أخبارهم خلال وجوده في كازينو {بديعة مصابني} أكثر مما يعرفها من خلال الصحف، من هنا بدأ يغري مخدومه كي يسهر يومياً في كازينو {بديعة} كي لا تفوته أخبار هؤلاء النجوم، ويمتع نفسه بالاستماع إلى مونولوغستات كازينو بديعة الذي كان يضمّ أشهر من غنى المونولوغ آنذاك، بعد أن وقع ياسين في غرام المونولوغ.

وفي كازينو بديعة شاهد ياسين لأول مرة، تلك الأسماء التي طالما سمع عنها وعن أخبارها،

شاهد ملك المونولوغ وأكثرهم شهرة سيد سليمان وازداد إعجابه به، وحفظ مونولوغاته، وأبرزها {بُريه من الستات} و{هنا مقص.{

كذلك شاهد المونولوغست حسين المليجي، وهو يلقي مونولوغه {سوسو.. حنتوسو{، ومع مرور الأيام وجد ياسين المونولوغ يحتل مكانة متميزة داخل نفسه، فيما بدأت فيه صورة المطرب محمد عبد الوهاب تتوارى لتحل مكانها صورة مونولوغات سيد سليمان وحسين المليجي.

تردد ياسين على كازينو بديعة، وشاهد الشعبية التي يحتلها فنانو هذا اللون، وما يلاقونه من ترحيب كبير من عشاق هذا الفن، تمنى أن يكون مونولوغيستاً مثل سيد سليمان، بل بدأ فوراً يقلده ويلقي مونولوغاته في السهرات الخاصة التي يقيمها ولي نعمته خليل حمدي، التي خرج منها بفائدة أخرى جديدة، فمن خلالها تعرف إلى حمدي سالم الموسيقي والملحن الهاوي وتصادقا بعد أن جمعت بينهما هواية حب الغناء والموسيقى.

الغناء أمام جمهور

على رغم أن الحب الجديد (المونولوغ) بدأ يسيطر على عقل ياسين وقلبه، إلا أنه كما يبدو لم ينس حبه القديم، وهو أن يصبح مطرباً عاطفياً مثل مطربه المفضل محمد عبد الوهاب، فبعد أن توطدت علاقة الصداقة بينه والموسيقي حمدي سالم، بدأ الأخير يدعوه إلى حفلات بعض الأصدقاء والمعارف، وكانت المرة الأولى التي قرر فيها أن يدعوه إلى إحياء حفلة زفاف أحد أصدقائه:

-إسماعيل عندي لك خبر حلو.

-اوعى تقولي إنك قررت تسلفني بدلتك الجديدة.

-لا يا أخي... مفيش فايدة فيك أي جد تحوله لهزار.

-يا سيدي حقك عليا... بطلت أهزر... خير إن شاء الله.

-أنت هتغني في فرح.

-شوفت بقى مين اللي بيهزر دلوقت.

-أنا بتكلم جد. يوم الخميس فرح ماجد بن شوكت بك، وأنا رشحتك تبقى مطرب الفرح.

-اعدلوني ع القبلة. أنا مش مصدق نفسي. الكلام ده بجد.

-وجد الجد... جهز نفسك يا بطل، عايزك من دلوقت لحد يوم الخميس تشرب كل الزنجبيل اللي في البلد علشان صوتك يجلجل.

-هو هيجلجل وبس... ده أنا يا أستاذ هخليهم يصرخوا من حلاوة الصوت.

-ولك ياعم زي ما قلت، هسلفك بدلة جديدة علشان تبقى آخر شياكة.

قفز الحلم النائم في قلب ياسين إلى خارج صدره، فقد جاءت الفرصة التي طال انتظارها، ليغني فيها أمام جمهور حقيقي لأول مرة في القاهرة، ليثبت لهذا المجتمع قدراته كمطرب، بعد أن باءت محاولاته السابقة كلها بالفشل في أن يشارك في أي حفلة مع إحدى الفرق المحترفة، سواء في شارع محمد علي، أو إحدى صالات شارع عماد الدين.

وجاء يوم الفرح، ونسي ياسين المناسبة التي يغني فيها، وأن يختار أغنية تتلاءم وتلك المناسبة السعيدة، أو أغنية تدخل البهجة والسرور على العروسين والحضور من المدعوين والمدعوات، نسي ذلك كله ولم يتذكر سوى حلمه في أن يكون مطرباً، وأنه يستطيع أن ينافس مطربه المفضل محمد عبد الوهاب، وأن يكون نداً له.

ولم يجد ياسين شيئاً يغنيه سوى أحدث أغنية لمطربه عبد الوهاب {أيها الراقدون تحت التراب!{

وكالمتوقع حدث هرج ومرج، وثار الحاضرون على المغني، لاختياره أغنية كهذه في هذه المناسبة، لولا أن القدر أنقذه في تلك اللحظة، لكانوا فتكوا به ومن أتى به. عندما شاهد إسماعيل صديقه حمدي يلطم خديه... تنبه إلى حجم الكارثة التي فعلها، وبسرعة خاطفة استطاع بذكائه أن ينقذ الموقف، ودفعت العناية الإلهية إلى حنجرته أحد مونولوغات سيد سليمان، وزاد من اتقانه أنه قلّد فيه طريقة سيد سليمان الأشهر في فن المونولوغ آنذاك، ولا شك في أن المدعوين يعرفونه ويحفظون طريقته، واستطاع برباطة جأشه، وخفة ظله وطريقته في الإلقاء والتقليد أن يجبرهم على متابعته... ليس هذا فحسب، بل جعلهم ينفجرون صراخاً من الضحك، ودفعهم إلى نسيان هفوته السابقة بأغنية عبد الوهاب، ولولا ذلك لحدث ما لا تحمده عقباه، وبدلاً من أن تكون البداية تكون النهاية.

كأنما أراد القدر في هذه الليلة أن يصحح ياسين مساره الذي عاش طويلاً يخطط له ويحلم به، وأن يجعله يكتشف حقيقة نفسه مرتين: الأولى والأهم كانت من خلال رد فعل الجمهور على الأغنيتين وأدائه لكل منهما، والثانية كانت من خلال نصيحة وجهها إليه الزجال المعروف محمد عبد المنعم المعروف باسم {أبو بثينة} له، الذي تصادف أن كان مدعواً مع إلى الحفلة:

-أنت قلت اسمك إيه؟!

-إسماعيل ياسين.

-اسمع يا إسماعيل.. أنا راجل بقالي سنين في الكار ده ونصيحتي لك يا بني إنك تركز في المونولوغ وسيب الأغاني العاطفية لأهلها.

-تقصد إني مش كفء للأغاني دي.

-الحكاية مش بالكفاءة، لكن فيه حاجات كتير بتحكم المسألة، وربنا خلق كل واحد، وخلق له سكته في الدنيا، وأنا بخبرتي شايف إن المونولوغ هو سكتك.

كانت نصيحة {أبو بثينة} لإسماعيل بالإبتعاد عن الغناء بمثابة الباب الذي أغلق في وجهه بعد أن كاد أن يفتح له، وزاد من حزنه تأكيده له أن شكله وتقاطيع وجهه، قد لا تجعله ينجح كمطرب، لكنه بسرعة بديهته وخفة دمه، وحسن حركاته وطريقة إلقائه قد يصبح مونولوغيستاً كبيراً.

سمع ياسين النصيحة، التي سببت له حزناً كبيراً، وما إن خلا إلى نفسه حتى أعاد التفكير فيها مرات ومرات، وشيئاً فشيئاً اقتنع بها، خصوصاً عندما كان يطيل الوقوف أمام المرآة:

-بالذمة ده منظر!

يبتعد عن المرآة ويعود وينظر إليها

-يانهار أسود.. كل ده بق؟

بعدها قرر إسماعيل أن يعمل بالنصيحة، ويودّع أحلام الغناء وأن يكون مطرباً منافساً لمحمد عبد الوهاب، لكن إذا كان حلمه كمنافس لعبد الوهاب قد انتهى، فإن حلمه كمطرب لن يموت أبداً، وسيظل يبحث له دائماً عن متنفس، وسيجده في ما بعد بطريقة أو بأخرى.

نصيحة أبو بثينة

فكر ياسين طويلاً في كلام {أبو بثينة} واستقر إلى أنه، إذا كان أبو بثينة صاحب النصيحة، فلماذا لا يكون صاحب فضل أيضاً؟! وجلس يحدّث نفسه:

-لماذا لا أذهب إلى أبو بثينة وأطلب منه مونولوغاً؟

-كده مرة واحدة... أبو بثينة اللي بيكتب لسيد سليمان وحسين المليجي يكتب لإسماعيل ابن عم ياسين الغلبان.

-وفيها إيه، ما هو أكيد سيد سليمان ولا حسين المليجي ولا حتى محمد عبد الوهاب محدش فيهم بدأ زي ما هو دلوقت...

-لكن الراجل أكيد بياخد فلوس كتير في المونولوغ الواحد، وأنا ما عنديش اللضا (أي لا يملك قرشا واحداً.(

-قال {ضربوا الأعور على بقه} (أصل المثل ضربوا الأعور على عينه) قال خسرانة خسرانة!

قرر إسماعيل أن يقطع الشك باليقين، وذهب فعلاً لمقابلة الزجال محمد عبد المنعم، وكان اللقاء حميماً وحمل أكثر من مفاجأة سارة لإسماعيل، الأولى عندما حاول أن يجتهد ليذكره بنفسه وما حدث يوم الفرح، ووجد أن أبو بثينة يتذكره تماماً، بل ويعرف اسمه:

-مش أنت إسماعيل ياسين اللي كنت عايز تبقى زي محمد عبد الوهاب.

-أيوه يا أستاذ... بس خلاص الكلام ده بونو بونو!

-مش فاهم يعني إيه؟

-لا متخدش في بالك يا أستاذ دى حاجة كده، أنا أقصد أقولك إن الكلام ده خلاص انتهى، وأنا

دلوقت جايلك علشان كده.

وقبل أن يطلب منه ياسين ما جاء لأجله، قرر أن يروي له أولاً قصة حياته، منذ أن حرمه القدر من أمه والعذاب مع زوجة أبيه، ثم جدته، حتى جلوسه أمامه الآن... وطلب منه أن يقف إلى جواره ويشجعه، فوجد منه ترحيباً كبيراً، وهنا كانت المفاجأة الثانية التي لم يتوقعها إسماعيل، عندما طلب من أبو بثينة أن يعطيه كلمات مونولوغ خاصة به يغنيها، فوافق:

-كلامك ده يا أستاذ شجعني أطلب منك مونولوغ يبقى بتاعي أنا أبدأ بيه.

-وأنا شايف كده برضه... موافق طبعاً.

-أيوه يا أستاذ بس استنى قبل ما تتورط في الموافقة.

-إيه لك شروط أو طلبات؟

-شروط إيه بس يا أستاذ أنت بتتريق عليّ.

-أبداً والله... لو فيه حاجة عندك قول.

-اللى عايز أقوله إن محسوبك (يقصد نفسه) محلتوش اللضا... يعنى على رأي المعلم فرج السويسي {أل نيا با فلوس} علشان كده عاوز من حضرتك يعني...

-يا سيدى فهمت وملوش لزوم كل المقدمة دي... المونولغ هدية من عندي.

-بجد أنا مش عارف أقولك إيه، بس تمن المونولوغ ده دين في رقبتي. أول ما يجيلي فلوس هسدد تمنه على طول.

-متقولش حاجة أبداً يا إسماعيل ومش عايزك تشيل هم.

كانت دهشة ياسين كبيرة حين حقق أبو بثينة رغبته وأعطاه مونولوغاً حمله إلى الملحن صديقه كي يلحنه له مجاناً أيضاً، ثم كان السؤال الأهم: ما هي الوسيلة الآن كي يخرج هذا المونولوغ إلى النور؟!

فاسماعيل لا يعمل في أي من الصالات المنتشرة في عماد الدين أو روض الفرج، فأشار عليه صديقه ابن الذوات الملحن أن يذهب به إلى الإذاعة، وآنذاك كانت توافرت أكثر من إذاعة أهلية في القاهرة وكانت منفذاً للشهرة:

-الإذاعة حتة واحدة.

-عندك حل تاني؟

-لا.

-يبقى خلاص تروح الإذاعة. أنت هتخسر حاجة.

-بالعكس، ده أنا هكسب.

تقدم ياسين بالمونولوغ إلى محطة إذاعة {فؤاد}، وكانت المفاجأة أنهم قبلوه فوراً، وأذاعوا المونولوغ في اليوم نفسه، ولم يصدق ياسين نفسه، بل زادت دهشته عندما طلبوا منه مونولوغاً آخر، فكُتب ولُحن وأُذيع فوراً.

خطوة هائلة لم يكن ياسين يتوقعها في هذا الوقت الوجيز، وإن كانت لم تتح له أن يستقيل من خدمة صديقه الثري وأن يتفرغ إلى المونولوغ.

وتوالت الأيام على وتيرة واحدة، كان فيها إسماعيل يعمل سكرتيراً للثري السويسي، إلى أن وقع له حادث أثر في حياته... جعله يتحول إلى الفن.

شهيد الغرام

توطدت العلاقة بين الثري وسكرتيره إسماعيل، إلى أن أخذت شكل صداقة، أكثر منها علاقة خادم بمخدومه، وهذا ما شجع صديقه الثري أن يبوح له بأحد أهم أسراره وأخطرها، إذ فاجأه يوماً بأنه وقع في غرام الشابة التي تزوجها خاله العجوز... وأنه بات لا يستطيع أن يستغني عنها أبداً، ولا يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف.

وكان ياسين يعرف خال الشاب وزوجة خاله، لأنه يعيش معهما في البيت نفسه، حيث يعيش الشاب مع خاله الثري الذي تخطى السبعين من عمره، أما زوجته فكانت شابة يقترب عمرها من عمر ياسين، في بداية العشرينيات!

نسي ياسين نفسه كخادم، وراح يقدم نصيحة مخلصة إلى مخدومه بأن مثل هذا الأمر خطير جداً وأنه ضد الدين والعرف والتقاليد، وعندما وجد إصراراً من صديقه الثري على المضي قدماً في هذا الطريق، قرر أن يتصرف على طريقته، فراح ينبه الزوج المخدوع، لكن بشكل غير مباشر، أن زوجته شابة ومطمع للشباب، وأنه يخشى عليها، فما كان من الرجل إلا أن كلفه بمهمة مراقبتها أثناء فترة غيابه عن المنزل، ومعرفة حركاتها وسكناتها خارج المنزل.

وباتت لياسين مهمة جديدة، وهي أن يقيم في البيت طوال النهار يراقب زوجة مخدومه الجديد، وينقل إليه تصرفاتها ويمنعها من الخروج من البيت، بل وحتى الاقتراب من النافذة أو الرد على الهاتف.

ومرت أشهر، وبدأت الزوجة تضيق بهذا السجن فما كان منها ذات يوم إلا أن سكبت على جسدها كمية من {الغاز} وهمت بأن تشعل النار في جسدها وتنتحر لولا تدخل ياسين المتابع لحركاتها في الوقت المناسب.

وحين عاد الزوج إلى البيت علم بتفاصيل الحكاية، وفوجئ في الوقت نفسه بأن الزوجة الشابة المدللة تطلب الطلاق لأنها لم تعد تستطيع أن تصبر على الحياة في سجن يراقبها فيه سجان اسمه إسماعيل ياسين، وحاول الزوج أن يثني زوجته عن الطلاق، وبعد جهد جهيد وافقت، لكن بشرط أن يطرد سجانها من خدمته!



اسماعيل يس حكاية رجل حزين ماكانش على البال (الحلقة ٩)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
ماكانش على البال..

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

جاء الصلح بين الثري وزوجته على حساب إسماعيل ياسين فطُرد من خدمته لتخلو الأجواء للعاشقة الشابة، ومن دون {قرش} واحد تعويضاً عن طرده، ومن دون أن تسمح له الزوجة الشابة في أخذ ثيابه، ليخرج بالملابس التي كان يرتديها فحسب.

خرج إسماعيل من بيت الثري السويسي حزيناً وقادته قدماه إلى منزل صديقه الذي كان يلحّن له مونولوغاته مجاناً، فهوّن عليه الأمر وأعطاه بذلة قديمة من بذلاته وجنيهاً يتصرف به، ريثما يفرجها الله عليه.

ارتدى إسماعيل البذلة القديمة فإذا به يجد في جيبها الداخلي خمسة جنيهات، يبدو أن صاحبها كان نسيها، ولكنها كانت بالنسبة الى إسماعيل كنزاً.

قصد إسماعيل {لوكاندة الحميدية} في حي السيدة زينب، واستأجر جناحاً، ما يعني آنذاك غرفة مستقلة وحماماً خاصاً بها، مقابل جنيه كامل لمدة ١٥ يوماً.

مرت الأيام وإسماعيل يأكل وينام على نفقته الخاصة، ما جعل الجنيهات الستة تنتهي سريعاً، ولم يكن أمامه سوى أن الذهاب مجدداً الى صديقه الملحّن ليقترض منه، لكنه فوجئ به يقول له:

-أنا مش هديك أي فلوس سلف بعد النهارده.

-إيه طيب متشكر قوي.

-مش هديك سلف لكن هديك كل يوم عشرة قروش، لكن بشرط واحد.

-إشرط.

-متغنيش إلا المونولوغات اللي ألحنها لك أنا بس.

-بس كده ده أنا تحت أمرك.

-وكمان شرط تاني صغير.

-أشرط للصبح

-إنك تحضر الحفلات اللي أكلفك بحضورها.

ومرة أخرى أعلن إسماعيل موافقته، ولم لا فقد بات يملك يومياً ثمن رغيف من {الفلافل أو الفول}، مع أجرة الفندق.

الأسطى نوسة

كانت الحياة السياسية في مصر مشتعلة في مطلع الثلاثينيات، وعلى رغم ذلك نجح الشيخ سيد درويش قبل رحيله في ما أطلق عليه {تثوير الموسيقى} أي جعل الموسيقى تضج بالثورة وتلهب حماسة الشعب بدلاً من الخطب، ما جعل المسارح والملاهي الليلية تعمل بشكل كامل، لاعتمادها على أشكال الغناء والموسيقى، إرضاءً للأذواق كافة، إلا أنه على رغم ذلك كانت الأزمة الاقتصادية حائلاً دون وجود حالة انتعاش، إذ كان المجتمع المصري آنذاك يشارف على انهيار اقتصادي كبير ما ترتب عليه ازدياد معدلات الفقر وتهميش غالبية الفئات الاجتماعية المطحونة وتضخّم ثروة الأقلية الأرستقراطية بمساندة الاستعمار والملك، ولهذا لم يجد إسماعيل ياسين طريقاً للخلاص من هذا الفقر سوى العمل في أكثر من مكان، ولم يكتف بالعشرة قروش التي كان يتقاضاها يومياً من صديقه الملحن.

في {اللوكاندة} التي كان يعيش فيها، تعرّف إسماعيل الى أحد أهم صبيان الأسطى {نوسة} وكان ينادى باسم {عطية أفندي}، وكان هذا الـ {عطية} يصنع هالة لنفسه وسط هذه الطبقة الدنيا من البشر، ممن يعملون في اللوكاندة، أو حتى بقية {الآلاتية} الذين يعملون مع {الأسطى نوسة}، أشهر راقصات أفراح الدرجة الثالثة في بر مصر آنذاك، الأمر الذي جعل إسماعيل يشعر أنه أمام شخصية مهمة.

فكّر إسماعيل في مفاتحة عطية أفندي في موضوع العمل في الملهى الذي ترقص فيه} الأسطى نوسة} إما بالغناء أثناء رقصها، أو يقدم {نمرة} بمفرده.

-مش برضه عطية أفندي

-أيوه يا حبيبي يلزم خدمة؟

-محسوبك إسماعيل أفندي ياسين أنعم وأكرم.

-أنعم وأكرم اسم والدك؟

-لأ ده بس شيء لزوم التحية لحضرتك.

-من غير تحية أو مقدمات عايز إيه يا سي أنعم أفندي وأكرم؟

-زي ما شفت وسمعت... إن حضرتك الكل في الكل في فرقة الأسطى نوسة.

-وبعدين؟

-محسوبك بيغني وبيقول مونولوغات مفيش كده.

-فهمت... فهمت

-لو بس حضرتك تقدمني للأسطى نوسة علشان أشتغل معها يبقى كتر خيرك.

-قوي قوي... دي حاجة بسيطة... بالمناسبة انت نازل فين؟

-أنا نازل هنا معاكم في الأوضة دي.

-خلاص يا إسماعيل أفندي اعتبر نفسك اشتغلت.

نام إسماعيل في تلك الليلة تراوده أحلام النجاح والشهرة، غير أن الصباح كان يحمل له مفاجأة حزينة، فحين استيقظ اكتشف أن {عطية أفندي} سرق بدلته الجديدة التي كان أعطاها له صديقه الملحن، وحافظة نقوده التي احتوت على ٣ جنيهات هي {تحويشة} عمره.

جنّ جنون إسماعيل، فقد تركه عطية أفندي {على الحديدة}، فما كان منه إلا أن ذهب إلى الأسطى {نوسة} نفسها ليقص عليها ما حدث، متوسلاً إليها إعادة فلوسه، فرقّ قلبها لحاله وما جرى له على يد {عطية} وأكدت له أنها هي الأخرى تبحث عن عطية هذا، وتتمنى لو تعثر عليه لتقتله لأنه سرقها وأخذ كل مصاغها، وأنها لن تستطيع أن تعيد إليه نقوده، ولكنها يمكن أن تجعله يعمل معها في فرقتها.

وجد إسماعيل في ذلك تعويضاً مرضياً له، خصوصاً بعد أن عرضت عليه أيضاً حجرة فوق سطح إحدى عمارات شارع عماد الدين، ليكون قريباً من الملهى الذي تعمل فيه.

غير أن العمل مع {الأسطى نوسة} لم يرق له، خصوصاً أنها كانت تعامله باعتباره {صبي راقصة} وليس مطرباً له احترامه وشخصيته، فقرر أن يتركها ويكتفي بالراتب اليومي، العشرة قروش، الذي كان يتقاضاه يومياً وفقاً للاتفاق المسبق بينه وبين صديقه الملحن.

أفراح وإذاعات أهليّة

مر ما يزيد على ستة شهور، والحال لم تتبدل، وإسماعيل في رحلة إثبات الوجود، والبحث عن المأوى ولقمة الخبز الدائمة، وهو ما تكفله له حفلات {الأفراح وسبوع المواليد} والحفلات الخاصة التي يساعده على المشاركة فيها صديقه الملحن حمدي سالم.

آنذاك، لم يكن ثمة متنفّس لمطربي ومطربات تلك الأيام سوى {الأسطوانات} أو محطات الإذاعة الأهلية، أو السفر مع الفرق الغنائية الجوّالة التي تقطع قرى ومدن الوجهين القبلي والبحري، أو رحلة إلى {بر الشام} مع الفرق الغنائية التي تتجول في ربوع فلسطين ولبنان وسورية.

قرر إسماعيل أن يعاود الاتجاه إلى المحطات الأهلية ويقدم نفسه مجدّداً لها، خصوصاً أن تشهد إقبالاً لا بأس به من الجمهور، إضافة إلى أن أصحاب الملاهي والكباريهات يتعرفون من خلالها الى المطربين الجدد ويدعونهم الى العمل لديهم، لعل حظّه {يضرب} ويقع عليه الاختيار.

كانت غالبية المحطات الأهلية آنذاك يسيطر عليها الأجانب واليهود، وكان من بينها: {فيولا}، {سابو}، {شقال}، وعلى رغم محدودية جمهورها، تقدم إسماعيل إلى {فيولا} وقدّم مونولوغات عدة، وعندما طلب من أصحابها أجراً، اندهشوا لذلك الطلب:

-فلوس... فلوس إيه يا حبيبي.

-تمن ما غنيت المنولوغ؟

-انت مش فاهم ولا إيه يا حبيبي... هو مين اللي مفروض يدي التاني فلوس؟

-انتم طبعا... مش غنيت عندكم؟

-حبيبي أحنا بنعملك شهرة وبروبغندا كبير، مفروض تدفع لنا عليها فلوس.

وفي محطة {إلياس شقال} جاءه الرد نفسه، ولكن بطريقة أخرى:

-أجر إيه؟! انت مقدمتش غير نفس المونولوغات اللي سبق إذاعتها، إيه الجديد في كده، لازم جديد علشان يبقى فيه فلوس.

وعى إسماعيل الدرس، فهو لا بدّ من أن يقدم جديداً في كل مرة حتى يصبح له {سعر.{

مضت به الأيام، خطوة أو أكثر إلى الأمام. ويبدو أن حاله استقرت على تلك القروش البسيطة التي كان يتقاضاها من صديقه الملحن، ولكنه استقرار غير مضمون، متأرجح وفق ما يقدمه له سوق العمل من فرص.

مولد الإذاعة المصرية

-{ليكن في علم الجمهور أنه لن يسمح ابتداءً من ٢٩ مايو ١٩٣٤ ببقاء التراكيب الكهربائية اللاسلكية التي بالرغم من مخالفتها أحكام الأمر العالي الصادر في ١٠ مايو ١٩٢٦ تركت حتى الآن تسامحاً ويجب فك التراكيب قبل ذلك التاريخ وإلا طبقت الجزاءات المنصوص عليها في ذلك القانون.}

كان هذا بمثابة الإنذار الأخير الذي وجهته الحكومة المصرية إلى الإذاعات الأهلية المصرية التي عرفت طريقها إلى آذان المصريين في العشرينيات من القرن الماضي، وعلى رغم اختلاف الروايات حول قصة أول بث إذاعي فإن هذه الإذاعات انتشرت بسرعة كبيرة واستغلها أصحاب المحال التجارية لترويج بضائعهم، وتجار المخدرات لبث الشفرات في ما بينهم وبين أفراد العصابة، كذلك استغلّها البعض في بث رسائل الغزل والغرام والخيانات الزوجية، وكانت وسيلة للمنافسة بين المحال التجارية وبين المطربين، فاتسمت غالبية مضمونها بالسوقية والابتذال والخروج على الذوق العام، ولم يكن بغريب على الأسماع آنذاك أن يخرج شخص بصوت عالٍ ينادي:

-{ألو ألو ألحق يا أخينا أنت وهو في قنبلة انفجرت في الموسكي.}

ثم يأتي مرة ثانية

-{القنبلة التي انفجرت الآن هي الأسعار المذهلة التي تبيع بها محال الضبع للعب الأطفال.}

استمرت الإذاعات الأهلية عشر سنوات إلى أن جاء القرار بتوقفها وإنشاء إذاعة مصرية حكومية بعد أن زادت حدّة السخرية بين تلك الإذاعات إلى درجة غير معقولة، وآلت إلى شركة {ماركوني} البريطانية مهمة إدخال الإذاعة المركزية التي تغطي جميع أنحاء البلاد وتولت مسؤولية تشغيل محطات الإذاعة لمدة عشر سنوات وفق لعقد مبرم بينها وبين الحكومة المصرية.

وفي مساء الخميس ٣١ مايو (أيار) ١٩٣٤ استمع المصريون إلى صوت أحمد سالم، أول مذيع في الإذاعة المصرية يقول:

-ألو ألو هنا الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية.

كانت البداية بتلاوة قرآنية بصوت القارئ الشيخ محمد رفعت ليكون أول من تلا القرآن الكريم عبر ميكروفون الإذاعة المصرية، ليعود مجدداً صوت المذيع الشاب أحمد سالم معلناً عن أول فاصل غنائي بصوت أم كلثوم.

-هنا القاهرة... سيداتي وسادتي أولى سهرات الإذاعة المصرية في أول يوم من عمرها تحييها الآنسة أم كلثوم.

وتخللت ساعات الإرسال التي امتدت من السادسة مساءً وحتى الحادية عشرة فواصل موسيقية وزجلية وقصيدة شعر ومونولوغ فكاهي ثم كان الختام بفاصل موسيقي لمحمد أفندي عبد الوهاب مع التخت الخاص به.

منذ اليوم الأول حرصت الإذاعة المصرية على استقطاب نجوم ذوي شهرة ومكانة رفيعة بين الجمهور لتنال بذلك ثقة المستمعين واحترامهم، وكان من بين نجومها: أم كلثوم وصالح عبد الحي ومحمد عبد الوهاب وزكريا أحمد ورياض السنباطي، كذلك كتبت شهادات ميلاد مطربين صاروا نجوماً كباراً مثل فريد الأطرش الذي كانت بدايته مع الإذاعة كعازف عود. واحتل الفكر والأدب حيزاً لا بأس به في الإذاعة فبُثّت أحاديث لكبار الأدباء والمفكرين والمثقفين والصحافيين آنذاك.

النجاح في الإذاعة

مع افتتاح الإذاعة المصرية الرسمي، تهافت عليها المطربون والموسيقيون، خصوصاً أنها أصبحت الوحيدة الموجودة آنذاك، وكان من بينهم اسماعيل ياسين.

فانعقدت اللجنة وتقدّم إسماعيل:

-انت مطرب؟!

-أيوه مش باين عليا؟

-لا... باين قول هتسمعنا إيه؟

صمت إسماعيل للحظة راوده فيها حنينه إلى تقديم نفسه كمطرب عاطفي ينافس المطرب محمد عبد الوهاب، لكنه تراجع فوراً، خشية أن يُرفض كما حدث سابقاً، فكان لا بد من أن يقتل هذا الإحساس بداخله إلى الأبد، بدلاً من يضيّع فرصة العمر.

-إيه يا ابني... هتسمعنا إيه؟

-هقول مونولوغ.

-مونولوجيست يعني معقول برضه قول.

نجح إسماعيل في الامتحان كمنولوجيست في الإذاعة المصرية، وتم الاتفاق معه على أن يذيع أربع حفلات شهرياً أو أربعة مونولوغات، على أن يتقاضى في كل مرة أربعة جنيهات أي ستة عشر جنيهاً شهرياً.

لم تسع الدنيا كلها فرحة إسماعيل بهذا الخبر، وفوراً استأجر حجرة في بيت متواضع بحي السيدة زينب واشترى بدلة جديدة وقميصاً وحذاء لكنه لم يشتر أي أثاث، فاضطر الى النوم على الأرض وقد سبّب له ذلك على مدى أيام متاعب صحية، لذلك قرر شراء الصحف القديمة ليفرشها على الأرض، وحوّل سترته القديمة إلى مخدة واشترى {لمبة جاز} صغيرة لتنير له الغرفة ليلاً، وعلى رغم قسوة هذه الحياة، إلا أن اسماعيل كان يبدو في غاية السعادة، وللمرة الأولى يشعر بأن له بيتاً يأوي إليه ولا يُطرد منه.

طريق المونولوغ

بدأ اسم إسماعيل يتردد على ألسنة الناس، من خلال الإذاعة الحكومية التي أصبح بثها يغطي غالبية محافظات بر مصر، أو على الأقل يضمن إسماعيل أنها تغطي القاهرة كلها، ومن خلال هذا النجاح الذي حققه في الإذاعة، نجح في الالتحاق بإحدى الصالات الكبرى في شارع عماد الدين، للعمل كمونولوجيست، ثم انتقل إلى صالة أكبر وأكثر شهرة وبأجر أعلى.

لم يكن إسماعيل يستطيع أن يدفع بشكل دائم ومتلاحق أجور من يكتبون له المونولوغات ويلحّنونها، فهداه ذكاؤه إلى طريقة كانت آنذاك جديدة ومبتكرة، ولاقت نجاحاً كبيراً وشهرة واسعة بين الجمهور، وإن كانت أغضبت بعض كبار المطربين، وهي أن يكون مطرباً عاطفياً على طريقته، إذ قلب كلمات أغاني كبار المطربين العاطفية وغناها بطريقته الخاصة، التي ما إن يسمعها الجمهور حتى يضج بالصراخ ضاحكاً، مثل أغنية محمد عبد الوهاب التي تقول: {سهرت منه الليالي... مال الغرام ومالي} فحوّلها اسماعيل إلى {مال السباق ومالي.{

في عام ١٩٣٥ أصبح لاسماعيل مونولوغاته الخاصة التي قدّمها في الإذاعة، خصوصاً في الدورة الإذاعية خلال أشهر مارس وأبريل ومايو، ومنها: {يا اخواتي مراتي سبور}، كلمات محمد عبد المنعم وألحان حسن أبو زيد، {الإيجار،} النونو عاوز يتجوز}، {أول يوم في الشهر} كلمات عبد المنعم وألحان رضا إبراهيم، {لبخت} و}العجايز}، كلمات مصطفى طوربيد وألحان حمدي سالم، {ستات اليوم}، كلمات مصطفى طربيد وألحان رضا إبراهيم، {الحشاشين} كلمات عبد الغني الشيخ وألحان رضا إبراهيم، {عربجي} كلمات وألحان محمد مصلح الحريري، وكما يبدو من أسمائها فإن تلك المونولوغات كانت تعالج مشاكل المواطن الحياتية آنذاك.

غناء ورقص وتمثيل

تحسّنت أحوال إسماعيل عن السابق، وأصبح راتبه في الإذاعة ١٦ جنيهاً شهرياً، وبدأت تزداد شهرته بين الناس، حتى جاء اليوم الذي قرأ فيه إعلاناً في إحدى المجلات الأسبوعية عن افتتاح مكتب فني مهمته تقديم المواهب إلى الملاهي المصرية واللبنانية والسورية والعراقية، يديره شخص مصري اسمه عبد العزيز محجوب، وشريكه الخواجة {فيناسيون} الذي كان يعمل

مدرباً للرقص في صالة بديعة مصابني، فتقدم إسماعيل إلى المكتب يطلب عملاً:

-اسمك إيه؟

-إسماعيل ياسين.

-أنا مسمعتش عن الاسم ده قبل كده.

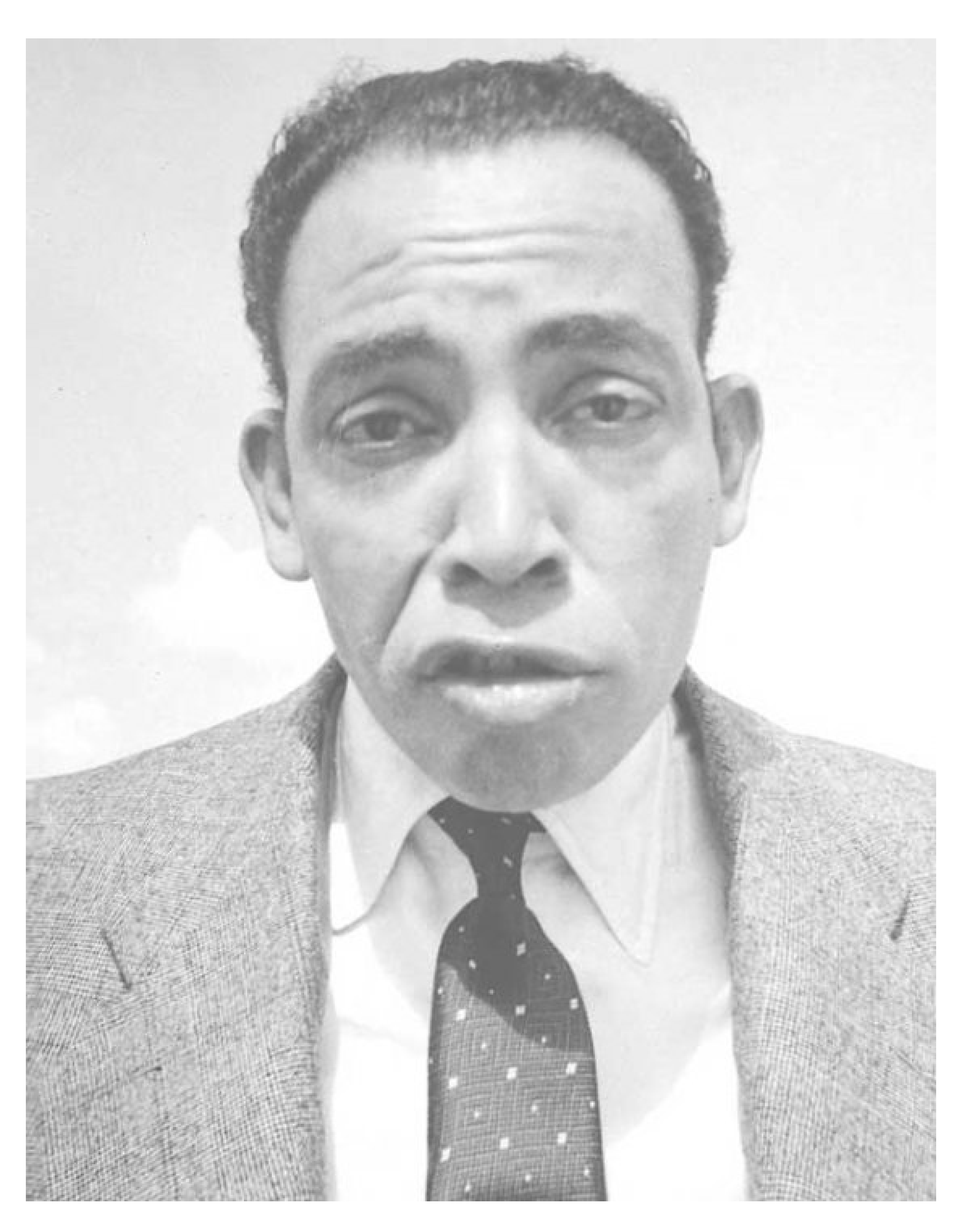
-طب أعمل إيه أكيد سمعك تقيل.

-لا خفيف... انت هتنكت؟!

-بنكت وأقول مونولوغ وأغني وأرقص.

-طب بس بس كفاية... أهو الأستاذ عبد العزيز صاحب الشركة وصل اتفضل بقى يا خفيف ورينا.

طلب عبد العزيز من اسماعيل أن يقدم شيئاً أمامه، وحين غنى وقدّم نموذجاً من مونولوغاته أعجب به، وقدّمه إلى ملهى يملكه ممثل قديم اسمه يوسف عز الدين، وما كاد الأخير يسمع اسماعيل حتى قال له فوراً {أنا مستعد لأن أتعاقد معك بخمسة عشر قرشاً يومياً}، فعارض عبد العزيز وطلب أكثر فاسماعيل يغني المونولوغ ويقدّم اسكتشات ضاحكة، ويقول النكت، لذا يستحق ليس أقل من خمسة وعشرين قرشاً يوماً، ولكن إسماعيل خاف أن {تطير منه الشغلانة} فتدخل مقاطعاً عبد العزيز ووافق على أن يعمل بهذا المبلغ .



إسماعيل يس حكاية رجل حزين سيبوني أغني (الحلقة ١٠)

إسماعيل يس حكاية
رجل حزين
سيبوني أغني..

القاهرة - ماهر زهدي
عن جريدة الجريدة

بدأ اسماعيل ياسين العمل مع فرقة يوسف عز الدين، التي كانت تقدّم روايات مسرحية، وبين الروايات كانت تعرض فواصل من {الاسكتشات} الغنائية أو المونولوغات أو النكات.

كعادة أصحاب هذه الفرق أيضاً آنذاك، كانوا يريدون ممن يعمل لديهم أن يفعل كل شيء، يغني ويرقص ويؤدي المونولوغ ويقول النكات، ويمثّل... والتمثيل مجال جديد على ياسين، فقد تعود كثيراً على أن يواجه الجمهور كمطرب يؤدي المونولوغ، أو حتى يدخل مع الجمهور في {قافيه} من خلال النكات، لكنه لم يجرّب أبداً نفسه كممثل. ماذا يفعل؟ فقد طلب منه يوسف عز الدين أن يشارك معهم في الرواية الجديدة التي تقدمها الفرقة، ولن تكون مشاركته قاصرة على الغناء والمونولوغ، بل ستشمل التمثيل أيضاً.

ووجد ياسين نفسه في مواجهة مع هذا الوافد الجديد عليه {التمثيل}، فما إن يظهر على خشبة المسرح حتى يضج الجمهور بالضحك، حتى قبل أن ينطق بكلمة، ما سبب له رعباً في البداية، غير أن يوسف وزملائه في الفرقة أكدوا له أنه كلما ضحك الجمهور وصفق فهذا دليل نجاح وليس سخرية.

استمر ياسين في عمله مع فرقة يوسف عز الدين قرابة ثلاثة أشهر، يمثل في الروايات ويلقي المونولوغات والنكات، إلى أن حدث ذات يوم أن كان يمثل في إحدى روايات الفرقة، وكان المشهد أمام صاحب الفرقة يوسف عز الدين، الذي اندمج في التمثيل ولم يدر بنفسه وهو يدفع بياسين دفعة قوية، وكان رجلاً ضخماً يزن أكثر من ١٢٠ كيلوغراماً، فوقع ياسين إلى أسفل خشبة المسرح، وعلى رغم أنه أصيب فوراً في وجهه ويديه وببعض الرضوض في جسمه إلا أن الناس ضجوا بالضحك، واعتبروا ما حدث أحد مشاهد الرواية.

بدوره، ثار ياسين غضباً، وخرج إلى ما وراء الكواليس ليلعن التمثيل، وكانت مشادة حامية بينه وصاحب الفرقة الذي قرر فوراً طرده، من دون أن يدفع له أجر يومين، أي أنه نصب عليه ٣٠ قرشاً بالتمام والكمال.

ستوديو مصر

في عام ١٩٣٥ أنشأ الاقتصادي الكبير طلعت حرب أكبر ستوديو في تاريخ مصر والشرق آنذاك، كأول مدرسة حقيقية للتقنية السينمائية، وحرص على أن يكون الأستوديو متكاملاً، فقرر إنشاء دور العرض والمختبرات (المعامل) وإدارتها، وحشد الخبرات واستغلها في كتابة أفلام تسجيلية وإعلانية قصيرة وإنتاجها، كان يصقل الخبرات ويجهزها للإنتاج الروائي الضخم، وبدأ يحشد لهذه الأعمال ويختار كبار الممثلين والمطربين الموجودين على الساحة الفنية، وكانوا جميعهم من المسرحيين أو الذين يعملون في الفرق المسرحية، كتلك التي كره ياسين الاستمرار فيها، ليس هذا فحسب، بل إنه كره التمثيل، أو على وجه الدقة، كره التمثيل على هذه الشاكلة.

خرج ياسين من فرقة يوسف عز الدين لاعناً التمثيل والممثلين، واتجه فوراً إلى مكتب المتعهد عبد العزيز محجوب وشريكه اللذين طيبا خاطره، ووعداه بأن يلحقاه بعمل جديد فور الشفاء من جروحه وكدماته.

وكانا عند وعدهما لياسين فعلاً، فلم يمر أسبوع إلا وكانا قد تعاقدا له على العمل مع فرقة {حورية محمد}... وكانت الأخيرة إحدى أشهر الراقصات وصاحبات الفرق في الثلاثينات، وآنذاك كانت تستعد لافتتاح كازينو جديد باسم {تياترو مونت كارلو} في الإسكندرية، وتحتاج عدداً كبيراً من المطربين والمونولوغيستات والراقصات، وما إن عرض عليها عبد العزيز محجوب هذا المونولوغيست الجديد حتى وافقت عليه ومن دون أن تعرف اسمه.

وفرح ياسين بهذا التعاقد الجديد، خصوصاً أنهما استطاعا هذه المرة أن يتعاقدا له على مبلغ ٢٠ قرشاً في الليلة، والعمل في الإسكندرية، التي لم يرها سابقاً... وكان قد سمع الكثير عن الفن والفنانين فيها.

مع حورية

في أول قطار اتجه ياسين إلى الإسكندرية، وعلى رغم أنها مدينة ساحلية، وتطل على البحر مثل مدينته السويس، إلا أنها تختلف تماماً عنها، وربما عن القاهرة أيضاً بكل ما فيها من سحر خاص.

وكان أول ما فعله ياسين البحث عن مكان يسكن فيه طيلة فترة عمله مع فرقة} حورية محمد}، فاستأجر غرفة في نزل كانت تملكه امرأة يونانية متزوجة من مصري يملك أسفل النزل، محل لكيّ الملابس، ومنذ الليلة الأولى لإقامته هناك صادق ياسين زوج صاحبة النزل، ووجه إليه دعوة لحضور برنامجه في {التياترو {وما إن رآه الرجل على خشبة المسرح يغني ويقدم النكات حتى زاد حبه له، وأصبح صديقه المقرب، واستفاد ياسين كثيراً من هذه الصداقة، فقد قرر الرجل أن يقوم بكي ملابس ياسين طيلة فترة إقامته في الإسكندرية مجاناً.

لم يكن الراتب الذي كان ياسين يتقاضاه من فرقة {حورية}، ستة جنيهات شهرياً، يكفي لدفع أجرة النزل والطعام والشراب، وكي يستطيع أن يعادل الإيراد مع المصروف، اتفق مع صاحب مطعم بجوار الكازينو على أن يأكل من عنده ويدفع الحساب شهرياً:

-هو مفيش تعامل مع المحل بالشهر.

-ممكن... بس في الحالة دي يا خفيف المعلوم هيزيد حبتين.

-مفيش مشكلة... إلا قوللي يا معلم مفيش عندك في المحل أكل بني آدمين؟

-(يسحب المعلم السكين ويشهره في وجه ياسين) إيه... بتقول إيه يا {بقو} أنت.

-لأ ولا حاجة... أصل أنا شايف المحل مليان كلاب وقطط، وانت عمال ترمي لهم اللحمة.

-علشان أوري الزباين {الجعرات} إن اللحمة مفيهاش حاجة وبتتاكل أهه.

كانت مأكولات هذا المطعم سيئة، وقلّ أن يتناولها إنسان وكان صاحب المطعم يعامل زبائنه بالقوة والضرب إذا ما اعترضوا على ما يقدمه لهم ويجبرهم على دفع الحساب، سواء أكلوا أم لا! وعلى رغم ذلك رضي ياسين أن يأكل عنده لأنه وافق على أن يدفع له حسابه في آخر الشهر.

ووقع ما كان يخشاه ياسين. في آخر الشهر عجز عن دفع أجرة النزل، ولم يكن هذا يشغله، إنما

كيف يدفع للمعلم {على القداح} ثمن الطعام، ولولا صديقه زوج صاحبة النزل لكان ياسين راح طعاماً لقطط محل المعلم وكلابه!

وبينما كان ياسين يشكو ضيق حاله لمجموعة من الزملاء الذين يعملون معه في الفرقة، أوعزوا له بفكرة قد يكون فيها حل لمشاكله المادية، وهي أن يلعب في} سباق الخيل} فمنهم من يربح يومياً جنيهين وثلاثة جنيهات، وربما يضرب حظه ويكسب الجائزة الكبرى.

الجمهور يهتف باسمه

حظ ياسين العاثر جعله يخسر وظل يخسر، بل إنه لم يربح أبداً، ما زاد من تراكم الديون عليه، لكنه في الوقت نفسه كان يكسب فنياً، وكانت الجماهير تأتي كي تشاهده وتسمعه، وتشكّل لأول مرة جمهور حقيقي يأتي خصيصاً للاستمتاع بفن إسماعيل ياسين.

وحدث ذات مرة أن كان عصبي المزاج بعد أن خسر في السباق كل ما كان في جيبه، وقبل أن يبدأ فقرته راح {عازف القانون} يفاتحه في خطأ حدث بالأمس أثناء فقرته، ولم يتحمل ياسين أن يحدثه الرجل في ذلك الأمر، وفوراً دخل معه في معركة كلامية على المسرح أمام الجمهور، ولم يلحظ أن الأخير يضج بالضحك وسعيد جداً بوجوده، وما أن انتهى من وصلة {الشتائم}، حتى ترك المسرح غاضباً ودخل إلى الكواليس، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد... ولا حتى ياسين نفسه: لأول مرة في حياته الجمهور يهتف له مطالباً بعودته:

-عاوزين سمعه...

-سمعه... سمعه...

-لأ... لأ عاوزين سمعه.

حاولت حورية محمد، بوصفها نجمة الفرقة الأولى، أن تهدئ الجمهور فخرجت بسرعة لتقدم إحدى رقصاتها الشهيرة التي كانت تنال الإعجاب كله قبل هذه الواقعة، فخرجت إلى الجمهور وهي تعتقد أنه بمجرد ظهورها على خشبة المسرح، سيصفق لها ولن يطالب بظهور ياسين أو عودته إلى خشبة المسرح، لكن العكس هو الذي حدث، فما كادت حورية تظهر حتى زاد ضجيج الجمهور وزادت مطالبته بأن يعود ياسين كي يكمل {نمرته}، وكاد الجمهور أن يحطم الكراسي، بل كاد أن يحطم التياترو!

كان ياسين بمجرد نزوله من على خشبة المسرح قد اتجه فوراً إلى حجرة تبديل الملابس، ولم يسمع أصوات الجماهير الغاضبة وهي تهتف باسمه وتطالب بعودته، وراح يخلع الملابس التي يظهر بها على المسرح.

كان قد انتهى من خلع ملابس المسرح وما زال بملابسه الداخلية، لكنه رأى ذراعين تمتدان من خلال الباب تحملان مسدساً، نظر وهو يرتعد ليرى أن من يحمل المسدس سيدة بدينة جداً يكفي أن تضربه بيدها لتقتله دونما حاجة إلى مسدس .وعرف أنها الست نرجس والدة صاحبة التياترو حورية محمد:

-مين!! إيه ده يا نهار أسكت (يا نهار أسود) مسدس... يا عمتي!

-أنت بوظت نمرة بنتي... وما ينفعش معاك غير القتل.

ارتجف ياسين خوفاً

-وتقتليني ليه... أنا تحت أمرك اعملي اللي انت عاوزاه.

-أنا لازم أشرب من دمك وأكسر ضلوعك زي ما الجمهور كسر الصالة.

-وأنا مالي ياعم... قصدي يا عمتي.

-وأنت مالك إزاي؟ الجمهور عمل كده علشانك.

لم يصدق ياسين نفسه.

-علشاني أنا؟!

-أيوه. علشان كده تطلع الأول تخلص نمرتك، وبعدين تيجي أخلص أنا عليك.

-حاضر بس بشويش.

وأشهرت المسدس في وجهه.

-امشي اطلع...

-طب ألبس بس هدومي.

-على بال ما تلبس هدومك يكون الجمهور كسر الصالة اطلع كده!

وخشي ياسين أن تضربه بالمسدس، وفعلاً هرع إلى المسرح وهو يرتدي ملابسه الداخلية فحسب وعاد ليغني أمام الجمهور، وأكمل وصلته الغنائية، بل وغنى أكثر من مونولوغ، والجمهور يستزيده ويطلب منه الإعادة... فغنى كما لم يغن سابقاً. وعلى رغم هذا النجاح الكبير الذي حققه ولمسته كل من حورية محمد ووالدتها، إلا أن الست نرجس أمرت بطرده من العمل فور نزوله عن خشبة المسرح.

خرج ياسين من كازينو {مونت كارلو} في الإسكندرية خائباً، وحين ذهب إلى النزل طردته السيدة اليونانية، ولم يشفع عندها تدخل زوجها لإبقاء ياسين، كل ما فعلته أنها تركته يأخذ ملابسه ولم تحجزها إلى حين دفع الأجرة المتأخرة، فحمل أمتعته وخرج على غير هدى، لا يعرف إلى أين يذهب، والأهم عنده أن يبتعد بسرعة عن النزل والشارع بأكمله حتى يقع في أيدي المعلم علي القداح، صاحب المطعم، وكان المعلم قد عرف بطرده من فرقة حورية محمد.

وحدث ما كان يخشاه ياسين... فما كاد يخرج من باب النزل حتى وجد المعلم قداح في وجهه:

-على فين يا أبو السباع؟

-أبدا أنا كنت نازل أتمشى شوية على الكورنيش...

-تتمشى على الكورنيش بشنطة هدومك

-متخدش في بالك... أنا واخدها معايا علشان اعمل شوية رياضة وأنا ماشي. ما تيجي معايا.

يمسك المعلم حقيبة ياسين بيد... ويسحبه باليد الأخرى:

-لا... أنت اللي هتيجي معايا.

لم يكن في جيب ياسين آنذاك سوى بضعة قروش، حاول أن يعطيها للمعلم {قداح{، لكنه لم يقنع بها، ولوح له بأنه قد يأخذ بقية نقوده بـ {السكين}، وارتعب ياسين، وعرض عليه أن يترك لديه حقيبة ملابسه وكان فيها الطقم {السموكنغ {الذي يقدم فيه نمرته على خشبة المسرح إلى حين إحضار بقية النقود.

وللمرة الثانية ينقذه صديقه زوج صاحبة النزل، إذ ذهب إليه ياسين واقترض منه مبلغاً، دفع منه بقية حساب المعلم قداح، وحجز تذكرة في القطار المتجه إلى القاهرة.

كازينو بديعة

عاد ياسين إلى القاهرة مجدداً، وفور وصوله استأجر غرفة في أحد {بانسيونات {شارع عماد الدين، ولم ينتظر أن يرتاح من عناء السفر، وضع حقيبته في الحجرة، وخرج في اليوم نفسه يبحث عن عمل.

قبل خروجه علم من أحد جيرانه في النزل، وكان معظمهم من الفنانين والفنانات، أن بديعة مصابني تستعد لافتتاح الموسم الشتوي، وأنها تبحث عن فنانين جدد، فتوجه فوراً إلى صالتها، وما إن وصل حتى وجدها تجلس أمام باب {التياترو {تدخن {النارجيلة}. رفعت عيناها فوجدته يقف متردداً أمامها:

-أنت مين، وعايز إيه؟

-محسوبك المونولوغيست إسماعيل ياسين يا ست!

-عمري ما سمعت بيك. مش مهم، المهم عاوز إيه؟

-عاوز اشتغل... أنا مونولوغيست كويس.

-مش أنت اللي تحكم. أسمعك في الأول. معاك نوتة موسيقية؟

أخرج النوتة من جيبه، أخذتها، وأعطتها إلى عازف البيانو... ودخلت مع ياسين إلى الملهى وطلبت منه أن يغني أمامها. غنى ياسين، وهزت بديعة رأسها فقد وجدت فيه فناناً جيداً، نادت ابن

شقيقها أنطوان عيسى الذي كان مدير صالتها:

-يا أنطون.

-نعم يا ست الكل.

-امضي مع أخينا ده... قولتلي اسمك إيه.

- (وعيناه تلمعان) إسماعيل ياسين.

-امض معاه عقد.

-(صمتت لحظة) امضي معاه عقد بتمانيه جنيه في الشهر.

وظهر ياسين على مسرح كازينو بديعة مصابني، ومنذ أول يوم استقبله الجمهور بالإعجاب والتصفيق، وكان يلقي في كل ليلة خمسة مونولوغات وعلى رغم أن المونولوغيست الأكثر شهرة آنذاك سيد سليمان كان يعمل في الكازينو نفسه، إلا أن الناس أخذوا يعقدون مقارنات بينه وياسين وبدأ بعضهم يفضل هذا، وبعضهم ذاك، ما يعني أن ياسين بدأ يحقق وجوده بشكل قوي ويفرض نفسه على الجميع.

كان من المفترض أن يكون هذا النجاح موضع تقدير مدير الملهى أنطوان عيسى، لكن لم يمر أسبوع حتى فوجئ ياسين بأنطوان يقول له:

-الست بديعة مبسوطة منك كتير قوى. بس ظروف الفرقة متقدرش دلوقت تتحمل مرتبك الكبير.

-وهو تمانيه جنيه مرتب كبير قوي؟!

-إيه مش عاجبينك.

-عاجبني يا سيدي أنا اتكلمت.

-آه بحسب... علشان كده الست بتقولك ريح شويه اليومين دول.

-مش فاهم.

-من الآخر مستغنية عن خدماتك.

مجدداً، تساقطت دموع الألم من عيني ياسين، فحين لمع اسمه وأصبح منافساً لأخطر مونولوغيست في ذلك الوقت تم الاستغناء عن خدماته، وعاد إلى الشارع ليبحث عن لقمة العيش!

رحلة إلى الشام

في الليلة نفسها التي خرج فيها باكياً من كازينو بديعة، وما كاد يعود إلى غرفته في النزل وهو

يضرب أخماساً بأسداس، حتى فوجئ بمن ينتظره في الصالة:

-أستاذ إسماعيل ياسين.

-أستاذ؟ الله يجبر بخاطرك.

-أنا جاي من طرف الأستاذ أمين عطا الله، وهو عاوز يقابلك فوراً.

وكان أمين عطا الله آنذاك أحد أشهر نجوم الكوميديا وأصحاب الفرق المسرحية، وكان يشكّل فرقة جديدة لتسافر معه للعمل في لبنان.

-أهلين أستاذ إسماعيل... من دون مقدمات نحنا بنكون فرقة مسرحية جديدة من شان تروح ع الشام بتقدم رواياتها ببيروت. شو رأيك؟

-ودي عايزه رأي... موافق طبعاً يا أستاذ.

-الله يبارك، وقع العقد.

وخلال أيام كان ياسين في أول باخرة متجهة إلى بيروت.

Error!



إسماعيل يس حكاية رجل حزين الصيت ولا الغني (الحلقة ١١)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
الصيت ولا الغني...

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

لم يكد إسماعيل ياسين يحط رحاله في بيروت حتى تعرض لتجربة قاسية، فقد حدث أن تاه عن الفرقة، وهو يعرف اسم النزل، لكن لايعرف مكانه، وعلى رغم ترحاله من مكان إلى آخر منذ طفولته، إلا أنه شعر لأول مرة بالغربة والخوف... وسيطر عليه الجوع، فاتجه إلى أقرب نزل ووضع فيه حقائبه موقتاً، وقصد أقرب مطعم ليأكل أولاً، ثم يبحث عن الفرقة.

طلب ياسين الـ{مشاوي} وكل ما لذ وطاب من أنواع الأسماك الطازجة، وحين فرغ من طعامه نادى النادل:

-الحساب كام من فضلك!

-تلات ليرات سيدي... تكرم عينك.

كانت الثلاث ليرات توازي في ذلك الوقت ٦٠ قرشاً مصرياً، ولم يكن في جيب ياسين سوى ١٥ قرشاً، كان يعتقد أنها تكفي للحساب والبقشيش أيضاً. أخذ يفكر في مخرج من الورطة ويفتش في جيبيه مراراً، لكن من دون جدوى، فقد كان يعرف جيداً أنه لا يملك سوى هذا المبلغ.

فكر في أن يطلق ساقيه للريح، لكن أدرك صعوبة ذلك لأن عدداً من الموظفين كان قد التف حوله. حتى لو هرب، فإلى أين؟ فهو لا يعرف مكاناً في بيروت ولا شارعاً. لذلك لم يجد مجالاً سوى أن يقول للنادل:

-ما معيش إلا ١٥ قرش مصري إيه رأيك؟

-شو خمستعشر قرش؟!! العمى... ما بتفهم بقولك تلات ليرات.

أمسكه النادل من يديه واستدعى صاحب المطعم الذي ما كاد يعرف الحكاية حتى قبض على رقبة ياسين وبدأ يصرخ فيه:

-بتعرف تملا كرشك... بس ما بتعرف تدفع مصاري؟

وانهال على وجه ياسين بصفعة قوية، أتبعها بركلة، وحذره من أن يرى وجهه بعد ذلك في بيروت كلها. هرع ياسين إلى النزل وأخذ حقائبه، وراح يسأل عن نزل {أم إلياس} حيث نزلت الفرقة، واستطاع بعد بحث استغرق اليوم كله أن يصل إليه، وما إن دخل حتى قال لأمين عطا الله إنه يود العودة إلى مصر...

أخذ أمين عطا الله يهدئ من روعه بعد أن استمع إلى ما حدث له، وأفهمه أن الفرقة تسير على نظام معين، ولا تنزل إلا في نزل {أم إلياس} ولا تأكل إلا في مطعم {أبو عفيف} في ساحة البرج، ثم راح يطيب خاطره، وتدخلت بقية أعضاء الفرقة، حتى هدأت نفس ياسين ووافق على أن يبقى في بيروت.

مسارح بيروت

كانت الحركة المسرحيّة في بيروت أثناء الانتداب الفرنسي تأخذ أشكالاً ومظاهر متنوعة، ذلك على رغم استمرار عرض مسرحيات كركوز وعيواظ في مسرح} خيال الظل} في بعض المقاهي، وفي شهر رمضان، كان ينتشر هذا النوع في المقاهي مثل {القزاز} في ساحة البرج و{البسطة} و{السور}، وغيرها، فضلاً عن المسارح الصغيرة التي كانت موجودة بالكازينوهات، وكان يطلق عليها أيضاً اسم} تياترو.{

في خضم الأحداث السياسيّة التي شهدتها بيروت والمنطقة العربيّة آنذاك، تصاعدت الرغبة في التحرر، بحسب الاتجاه الذي نشره الشيخ سيد درويش في مصر، وبتكرار سفرها إلى الشام أدركت الفرق المسرحية المصرية تقدير جمهور بيروت الفن المسرحي الراقي، فكانت العاصمة محطة لا بدّ منها بالنسبة إلى تلك الفرق، فقدمت فيها أقوى مسرحياتها وأشهرها، وسبقت فرقة أمين عطا الله فرقة جورج أبيض التي قدمت على مسرح الكريستال ومسرح زهرة سورية مسرحياتها الشهيرة: {لويس الحادي عشر،الحاكم بأمر الله، المرسيلية الحسناء، مضحك الملك، البطل عطيل} وغيرها من المسرحيات.

ثم تلتها فرق عدة في مقدمها فرقة الأخوين {سليم وأمين عطا الله}، وسبقتها في العشرينات من القرن العشرين فرقة نجيب الريحاني وعزيز عيد، إحدى أشهر الفرق الهزلية آنذاك، وعقد الأخوان عطا الله معها اتفاقاً وقدما فرقة باسم} جوقة كشكش بك} التي لقيت إقبالاً كبيراً، وقدمت أعمالاً ناجحة مثل مسرحية الملك كشكش في مسرح {زهرة سورية}، وكان يتخلل برنامجها فواصل غنائية، كذلك خصصت بعض الحفلات للتلامذة.

وقدمت {الجوقة} روايات هزلية عدة، أبرزها: {كشكش بك في الاستحكامات، مدرسة الغرام، أبو شادوف، كشكش أمام المجانين، روميو وجولييت، شد حيلك، رن، يا أحلاهم، يا ما انت واحشني} وغيرها.

كذلك عرفت بيروت فرقاً أخرى للتمثيل، من بينها {إخوان عكاشة} لصاحبها زكي عكاشة وشركاه، التي قدمت مسرحيات عدة على مسرح الكريستال الذي شهد عروضاً لفرق أخرى عدة مثل {علي الكسّار} وغيرها قبل أن يعود أمين عطا الله في عام 1936 بفرقة جديدة اصطحب فيها لأول مرة المونولوغيست الناشئ إسماعيل ياسين، وضمت الفرقة إلى جانبه عدداً من الفنانين المشهورين مثل إبراهيم حمودة وحسن سلامة وفتحية محمود وماري جورج...

كان الاتفاق بين أمين عطا الله وأعضاء الفرقة الذين جاء بهم من مصر أن يتكفّل عطا الله بكل شيء خاص بالفرقة منذ لحظة مغادرتها مصر حتى وصولها إلى بيروت، من مأكل وملبس ونوم، فضلاً عن الراتب الذي سيدفعه لكل منهم في نهاية كل شهر طالما أن الفرقة مستمرة في عروضها.

قدمت الفرقة عروضها على كازينوهات بيروت ومسارحها، وكانت تلقى نجاحاً كبيراً، وذاع صيتها في بيروت كلها، ومن خلال العروض أصبح ياسين {فاكهة الفرقة}، فقد استطاع أن يثبت ذاته ويحقق نجاحاً لافتاً.

النجاح بلا ثمن

على رغم النجاحات كافة التي حققتها الفرقة، وعلى رغم إحساس عطا الله بأهمية ياسين تحديداً،

إلا أنه لم يكن يدفع له ولا لأحد من الأعضاء راتبه طيلة شهرين كاملين، وكلما سأله ياسين أو أحد الأعضاء عن راتبه قال:

-والله الفرقة عم بتخسر و{المصاري} ما بتكفي. بانسيون وأكل ومناظر وملابس.

-بتخسر إزاي وإحنا مش ملاحقين على العروض.

-إيه بعرف، لكن المصاريف أكتر.

-طب شوف أي مبلغ احنا بقالنا شهرين على ده الحال.

-بيسويها الله.

لم تفلح جهود ياسين الملحة في الحصول ولو على جزء من أجره، لذلك صمم ذات يوم أن يحرج عطا الله ويأخذ منه راتب الشهرين، وإلا لن يستمر بعد اليوم في الفرقة وسيعود إلى مصر، ولأنه يعرف أن التهديدات لم تعد تفلح معه، ينتهي الأمر بأن يخجل ياسين من كلام أمين عطا الله الجميل الذي يجعل من يتحدث إليه يعطيه نقوداً بدلاً من أن يأخذ منه، فقرر أن يقوم بحيلة تزيح عنه هذا الخجل، وفي الوقت نفسه تكون ورقة ضغط قوية على أمين من دون خجل.

دخل ياسين إلى أحد الملاهي الليلية في بيروت، وراح يفرط في الشرب حتى أصبح ثملاً تماماً، وعاد إلى المسرح وهو يترنح يميناً وشمالاً واقترب من عطا الله:

-اسمع يا أستاذ أمين لو مدفعتليش مرتب الشهرين دلوقت هسافر مصر فوراً. يا الدفع يا السفر... مفيش تالت.

-هيك.. هيك بيكون الحكي.

-مفيش غير هيك حكي.

-لكن ما بيصير ها الحكي، بتخلص نمرتك عالمسرح وبعدين بنحكي.

-مفيش نمرة، وكمان مفيش مسرح، يا الدفع يا السفر.

وحاول عطا الله أن يهدئه ويعده مجدداً، لكن ياسين صرخ:

-مش عايز أسمع أي كلام... وكمان علشان تبقى عارف أول ما أنزل مصر هفضحك في كل حتة، وانك بتاخد الفرق لبيروت وما بتدفعش لهم أي فلوس، وابقى قابلني لو فنان سافر معاك بعد كده.

بدأ عطا الله يضطرب، واضطرب أكثر حين قال ياسين:

-علشان تبقى عارف أنا مش هسافر مصر لوحدي. أيوه كلنا مع بعض، يعني مش هيفضل معاك ولا واحد من الفرقة.

شعر عطا الله بالحرج والخوف في الوقت نفسه، ولم يعد يتحمل ضغوط ياسين أكثر من ذلك، فقد أدرك أنه جاد هذه المرة، وخاف أن يفعل ما هدد به وهو في هذه الحالة من السُكر، وأن يفعل ما قاله فأخرج من جيبه فوراً راتب شهرين وأعطاه لياسين، في مقابل أن يستمر في عمله مع الفرقة ولا يسافر، لا سيما أن ياسين كان ناجحاً جداً في عمله مع الفرقة، بل أصبح أحد أهم أعضائها، لكنه لم يقنع بأن يتقاضى وحده راتبه من دون بقية أعضاء الفرقة وهدد بأن يسافروا معه إلى مصر، واعترض أمين على ذلك، مؤكداً لياسين أنه سيتناقش في الأمر معهم، فرفض ياسين وأصر على موقفه، فما كان من عطا الله إلا أن رضخ لضغوط ياسين مجدداً، وعلى مضض وافق أن يعطي أعضاء الفرقة دفعة من الراتب {تحت الحساب {إلى حين تسوية الحسابات... هكذا وافق ياسين على هذا الحل، وقرر الصعود إلى خشبة المسرح.

طعم الشهرة

كان ياسين قد كسب في ذلك الوقت جمهوراً كبيراً، وأصبح مشهوراً في بيروت تماماً، ما أثار بعض الحقد والغيرة بينه وزملائه في الفرقة، من بينهم المونولوغيست فتحية محمود التي شعرت بضيق من النجاحات التي يحققها ياسين بشكل متواصل، ومن إلحاح الجمهور عليه، فهجمت عليه ذات مرة، ووقف ياسين صامتاً يتلقى الشتائم واللعنات، بل وتطاولها عليه بالأيدي، ولم يرفع صوته ولا يده ليرد لها الإهانة، فمنذ أن شاهد والدته المسكينة الراحلة وهي تتلقى صنوف العذاب من والده من ضرب وإهانة، وقد أقسم ألا يمد يده على امرأة قط مهما فعلت، وكان رد فعله الوحيد أنه استاء من تصرفاتها هذه، وبدأ يجمع أغراضه مصرّاً على العودة إلى مصر، إلا أن عطا الله تدخل فوراً، وما كان منه إرضاء لياسين إلا أن طلب من فتحية أن تترك الفرقة وتعود إلى القاهرة مستغنياً عن دورها، لكن شهامة ياسين أبت ألا يترك أمين يفعل بها ذلك، ورفض ذلك رفضاً قاطعا، قائلاً إنهم جميعاً أتوا معاً من مصر، وسيرحلون جميعاً، مؤكداً أنه سيسافر قبلها إذا رحلت، وتأثرت فتحية من تصرف ياسين النبيل، واعترفت له بأنها أخطأت بحقه وأنها شعرت بالغيرة من النجاح السريع الذي حققه، وأن أعضاء الفرقة هم الذين شحنوها ضده.

بقدر ما أسعد ياسين أن يسمع أنه أصبح ناجحاً وأن نجاحه مؤثر إلى درجة أن يغار منه جميع أعضاء الفرقة، ومن بينهم من يسبقه بسنوات طويلة في هذا المجال، بقدر ما أحزنه أن يكون هذا موقف زملائه منه.

قسوة حلب

استمرت الفرقة في عملها مدة أربعة أشهر، زارت خلالها معظم مدن لبنان وسورية مثل طرابلس ودمشق واللاذقية، وأقامت بعض الحفلات في زحلة وصيدا... حتى انتهى عقدها وعادأعضاؤها إلى القاهرة، باستثناء ياسين الوحيد الذي لم يعد مع الفرقة، لأنه كان قد اتفق مع صاحب ملهى {الباريزيانا} في بيروت على أن يعمل لديه في مقابل أجر كبير.

مرت أيام عدة وياسين يحقق نجاحات جديدة في عمله، وفيما كان عائداً في أحد الأيام إلى نزل {أم الياس} وجد شخصاً يقدّم له نفسه:

-محسوبك زكي الضاهر صاحب ملهى {اللونا بارك} في مدينة حلب.

-أهلاً وسهلاً... تشرفنا.

وقبل أن يتحدث الرجل في أي شيء، أخرج بسرعة عقداً من جيبه:

-اتفضل حبيبي وقع هون.

-أوقع على إيه، مش أعرف الأول إيه الحكاية.

-وقع حبيبي وقع، انت الست أم إسماعيل والدتك دعت لك.

-أنا عارف، بس أوقع على إيه؟!

-هايدا عقد للعمل في الملهى تبعي. تفضل شوف.

بمجرد أن نظر ياسين في العقد وجد أن أجره فيه أربعة أضعاف الأجر الذي يتقاضاه في بيروت، لم يتردد فوقع العقد، وطلب مهلة مدة أسبوع لإنهاء تعاقده مع أصحاب ملهى {الباريزيانا} وتصفية موقفه وحساباته، وما إن انتهى الأسبوع حتى غادر بيروت فوراً إلى مدينة حلب، لينزل هناك في نزل تملكه سيدة عجوز تدعى آيلين.

في حلب ارتاحت نفس ياسين، فالمرتب كبير، والملهى رائع فيه حديقة كبيرة وأشجار وثريات كهربائية وموائد نظيفة. ودعاه صاحب الملهى قبل أيام من عمله إلى سهرة فيه، وقدمه إلى مطربة صغيرة كانت تعمل عنده ووصفها بصاحبة الصوت الذهبي وكان اسمها الكسندرا بدران التي أصبحت في ما بعد الفنانة المطربة نور الهدى.

اهتم الضاهر بياسين اهتماماً كبيراً، وأعد له دعاية شملت حلب كلها، وكتب اسم المونولوغيست المصري إسماعيل ياسين على مدخل {اللونا بارك} بالأضواء ووضعت صورة كبيرة له على باب الملهى.

يوم الافتتاح، امتلأت الحديقة الكبيرة التي تشبه ملعب كرة القدم بالجمهور، وكان الجميع ينتظر ظهور النجم المصري الكبير. وكان ياسين في عز زهوه وهو يشاهد هذه الجماهير الغفيرة وحين أطل على المسرح دوى التصفيق هادراً، وسمع ياسين الهتافات باسمه وبكى من شدة التأثر بدموع حقيقية وهو ينحني مرات ومرات أمام الجمهور الكبير وتطلع إلى الكواليس ليجد ضاهر وهو في غاية السعادة وسمع صوته وهو يقول له:

-مبروك يا اسماعيل، ألف مبروك... هايل.

وعندما هدأت عاصفة التصفيق وبدأت الموسيقى تعزف، ألقى إسماعيل مونولوغه الأول... واختتم المونولوغ فلم يسمع تصفيق الجمهور، وتجرأ البعض فصفق بشكل فاتر جداً، وبدأ ياسين يشعر بقلبه يخفق بشدة، بل وبدأ يشعر بالدنيا تدور به، وأخذ العرق البارد يبلل جسمه، غير أنه تمالك نفسه، وواصل، واهتدى بسرعة إلى فكرة راودته علها تنقذه من الموقف الحرج، فألقى نكتة سريعة وساخنة، وتوقع أن تضج الصالة بالضحك، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، والتفت فوراً إلى الفرقة الموسيقية وطلب منها أن تعزف المونولوغ الثاني وغناه، لكن الوضع لم يتغير، بل ربما سار نحو الأسوأ فلم يصفق له في هذه المرة حتى أولئك الذين صفقوا له في المونولوغ

الأول...

كان ياسين في موقف لا يحسد عليه... فماذا فعل؟



إسماعيل يس حكاية رجل حزين خيبة في دمشق الحلقة (١٢)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
خيبة في دمشق...

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

كاد إسماعيل ياسين أن يصاب بسكتة قلبية بسبب عدم تجاوب جمهور حلب معه، وتمنى بينه وبين نفسه لو أن شيئاً ما يحدث ويوقف البرنامج، لكن المعجزة لم تحدث هذه المرة، فاضطر الى إلقاء المونولوج الثالث والرابع فالخامس، ذلك كله فيما كان الجمهور منشغلاً تماماً عنه يتبادل الأحاديث وكأنه لا يرى ولا يسمع، ولا يشعر بوجوده!!

أسدل الستار في نهاية وصلته وخرج إسماعيل سريعاً إلى الكواليس حاملاً همّ الدنيا، وجلس في غرفته يحدّث نفسه ويعيد شريط ما جرى أمام عينيه:

-ماذا حدث؟ مؤكد فيه شيء غلط!

-ماذا يريد جمهور حلب؟ لقد استقبلني في البداية أحسن استقبال عرفته في حياتي لدرجة أنني بكيت من التأثر، فلماذا لم يُعجب بفني؟

لم يجرؤ أحد من الملهى على الاقتراب من غرفة إسماعيل حتى أنه غادرها من دون أن يتحدث الى أحد. لم يجد إجابات عن هذه الأسئلة كلها، وظل متأثراً حتى صباح اليوم التالي عندما عرف حقيقة ما جرى في الليلة السابقة، وهي أن جمهور حلب يحب الطرب أكثر من المونولوج وأنه جمهور {سميعة} أكثر منه جمهور ضاحك، وأنه لم يفهم شيئاً من النكات التي كانت سريعة جداً على رغم سخونتها وخفة دمها، لذا كان من العبث أن يستمر إسماعيل في العمل في هذا الملهى، أو في حلب بأكملها، خصوصاً أنه أمضى خمسة أيام، وكان في كل يوم يفاجأ بأن جمهور الصالة يغادر أماكنه بمجرد الإعلان عن نمرة المونولوجيست المصري إسماعيل ياسين، بل ويبدأ الكثيرون يقاطعون مونولوجاته بألفاظ تضج بالسخرية أو يشتمونه علناً، فيضطر صاحب المسرح الى تعليق لافتة كتب عليها {ممنوع التحدث مع الممثلين أو شتمهم} وعلى رغم ذلك وقف أحد المتفرجين ذات ليلة وصرخ بأعلى صوته حين كان إسماعيل على المسرح.

-يا إسماعيل ياسين هات واحدة ست معاك لأنك بايخ لوحدك.

فردّ عليه إسماعيل بكل تهذيب:

-حاضر... حاجيب بكرة واحدة ست معايا!

غادر اسماعيل المسرح آنذاك إلى بانسيون {إيلين} وهو يكاد ينفجر بالبكاء، بسبب هذا الإحساس القاتل بالفشل الذريع، وراح يفكر بأنه لا بد من أن يفعل شيئاً، ولكن من دون جدوى:

-مفيش فايدة هو ده جمهور حلب هتعمل إيه يا سمعه مش هتقدر تغيّره.

-بس لازم اعمل حاجة مش ممكن الفشل ده.

-بس هتعمل إيه؟ ما ينفعش حاجة تتعمل.

-والناس أصحاب الكازينو ذنبهم إيه؟

-يبقى مفيش حل غير إني أفسخ العقد وارجع مصر.

-هو ده الحل افسخ العقد وارجع مصر، ومش بس كده أنا لازم أسيب موضوع المونولوجات كمان وأشوف سكّة تانية.

كان هذا ما استقر عليه إسماعيل. ولولا الوقت المتأخّر لكان ذهب إلى صاحب الملهى وقدم له اعتذاره عن عدم الاستمرار في الفرقة. فما اتخذه من قرار لن يتراجع عنه. وكأنه يريد أن يكتب شهادة وفاته قبل أن يستمتع بميلاده. وقرر إسماعيل أن ينام على أن ينفذ ما اهتدى إليه صباحاً.

مرارة الفشل

كانت هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها إسماعيل أن ثمة نوعيات وأذواقاً مختلفة من الجمهور، وأن ما يصلح لجمهور القاهرة أو بيروت قد لا يصلح لجمهور حلب، وقد يكون العكس.

فما كاد ينتهي من حديثه مع نفسه والتفكير في أزمة تخلّي الجمهور عنه، وفي اتخاذ أهم قرار في حياته بتغيير مساره، دق باب غرفته في {البنسيون} فاستغرب اسماعيل من هذا الذي يأتيه في هذا الوقت المتأخر جداً، أو على الأصح الوقت المبكر جداً، فلم يبق سوى دقائق على الفجر:

-مين؟

-أنا... أنا أبو جورج

وكان أبو جورج والد المطربة ألكسندرا بدران أو {نور الهدى.'

-أتفضل أهلا وسهلا أبو جورج.

دخل أبو جورج ووجد إسماعيل نفسه يرتمي على صدره ويشكو له المحنة، التي تعرض ويتعرض لها ثم سأله عن أسباب زيارته له، في هذه الساعة، وعما إذا كان السبب يعود إلى أن صاحب الملهى أرسله لكي يبلغه بالاستغناء عن خدماته. فهو اتخذ القرار من تلقاء نفسه:

-شوف يا أستاذ إسماعيل انت فنان كبير مهما حصل... والأستاذ زكي ضاهر فنان مثلك أيضاً، وهو يعتذر منك جداً عما لاقيته من الجمهور ولا يعرف كيف يعلل ذلك، ويتوقع لك نجاحاً كبيراً وعظيماً، أما ما شاهدته من جمهور حلب فبسيطة، فهو لا يرحم الفنان الذي لا يعجبه.

-وانت شايف إيه الحل يا أبو جورج.

-رأيي إنك تترك حلب، وتعود للعمل في المدن التي لاقيت بها نجاحاً.

أخذ إسماعيل بهذا الرأي وهو في غاية الحزن من لوعة السقوط الشنيع الذي لم يواجهه بهذا الشكل في حياته الفنية التي كانت لا تزال قصيرة.

في صباح اليوم التالي التقى إسماعيل بأبو جورج وكان زكي الضاهر في انتظارهما في أحد المقاهي القريبة من {البنسيون}، وفي الجلسة تم الاتفاق على أن يسافر إسماعيل في اليوم نفسه، بل وأظهر استعداده لإعادة باقي الأجر الذي لم يعمل به إلى صاحب الملهى، لكن الضاهر رفض

ذلك رفضاً قاطعاً وقدم له تذكرة سفر إلى القاهرة في الباخرة عن طريق بيروت وقال له:

-أنا واثق أنك ستعود إلى حلب ذات يوم، ولكنك ستنجح وتسجل نصراً كبيراً. لا تجعل ما حدث يؤثر عليك أو على مسيرتك. أكمل ما أنت ماض فيه. فأنا بخبرتي أتنبأ أن تصبح في وقت قريب من أهم الفنانين العرب وأكبرهم.

-كتر خيرك أنك بتجبر بخاطري. عموماً أنا متشكر لك ولكل الناس هنا.

-هذا مو جبران خاطر ولا قراءة طالع، هذه يا ولدي خبرة سنين.

ودعاه الضاهر اسماعيل إلى غداء أعده له ولجميع أفراد الفرقة الموسيقية والفنانين الذين يعملون معه، وليحفظ ماء وجهه فاجأه أمام الجميع:

-يا جماعة الخير نحن كان يشرفنا أن يستمر الأستاذ إسماعيل معنا هون فهو فنان كبير ونحن نتشرف أن يكون وسطنا. لكن ما باليد حيلة الأستاذ مضطر لأن يعود إلى القاهرة بعد أن وصلته أخبار سيئة تقول إن والده في حالة صحية خطرة.

اندهش إسماعيل من نبل أخلاق الرجل ولياقته وتصرفه الذي لا يصدر إلا عن فنان حقيقي يقدر إحساس الفنان ومشاعره وما قد يصيبه بسبب واقعة صادمة كتلك التي حدثت معه في حلب. كذلك تعامل الضاهر مع اسماعيل باعتباره واحداً من كبار نجوم ذلك العصر. وعاد إسماعيل ياسين إلى مصر.

طوق النجاة

لا شك في أن ما حدث في حلب ترك أثراً سيئاً في نفس إسماعيل، توقع أن يعيده خطوات الى الخلف، وإن كان تصرف الضاهر محا بعض آثاره، غير أن إسماعيل لم ينس أبداً هذا الموقف الإنساني المشجّع له، كما لم ينس لحظات الفشل القاسية التي واجهته بعدما كاد أن يضع قدمه على سلم النجاح.

ولكن على عكس ما توقع، فما كاد إسماعيل يحط رحاله في القاهرة حتى وجد في انتظاره عقداً للعمل في صالة {ببا عز الدين}، التي كانت أصبحت واحدة من أشهر راقصات الثلاثينيات، ومنافسة قوية للراقصة بديعة مصابني وفرقتها.

كان عقد ببا عز الدين بمثابة طوق النجاة لانتشال إسماعيل ياسين من صدمة حلب، وسرعان ما انتظم في العمل مع الفرقة التي كانت تضم أيضاً المونولوجيست حسين المليجي والمونولوجست حسين إبراهيم، وكانا آنذاك من نجوم المونولوج في مصر، بل إن شهرتهما كانت تفوق شهرة إسماعيل ياسين كثيراً، غير أن براعة الأخير وما كان يحققه من نجاحات جعلته يقترب منهما ويصبح على قدم المساواة معهما، فنشأت صداقة طيبة بينه وبينهما، إذ كان الثلاثة لا يفترقون أبداً.

أدت هذه الصداقة الى أن يتزامل معهما حتى في الذهاب إلى ميدان سباق الخيل حين عرف أنهما من رواده، وتذكر إسماعيل أن بينه وبين هذا الميدان ثأراً وعليه أن يأخذه، وأنه خسر أموالاً كثيرة في ميدان سباق الإسكندرية، ولا بد من أن يعوضها في ميدان سباق القاهرة، وكما يقول

المثل: {ليس التعيس من يخسر بل الأتعس منه من يريد أن يعوض خسارته'. وهذا ما حدث تماماً.

في الميدان وضع إسماعيل خلال ساعات ثمانين جنيهاً هي كل ما كان يملك وما بقي معه من أجره في رحلة الشام، وهو مبلغ ضخم آنذاك، وأراد حسين المليجي أن يخفف عنه الكارثة، ويعوض بعض خسارته، فنظر إلى خاتم ذهبي كان في إصبعه وقال:

-عاوز تعوض كل خسارتك؟

-طبعا ودي عايزه كلام.

-ارهن الخاتم ده وعوض خسارتك.

راهن إسماعيل بثمن الخاتم على الشوط الأخير، فثمة حصان مضمون، لكن سوء الحظ لاحقه وذهب الرهان والخاتم، وخسر كل مدخراته ومكاسبه من رحلة الشام.

فرصة العمر

عاد إسماعيل ياسين يومها من ميدان السباق وهو لا يملك ثمن عشائه، وفي اليوم التالي أفاق وهو في غاية الحزن والجوع أيضاً، فذهب إلى صديقه محمود الناصح وطلب منه ٥٠ قرشاً لكي يفطر بها، وخلال تناول إفطاره توقف فجأة قبل أن يصل إلى محل بائع الفول، فقد تذكر خسارته في السباق ورغبته الجامحة في أن يعوض تلك الخسارة.

بدأ يفكر:

-هل يأكل وينسى هذا الموضوع نهائيا؟ أم يذهب إلى السباق ويلعب فقد يعوّض خسارته؟

وفيما كان يفكر وجد قدماه تسوقانه إلى ميدان السباق. ابتسم له الحظ أخيراً، إذ استشار هذه المرة أحد المراهنين المحترفين ممن شاهدهم قبل ذلك بيوم واحد، والذي كتب له قائمة من الخيول يلعب على بعضها بالمبلغ الذي معه كله، ولم يكن يعرف أن كل ما يمتلكه إسماعيل خمسون قرشاً فقط، ففعل اسماعيل بما أشار به عليه المراهن، وكانت النتيجة في نهاية السباق أنه استطاع أن يحصل بقروشه الخمسين على مائتين وثلاثين جنيهاً.

وفوراً ذهب إسماعيل وهو يكاد يطير من شدة الفرح إلى المقهى الذي اعتاد أن يلتقي به أهل الفن، ووجد هناك محمود الناصح الذي كان استلف منه الخمسين قرشاً، فأعطاه جنيهاً كاملاً، ثم تذكر أنه لم يتناول إفطاره، وبدلاً من الذهاب إلى محل الفول والفلافل، اتجه إلى مطعم وحديقة {غروبي}، المكان المفضّل لجلوس الطبقة الأرستقراطية، وتناول فيه للمرة الأولى إفطاره مثل }أولاد الذوات} بعدها توجه إلى ضريح مسجد السيدة زينب وصلى أمامه وأقسم بأنه لن يقترب من ميدان سباق الخيل مجدداً مهما كانت الإغراءات، بل ولن يدخل في مراهنات من أي نوع كانت، بعد الخسائر التي مُني بها.

كان أول ما فعله إسماعيل ياسين بعد الثروة التي هبطت عليه من سباق الخيل، أن اعتذر عن العمل مع فرقة {ببا عز الدين}، لأنه لم يكن يشعر بالراحة في العمل معها، خصوصاً أن ببا كان

متكبرة جداً.

عاش اسماعيل أسبوعاً من دون عمل، وأنفق خلاله بكرم وسخاء على اعتبار أنه أحد أبناء الطبقة الأرستقراطية، وقرر أن يذهب إلى كازينو بديعة مصابني للمرة الأولى باعتباره زبوناً وليس أحد العاملين لديها.

العودة إلى بديعة

آنذاك كان صيت الرحلات إلى الشام ينتشر في الوسط الفني، كالنار في الهشيم، ولا تذهب فرقة أو تعود، إلا ويعرف الوسط كله ما حدث لها من نجاحات أو إخفاقات، وكانت النجاحات التي حققها إسماعيل ياسين في بيروت على كل شفة ولسان.

لم يكن يخفى أمر على الراقصة بديعة، وتحديداً ما حدث في بيروت، وقد وصل إليها صيت المونولوجيست إسماعيل ياسين، وما حققه هناك من نجاحات، وعرفت أنه ذلك المونولوجست الذي كان يعمل لديها وطردته يوماً.

وما إن دخل إسماعيل ياسين إلى كازينو بديعة كزبون، حتى لمحته بديعة، فتوجهت إليه فوراً فتكرر المشهد الأول ولكن بشكل مغاير. فهذه المرة ذهبت بديعة بنفسها إلى إسماعيل ياسين في المكان الذي يجلس هو فيه، ووقفت أمامه:

-منوّر الكازينو يا سي إسماعيل.

-الست بديعة إيه الشرف الكبير ده أقدر أتجرأ وأقولك اتفضلي ولا أكون أتجاوزت حدودي.

فضحكت وجلست:

-أنا هتفضل لأني عايزاك.

-وأنا موافق.

-مش لما تعرف موافق على إيه.

-أي حاجة تقول عليها الست بديعة أنا موافق عليها من غير كلام.

-خلاص... يبقى تنزل الصالة من بكره.

-اعتبريني نزلت من إمبارح يا سلطانة.

بدأ إسماعيل ياسين عمله بمونولوج جديد، ثم أتبعه بمجموعة من مونولوجاته القديمة والتي شاعت آنذاك، وكان منها: {لو عندي أوتومبيل} و'السينما} و'أحب أغني} و'البريفية} وكانت هذه المنولوجات جديدة، كلمات وأداءً وألحاناً، لذا كان لها صدى واسع، وأثر كبير في شهرة إسماعيل ياسين، ليتوالى نجاحه باستمرار لدى بديعة مصابني التي تمسكت به هذه المرة.

رحلة إلى السودان

على رغم النجاحات كلها والشهرة، لم يكن إسماعيل ياسين راضياً ومستقر النفس وهادئ البال، فأصبح يضيق بالوحدة التي يعيش فيها ويشعر بأنه في حاجة إلى من يشاركه حياته، فقد اقترب من سن الثلاثين، وإلى زوجة يستريح معها من عناء الرحلة ويبني عائلة، ليس فحسب ليشعر بأنه يجاهد من أجلها، ولكن لأنه حُرم من العيش في كنف أسرة تحتضنه، فمنذ رحيل والدته وهو لا يزال طفلاً دون الخامسة، لم يشعر يوماً بأن له أسرة.

آنذاك عرضت عليه بديعة السفر مع فرقتها في رحلة إلى السودان، فوافق بلا تردد، وذهبت الفرقة فعلاً إلى السودان، وفي الخرطوم أحيت أولى حفلاتها في النادي السوري ونجحت نجاحاً كبيراً، ودوى اسم إسماعيل ياسين، ولكن هذا النجاح أدى إلى نتيجة عكسية بالنسبة الى باقي عروض الفرقة فقد اعتبر السودانيون أن إقامة حفلتها الأولى في ذلك النادي يمثل عدم لياقة منها وكانت النتيجة أنهم قاطعوا حفلاتها ووصل غضبهم إلى حد أن بعضهم كان يقف أمام باب المسرح الذي تعمل عليه الفرقة ويعتدي على كل شخص يدخل من الجمهور.

بدأت الفرقة تخسر مادياً، فنصحها البعض بأن تغادر الخرطوم، فسافرت فعلاً إلى منطقة النيل الأبيض حيث استطاعت تعويض بعض خسائرها، بل وحققت ربحاً قبل أن تعود إلى القاهرة.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين الحب بهدلة (الحلقة ١٣)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
الحب بهدلة...

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

عاد إسماعيل ياسين إلى القاهرة، إلى وحدته والمعاناة من عدم وجود شريكة حياته. مجدداً، جاءه عقد ليعمل مع فرقة تحية محمود في الإسكندرية، وفرح بأنه سيهرب من القاهرة، واضطر إلى أن يعتذر للست بديعة، ويترك الفرقة، لكنه هو الذي تركها هذه المرة، فيما راحت الست بديعة

تلح عليه أن يبقى ولا يتركها، وسبحان مغير الأحوال!

بدأ ياسين عمله مع فرقة {تحية محمود} في الإسكندرية، لكنه أحس منذ اليوم الأول معها بأنه لم يعد وحده، فعلى خشبة مسرح الفرقة، ولدت أول قصة حب في حياته في الليلة الأولى، وشعر بخفقان قلبه يعلن عنها عندما وقعت عيناه على إحدى راقصات الفرقة وتدعى ثريا حلمي (ليست المغنية والمونولوغيست المعروفة ثريا حلمي.(
كانت ثريا بدينة نوعاً ما، لكن ياسين أحسّ في حديثها ونغمات صوتها بحنان شديد، عاش طوال حياته محروماً منه. بدأ يلتقي بهذه الراقصة خلسة، بعيداً عن أعين بقية أفراد الفرقة، وكانا يتحدثان عن الطموحات وأحلام المستقبل والحياة الزوجية التي تزيل هم الوحدة.
علمت صاحبة الفرقة بقصة الغرام هذه، فغضبت وثارت فقد كان من تقاليد العمل في الصالات ألا يرتبط أحد من العاملين في الفرقة بفنانة تعمل بها، لأن مثل هذا الارتباط يعطل عمل الفرقة ويعرّض مصالحها إلى الضرر، باعتبار أن نظام المجالسة مع رواد الكازينو كان مسموحاً به آنذاك والحب والغرام بين أعضاء الفرقة يتعارض مع هذا النظام!
وما كاد ياسين يعرف أن صاحبة الفرقة غاضبة، حتى أعلن انسحابه من الفرقة، وفوجئ بأن حبيبته تضامنت معه أيضاً، وأعلنت أنها تفضل أن تجوع معه من أن تشبع من دونه، أو تتحكم في مشاعرها صاحبة الفرقة، فاشتعل الحب في قلبه أكثر.
لم يبق ياسين طويلاً بلا عمل، فقد أصبح فناناً مشهوراً تتخاطفه الفرق، وفي اليوم نفسه الذي خرج فيه من فرقة {تحية محمود} كان قد اتفق مع فرقة} المسيري} على إحياء لياليها في مصيف {رأس البر}، لكن اتفاقه هذه المرة لم يكن له وحده، فاشترط على مدير الفرقة أن يصطحب حبيبته معه، لتكون راقصة في الفرقة، فوافق فوراً.
أخذ ياسين صديقته وذهبا إلى رأس البر حيث عملا معا في فرقة المسيري، وأصبحت الراقصة كل شيء في حياته، وكانا لا يفترقان أبداً.
لم يقل نجاح ياسين في رأس البر عن نجاحاته التي حققها في القاهرة أو الإسكندرية، وشعر لأول مرة بطعم النجاح مع الحب، وبأن ثمة من يريد أن ينجح لأجله وله، وكانت حبيبته تعمل على تشجيعه وتتباهى بنجاحاته أمام الجميع، وهو إحساس لم يشعر به ياسين سابقاً... لأول مرة يشعر أنه مصدر فخر لأحد في هذه الدنيا.
ذات يوم دعاه بعض زملاء الفرقة إلى مائدة لعب ورق {الكون كان} واشترط ياسين أن يكون اللعب للتسلية فحسب، فقد أقسم ألا يراهن على أي شيء من أي نوع، فقبل الجميع.

جرح الحبيب

على رغم أن ياسين كان سعيداً في عمله وفي حبه، إلا أنه كان عكس المثل الشعبي القائل {سعيد في الحب تعيس في اللعب}، فراح يكسب الأدوار التي يلعبها كافة، ويضحك ساخراً:
-يا سلام علشان اللعب تسالي بكسب على طول، يعني لو كان اللعب دلوقت على فلوس كان زماني خسرت اللي ورايا واللي قدامى. عموماً، الحمد لله مهما حصل مش هرجع في كلامي وألعب على فلوس أبداً.
وبينما كان ياسين منهمكاً في اللعب فوجئ بخطيبته الراقصة ثريا حلمي، تفتح الباب عليهم وتدخل وهي تكاد تعجز عن التحكم في أعصابها ورائحة الخمر تفوح من فمها، وكانت تهذي كالمحمومة، وتوجه إليه الشتائم وأبشع الألفاظ وتقذفه هو ورفاقه الذين يشاركونه اللعب بكل ما تصل إليه يدها من أكواب زجاجية أو أي شيء يقع في يده.
وشعر ياسين بالخزي والخجل أمام زملائه، خصوصاً بعد أن فشلت محاولاته في تهدئتها ثم استطاع بعض زميلاتها أن يأخذنها بعيداً، ونجحن في تهدئة مزاجها وأعصابها الثائرة من دون سبب مفهوم، أما ياسين فبدا وكأنه قد أصيب بصدمة عصبية تم ارتفعت حرارته وأصيب بالحمى، فقد فوجئ بإهاناتها المتلاحقة ولم يسبق له أن واجه مثل هذا الموقف!
يبدو أن الراقصة حين أفاقت من سكرها شعرت بمدى الإهانة التي ألحقتها بحبيبها، فلم تحتمل

مواجهته أو البقاء بعد ذلك في الفرقة معه، فتركت رأس البر وعادت إلى الإسكندرية فوراً.
أمضى ياسين مدة أسبوعين في فراشه في غرفته في الفندق محموماً، وكان أصدقاؤه يجلسون معه يمرضونه، فلم يكن يتصوّر أن توجه إليه هذه الإهانات على مسمع من أعضاء الفرقة الذين يعرفون تماماً علاقته بهذه الراقصة، بل إنه هو من أصر أن تلتحق بالفرقة وتعمل معهم.
بعد أسبوعين كان قد شفي من مرضه، لكن قلبه بقي مجروحاً، غير أنه راح يعوض ما فاته ويعوض صاحب الفرقة بعض خسائره، واستأنف العمل، فاستقبله الجمهور بترحاب شديد، حتى أنه كان في كل ليلة يلقي ١٥ مونولوغاً وهو أمر لم يسبقه إليه مونولوغيست آخر.
صداقة بشارة
في هذه الفرقة حظي ياسين بصديق جديد تعرّف إليه لأول مرة، وكان ممثلاً كوميدياً يدعى بشارة واكيم الذي نشأت بينه وياسين صداقة قوية، وكانا يذهبان لصيد السمك يومياً بعد انتهاء العمل في الفرقة.
كان من عادة إسماعيل أن يعود إلى الفندق قبل شروق الشمس، أما واكيم فكان يستمر بالصيد حتى ساعات النهار الأولى ثم يعود حاملاً {سبتاً} فيه الكثير من الأسماك فيوزعها على الزملاء مدعياً أنه اصطادها، وكان ياسين يندهش من هذا الرجل الذي يصطاد كل هذه الكمية من السمك، فقرر أن يعرف السر. ماذا يفعل واكيم ليأتي بهذه الكمية كلها من السمك؟
خطر لياسين أن يبقى مع واكيم ويعود معه، فعاد الأخير من دون سمكة واحدة، فراح يندب حظه ويؤنب ياسين:
-أنا عارف حظ إيه ده بس!
-فعلاً حاجة غريبة، من ستة سبعة كيلو سمك كل يوم يبقى ولا سمكة واحدة.
-أنا مش عارف إيه النحس ده. يظهر فيه حاجة حصلت خلت السمك يهرب.
-أنا فاهم قصدك، فعلاً تلاقي السمك أول ما شاف {بُقي} هرب.
-مفيش كلام، بقك السبب.
وبينما كانا يمشيان في طريق العودة إلى الفندق، وجدا صياداً يقف في وجهيهما ويوجه كلامه إلى واكيم وكأنه على معرفة سابقة به:
-صباح الفل يا بيه، السمك أهه جاهز وزي الفل، شوية شبار على شوية بوري مفيش كده واللي خلقك.
حاول واكيم أن يغمز للرجل بعينه ويحرك لسانه ويشير إلى ياسين، لكن من دون جدوى. واصل الرجل كلامه من دون أن يفهم، وواكيم يتنكر له:

-سمك إيه يا راجل انت الله يخرب بيتك.
-السمك اللي حضرتك متفق معايا أحضره لك كل يوم في الوقت ده. هو أنا اتأخرت ولا إيه؟
-روح الله يفضحك زي ما فضحتني.
ما كاد ياسين يسمع الحوار بين واكيم وبائع السمك حتى وقع على لأرض من الضحك، وفضح أمر صديقه بين أعضاء الفرقة، فكان رده أنه قرر اعتزال صيد السمك، لكنه لم يشأ أن يحرم الفرقة من {أكلة} السمك التي تعوّدوا عليها يومياً!
محاولة انتحار
انتهى الموسم الصيفي في {رأس البر} وعاد إسماعيل إلى الإسكندرية، وكان قلبه ما زال يخفق بحب ثريا على رغم إساءتها إليه، فقد كانت أول حب في حياته.
علم ياسين أن ثريا منذ أن عادت من رأس البر، وهي تعمل في كازينو {الكوت دازور} على شاطئ الإسكندرية، فذهب كي يراها، لكنه لم يكد يفعل حتى أصيب بصدمة قاسية فقد قابلته بفتور شديد وعدم اكتراث، بل وبدا عليها وكأنها لم تعرفه قبل ذلك أو لم يسبق لها أن رأته، بينما استقبله زملاؤه بترحاب شديد وكان أحدهم يعرف مدى العلاقة التي كانت بين ياسين والراقصة فأخبره بأنها تعيش الآن قصة حب جديدة مع رجل آخر، وأن عليه أن ينساها إلى الأبد لأنها لم تعد تصلح

له.
وضاقت الدنيا في عيني إسماعيل وخرج هائماً على غير هدى، فاتجه إلى البحر وشعر أنه يناديه إليه، واتجه إلى صخرة عالية بالقرب من {بئر مسعود} وما إن هم بإلقاء نفسه في البحر حتى حدثته نفسه:
-هتعمل إيه يا إسماعيل؟
-زى ما أنت شايف كده هنتحر {عقبال عندك!}
-علشان مين.
-علشان اللي علشانه، وده يخصك في إيه؟
-بس اسمع بس.
-مش عاوز اسمع، وسيبني بقى علشان مستعجل.
-يا إسماعيل أنت وحيد في الدنيا.
-قديمة.
-وأبوك.
-احنا هنقبح.
-أبوك برضه راجل وحيد، يعني لو انتحرت هتبقى خسرت نفسك وانقطع نسلك، وكمان هتخسر آخرتك، وهي اللي هتنتحر علشانها مش هيهمها، وتحب وتتجوز وتعمل أسرة وأولاد.
استفاق ياسين من أوهامه، وأدرك الحقيقة وجرى بعكس الاتجاه إلى أحد الملاهي الليلية القريبة حيث كان يعمل زميله حسين المليجي الذي رحب به ودعاه إلى العمل معه في هذه الفرقة، فلم يتردد وفي الليلة نفسها اعتلى المسرح عل رغم أنه كان لا يزال يفكر في تلك المرأة الخائنة التي أهانت قلبه وعواطفه، إلا أنه أبدع أيضاً وصفق له الجمهور كثيراً وطويلاً فأنساه هذا بعض ألمه.
الهروب من الحب
كي ينسى ياسين ما فعلته به هذه الخائنة، هداه تفكيره المضطرب إلى أن يغازل إحدى زميلاته الفنانات في الفرقة الجديدة، وكانت المفاجأة أنها استجابت له وبادلته العاطفة، فولدت بينهما صداقة، بل وسرعان ما شعر ياسين بالحب مجدداً.
كانت الصديقة الجديدة وتدعى سعاد وجدي، تختلف عن ثريا تماماً. كانت رشيقة القوام، مليئة بالأنوثة، تتحدث بعينيها كثيراً وبلسانها قليلاً.
مجدداً أصابت سهام {كيوبيد} قلب ياسين فإذا به كالغريق يلتمس النجاة عن طريق صديقته وحبيبته الجديدة، فصارح بذلك صديقه مطرب الفرقة فريد أبو زيد وزوجته علية فوزي، إحدى أشهر المغنيات في الملاهي الليلية آنذاك:
-اسمع يا فريد انت وعلية، أنا عاوز أبوح لكم بسر.
-في بير يا سمعه.
-بيني وبينكم كده، أنا بحب.
-ده كلام جميل، باين عليك يا سمعه.
-وانتم عارفيني مش بتاع لف ودوران أنا عاوز أتأهل وأفتح بيت.
-خير ما فعلت، وتبقى مين اللي وقع عليها العين واختارها القلب.
-سعاد وجدي.
-ينظر فريد لزوجته ويتبادلان النظرات) يا زين ما اخترت، ويا ترى هي موافقة؟
-أمال أنا بكلمك ليه. أنا من ناحيتي حاسس إنها بتبادلني الحب، بس عاوز أتأكد لأني مش ناقص جروح تانية.
ذهبت علية وأقنعت العروس التي لم تكن بحاجة إلى إقناع، بل وجدت أنها ترحب بالأمر ومن دون تردد، فذهب فريد أبو زيد واستدعى المأذون، وعُقد القران في الكازينو، واحتفل جميع أفراد الفرقة، وإن كان إسماعيل قد لاحظ أن أحد من زملائه هنأه بطريقة مختلفة وكأنه يهدده:

-مبروك يا عريس، بس يارب الجوازه دي تسعدك فعلاً!
لم يلتفت ياسين إلى هذا الكلام ولم يشغل باله. وفي الوقت نفسه عندما علمت ثريا بخبر زواج ياسين من سعاد، ذهبت واعتدت بالضرب على الزوجة، وكان الاعتداء وحشياً ترك آثاره على وجهها وجعلها ترقد في الفراش أسبوعين.
على رغم أن إسماعيل تأثر وغضب، إلا أنه شعر براحة جديدة لأنه انتقم من الأولى وأثار غيرتها بالثانية، وفي الوقت نفسه أصبح لديه زوجة وعما قريب سيستقر في بيت وتصبح له أسرة.
عندما استعادت سعاد عافيتها من الكدمات التي أصابتها، اقترح عليها ياسين أن يسافرا إلى القاهرة بعيداً عن المشاحنات التي ظلت تثيرها حبيبته السابقة، وفعلاً عاد الاثنان إلى القاهرة ونزلا في النل الذي تعود إسماعيل المكوث فيه، حتى يمكنه استئجار شقة تصلح لأن تكون بيتاً للزوجية، فهو في ذلك الوقت لم يكن يملك مبلغاً يكفي لاستئجار شقة وفرشها ولا يستطيع أن يدع زوجته تنام على الأرض أو على ورق الجرائد في شقته القديمة.
وبدأت الأيام جميلة سعيدة، وشعر ياسين بأنه يعيش لأول مرة منذ ولادته، وكانت حياته مع سعاد أحلى من العسل، إذ بثت فيه روحاً جديدة فيه، بل وبدأت تقول الشعر تغزلاً به، ما زاد من إحساسه بالسعادة وحب الحياة.
لكن الأيام السعيدة لا تدوم، فقد استيقظ ياسين ذات يوم من نومه فلم يجد زوجته إلى جانبه، ومضى يتساءل: أين ذهبت؟ لكنه وجد ورقة إلى جوار السرير قرأ ما فيها:
-أنا في قهوة بيروت... سعاد.
ارتدى ياسين ثيابه على عجل وذهب إلى قهوة بيروت التي كانت آنذاك إحدى أشهر مقاهي شارع عماد الدين، واكتشف وهو في طريقه إلى المقهى أن سعاد قد استولت على كل ما في جيبه من نقود، ثم حين وصل إلى المقهى وجد أنها أنفقت المبلغ الذي أخذته منه على شرب القهوة واستضافة كل من هب ودب وعلى شراء الجرائد والمجلات، بل واشترت كتاب {التدبير المنزلي} الذي يرشد الزوجة لطبخ أحسن الأطعمة.
وكاد ياسين يجن من هذا التصرف المفاجئ! وقبل أن يعبر عن رأيه في ما فعلته زوجته جاء إلى المقهى رجل من فرقة الفنانة {ببا عز الدين} يدعوه إليها:
-أستاذ إسماعيل.
-أيوه يا سيدي أي خدمة.
-الست ببا عز الدين بعتاني لك عايزاك.
-حاضر قولها هبقى أعدي عليها بالليل.
-لا يا أستاذ ليل إيه... دي عايزاك ضروري دلوقت. قالت لي مترجعش من غيره.

كظم إسماعيل غيظه مما فعلته زوجته سعاد، واتجه إلى صالة ببا عز الدين فوراً، ليجد صاحبتها ترحب به أيما ترحيب، وتطلب منه أن ينضم إلى فرقتها، ويعمل في مسرحها ابتداءً من تلك الليلة... ولأنه لم يكن مرتبطاً مع فرقة أخرى في القاهرة وافق فوراً، وكان حريصاً على أن ينصرف بسرعة ليعود إلى مقهى {بيروت»، غير أنه عندما عاد لم يجد سعاد وسأل عنها فقيل له إنها ذهبت إلى النزل.

!Error



إسماعيل يس... حكاية رجل حزين آدم وحواء (١٤)

إسماعيل يس ...
حكاية رجل حزين
آدم وحواء....

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

حرص إسماعيل ياسين على أن ينهي لقاءه مع ببا عز الدين ويتفق معها على كل شيء، ليعود بسرعة إلى البانسيون لمعاقبة زوجته سعاد وجدي على ما فعلته في ذلك اليوم، من دون مراعاة لوجوده، وكأنه ليس زوجها، بل مجرد زميل معها في الفرقة، ولكنها لم تتح له مجالاً لذلك، وقبل أن يبادرها بالسؤال عما فعلته، بادرته هي بأنها تريد الآن وفوراً الذهاب لزيارة والدتها فقد أتت

من بلدتها فجأة ونزلت لدى إحدى قريباتها وأرسلت في طلبها وهي مشتاقة إليها جداً.

ومن دون أي تردد قال لها إسماعيل:

-أنا هسامحك المرة دي بس اللي حصل ده اسمه جنان وما يتكررش.

-خلاص بقى يا سمعه.

-خلاص روحي قابلي والدتك وهاتيها معاكي تقعد معانا النهارده.

ذهبت سعاد لمقابلة والدتها، لكنّ القدر تدخل لفضح أمرها، فلم تكد تمر ساعة حتى دقّ باب غرفة اسماعيل، وكان أحد الزملاء الذين ينزلون معه في البانسيون:

-أهلا تعالى.

-أمال فين سعاد يا أبو السباع.

-سعاد راحت عند أمها أصلها جت من البلد.

ضحك الصديق ضحكة طويلة ساخرة!

-بتضحك على إيه يا أخي.

-بضحك لأنك راجل طيب.

-مش فاهم تقصد إيه؟!

-لأن والدتها تبقى حبيب القلب القديم. جه من الإسكندرية وهي دلوقت معاه في قهوة 'تريومف.'

جنّ جنون إسماعيل فأزاح الرجل من أمامه وانطلق كالسهم إلى المقهى ليتأكد من صحة كلامه.

كانت الصدمة قاسية جداً على أي إنسان قد يرى ما رأه إسماعيل، فقد تعمّد الذهاب إلى المقهى من دون دخوله كي لا يتسبب في فضيحة لنفسه، بل وقف ينظر من بعيد فوجد زوجته تجلس إلى جوار رجل، هو يعرفه تماماً، إنه الزميل الذي هنأه يوم زواجه وكأنه يهدده، وهي تجلس إلى جواره كأنهما حبيبان، عشيقان، بل زوجان في شهر العسل.

بكى إسماعيل من دون أن يدري ولم يتحمل أن يشاهدهما أكثر من ذلك، فهذه المرة ليس جرح حبيبة، بل 'خنجر الخيانة الزوجية' طعنه في ظهره. وليس ثمة ما يبرّر به ما حدث. فقد أحبها وأخذ برأيها فوافقت على الزواج منه عن طيب خاطر، وعاشا معا كأسعد زوجين في شهر العسل. فما مبررها لخيانته؟ إلا إذا كانت الخيانة مدبرة، بدليل شكل التهنئة التي تلقاها من عشيقها ليلة عقد قرانه، بما يعني أنها تزوجت إسماعيل وهي على علاقة بهذا الرجل.

لم يكن إسماعيل يشرب الخمر ولكنّه في ذلك الموقف لم يجد عنه بديلاً، فشرب حتى أنه لم

يستطع أن يرى أمامه، أو يتحكم في مشيته، مفكراً أن ينتقم لشرفه بقتل هذه الخائنة، فجزاء الخيانة الموت، ولكن إذا قتلها لن يستفيد شيئاً، سيُعدم، أو في أفضل الظروف سيُحكم عليه بالسجن المؤبد، فهو لا يملك دليلاً على خيانتها، ثم لماذا يدفع حياته وحريته ثمناً لمثل هذه الخائنة؟!

عاد إسماعيل إلى البانسيون ودخل غرفته ليجد زوجته نائمة، فأيقظها:

-فين أمك أمال مجتش معاكي ليه؟

-أمي مالها؟ آه آه أمي أصلها...

احمرّت عينا إسماعيل:

-أصلها إيه؟! معجبتهاش القعدة في قهوة 'تريومف'؟

فنظرت سعاد في الأرض من خجل المواجهة وما كادت ترفع رأسها حتى وجدت يد إسماعيل تهوي على وجهها. تلقت صفعات عدة جعلتها تعترف له:

-أيوه لسه بحبه.

-وانت طالق طالق طالق.

خرج إسماعيل من البانسيون وهو ضائع على غير هدى، لا يعرف إلى أين يذهب والى من يلجأ، يسيطر عليه إحساس الألم والفشل، وعادت الدنيا تسود في عينيه مجدداً.

الزواج الثاني

كانت أطول ليلة في حياة إسماعيل، لم يعرف كيف انقضت، فقد ظل هائماً على وجهه طوال الليل، ولم يدر إلا والشمس تهبط فوق رأسه وهو يجلس على كورنيش نيل روض الفرج.

تذكر إسماعيل أنه لا بد من أن ينهي علاقته بسعاد تماماً، اتجه إلى البانسيون، فوجدها نائمة وكأن شيئاً لم يحدث، فأخبرها بأنه لا بد من أن تنتهي هذه التمثيلية الهزلية فوراً. اصطحبها إلى مأذون حي بولاق أبو العلا وانفصل رسمياً عنها.

غير أن إسماعيل فوجئ بسعاد تطلق الزغاريد بمجرد أن انتهى المأذون من إجراءات الطلاق ثم انصرف كل منهما في طريقه.

أسدل الستار على زواج إسماعيل ياسين وسعاد وجدي، ولم يذهب إلى تياترو ببا عز الدين وفقاً للاتفاق الذي تم بينهما، فلم يكن لديه رغبة في القيام بأي شيء، ظل يمشي في شوارع القاهرة على غير هدى، حتى عاد مرة أخرى إلى شارع عماد الدين، وفجأة وجد نفسه أمام البانسيون الذي تقيم فيه حبيبته الأولى ثريا حلمي.

كان في ذلك الوقت في أشد ما يكون إلى صدر حنون يشكو له الغدر والخيانة، يحتاج إلى من

يسمعه ويخفف عنه تلك اللحظات القاسية من حياته.

ومن دون أن يدري وجد قدميه تحملانه إلى حجرة ثريا في البانسيون، صعد لمقابلتها واستقبلته بدلال ممزوج بغضب:

-انت؟! إيه اللي جابك هنا؟

انت؟! إيه اللي جابك هنا؟
-جاي اعتذر لك عن اللي عملته معاكي النهارده بس عرفت قيمتك.

-قيمتي؟! روح للست سعاد وجدي خليها تنفعك.

-أرجوك يا ثريا متجبيش سيرتها قدامي تاني.

فهمت ثريا أن ثمة مشكلة بين إسماعيل وسعاد، فلعبت على هذا الوتر المشدود:

-دلوقت مش عايز تسمع اسمها بعد ما فضلتها عليّ؟

-كان عندك حق في كل اللي عملتيه معاها. يا ريتني كنت سيبتك خلصتي عليها وخلصتيني منها.

-وأروح أنا في داهية. إبعد كده أنا مخصماك.

-خلاص من النهارده مفيش خصام مش هسيبك ولازم نرّجع اللي فات.

-بجد يا سمعه؟

-بجد يا ثريا.

استطاع إسماعيل إقناع الراقصة ثريا حلمي بأن تعود إليه، وقبل أن تفكر وكي لا تتردد أخذها فوراً إلى المأذون وعقد قرانه عليها وعادا إلى البانسيون زوجين سعيدين.

عادت المياه إلى مجاريها مرة ثانية بين إسماعيل وحبيبته الأولى ثريا، غير أنه لم يكن يدري أنه يعيش أياماً معدودة مع السعادة، فهل القدر يقف أمام سعادته أو هو سوء اختيار وتقدير، أو هو استعجال إسماعيل الى تكوين الأسرة التي حرم منها؟ فقد انتهى الحب ليستيقظ يوماً فجأة على خيانة ثريا له أيضاً.

عاش إسماعيل في البانسيون مع ثريا خمسة أيام كان خلالها لا يترك زوجته لحظة واحدة بل ومنعها أن تتحدث مع أحد من نزلاء البانسيون أو زواره، فقد كانت صاحبة البانسيون تسمح لبعض الزوار بزيارة الفنانات وهو يعرف أنهم يدفعون عنهنّ حسابهن وبشكل مبالغ فيه.

وبعد الأيام الخمسة فوجئ اسماعيل بصاحبة البانسيون في غرفته تعانق ثريا وتقبّلها وسط دهشته ونظراته:

-كل سنة وأنت طيبة وعقبال ١٠٠ سنة النهارده عيد ميلادك.

ثم أعطتها سواراً من الذهب وغادرت الحجرة.

-ما كنتش اعرف أن النهارده عيد ميلادك.

--واديك عرفت.

-بس النهارده مش عيد ميلادك. عيد ميلادك لسه فاضل عليه خمسة شهور.

--يعني مش كتّر خيرها اللي افتكرته قبلها بخمسة شهور.

-أنا مش طرطور. صاحبة البانسيون مش هتقدر تجبلك أسوارة تمنها أكتر من خمسين جنيه. الأسوارة دي من الراجل اللي كان منتظر أمبارح في الاستراحة وكان بيبصلّك.

صفعها إسماعيل على وجهها ما جعلها تنفجر بحقيقة الموقف:

--أيوه هو كده. وأنا لازم اقبل الحاجات دي. أنا عايزه أعيش وبحب الدهب. وانت متقدرتش تجيب دبلة مش أسوارة.

طلب إسماعيل من زوجته أن تعيد الأسوارة ولكنها رفضت، ثم حاول من دون جدوى فقد أصرت على الاحتفاظ بالهدية وبدأت تحتج على القيود التي وضعها إسماعيل عليها بحيث سلبها شخصيّتها.

جحيم الشك

منذ ذلك اليوم تحوّلت حياة إسماعيل ياسين مرة أخرى إلى جحيم، وبدأت ثريا ترهقه بمطالب لا تحتملها حالته المادية وأخذت تسيء معاملته، وكان شبح الطلاق يدخل من الباب كلما دخلته صاحبة البانسيون وبيدها هدية جديدة من الذهب الذي لم تكن ترفضه ثريا أبداً، غير أن إسماعيل آنذاك لم يكن لديه أي اتهام ضد زوجته فقد كانت تنفّذ كل تعليماته ولا تغادر غرفتها إلا للضرورة وكان حين يخرج يغلق عليها باب الغرفة بمفتاح ويضعه في جيبه، ولم تكن صاحبة البانسيون تدخل غرفته وغرفة زوجته إلا في وجوده.

لكنه على رغم ذلك كله لم يعد يتحمل الحياة الزوجية التي انقلبت إلى جحيم فقد كانت ثريا تتفنن يومياً في خلق المضايقات فضلاً عن الشك والقلق والتعاسة التي كان يعانيها بسبب الغيرة، وفي أكثر من مرة كان إسماعيل يعود في غير أوقات عودته المحددة إلى البانسيون فيجدها في غرفتها، ومع ذلك كان الشك يأكل قلبه، في الوقت نفسه كانت ثريا عرفت نقطة ضعفه هذه، وكانت تستغلها أسوأ استغلال، حتى نفد صبره:

-أنا عارف أنك بتعملي كده علشان أطلقك. إذا كان ده هيريّحك إنت...

ولم يكن يتوقع ما حدث فقد وضعت ثريا يدها على فمه كي لا ينطق كلمة الطلاق، وارتمت تحت قدميه تقسم بأنها تعيش له وحده وليس في قلبها مكان لغيره، وأنها وحيدة وتريد أن تبقى معه

طوال عمرها!

أخذت تذرف الدموع وتضمّه إلى صدرها بل وانحنت لتقبل حذاءه وتتوسل إليه بألا يتركها، ومع ذلك كان قلب إسماعيل وللمرة الأولى في حياته متحجراً بسبب الشك والغيرة، ثم اقترحت أن تسافر إلى الإسكندرية لتقيم أسبوعاً لدى أسرتها وتترك له فرصة التفكير لعله يعدل عن الطلاق فوافق على مضض.

وفعلاً سافرت ثريا إلى الإسكندرية، وما كادت تغادر البانسيون حتى تنفّس إسماعيل الصعداء وألقى بهمومه وراء ظهره وقرر أن يعطي قلبه إجازة من الحب والزواج والخلافات التي كادت أن تقضي عليه وعلى مستقبله الفني، فقرر أن يوجه كل اهتماماته إلى عمله، واتجه فوراً إلى فرقة ببا عز الدين، ثم استطاع بسرعة العودة مجدداً، حتى أصبحت المنافسة على أشدّها بينه وبين سيد سليمان.

كانت فرقة ببا عز الدين تضم نجوماً آخرين إلى جانب إسماعيل وسيد سليمان، ومن بينهم المطربة فتحية شريف التي اعتزلت الفن بعد ذلك بسنوات لكي تتزوج من نجم السينما الصاعد عماد حمدي الذي أنجب منها ابنه نادر عماد حمدي، والفنانة ثريا حلمي، المونولوجيست والممثلة، والمونولوجيست اللبنانية نادية العريس.

لا زواج ولا حب

وضع إسماعيل كل همّه في العمل، ونسي تماماً الخيانة والحب والزواج. لم يتذكر سوى أمر واحد فحسب هو فنه الذي لا بد من أن يخلص له، فقد أدى ما حدث في الفترة السابقة من حب وزواج وخلافات إلى تأخره عن بقية زملائه، وكان عليه تعويض عما فاته بأي شكل من الأشكال. لذلك أصبح يتفانى في عمله، فإذا قال أحد نجوم الفرقة خمسة مونولوجات، قدم إسماعيل سبعة وهكذا.

بدأت نجومية إسماعيل تعود إلى سابق عهدها، ولكن هذه المرة كانت أشد وأكبر، فقد استطاع خلال أسابيع قليلة أن يتفوق على الجميع، لدرجة أن بعض المجلات الفنية آنذاك مثل 'الكواكب' و'روز اليوسف' و'المصور' بدأ يكتب عن ذلك المونولوجيست الأشهر في شارع عماد الدين.

لكن ما حققه من نجاحات متواصلة، جعل زملاءه الذين يعملون معه يغارون منه ومن نجاحه، ما جعلهم يتكاتفون ليكونوا جبهة ضد ذلك المونولوجيست الذي بدأ يلمع ويتفوق عليهم جميعاً، بخفة ظله وجمال مونولوجاته، ومع ذلك لم تستطع هذه الجبهة أن تؤثر في إصراره على النجاح، خصوصاً بعدما عرف نواياهم وما يدبّرونه له، فقبل التحدي.

رفض اسماعيل الاستسلام للخوف من الفشل أو تكتّل الزملاء ضدّه للإيقاع به، وبدأ يعطي كل مونولوج جديد حقه في الكلمات والتلحين والغناء، لدرجة أن كل مونولوج كان يكلّفه ضعف راتبه الأسبوعي الذي يتقاضاه من الفرقة. واضطر لأن يعيش على 'سندوتشات الفول والفلافل' في وجباته الثلاث يومياً، ويوفر ثمن الطعام ليدفعه للمؤلفين أو للملحنين، ولكن في مقابل ذلك كان حين يقدم المونولوج الجديد يسجل نجاحاً غير مسبوق يدهش الجميع بمن فيهم من يتآمرون عليه، ويزداد حب الناس له وإعجابهم به، وعلى الصعيد الآخر تزداد محاربة أفراد الفرقة له، وإن كان كسب الأجواء حوله، وبدأ يجد الكثير من التشجيع من زملائه غير المتنافسين معه، ومن صاحبة الفرقة ببا عز الدين التي وجدت فيه' الفرخة' التي تبيض لها ذهباً. فكانت غالبية الجمهور الذي

يدخل إلى صالة ببا تأتي من أجل إسماعيل ياسين فحسب، وأصبح الجميع إلى جواره مجرد 'كمالة عدد.'

الطلاق الثاني

وفيما كان إسماعيل يخوض أشرس معاركه الفنية، وأخباره ونجاحاته تنتشر بسرعة النار في الهشيم، حتى أنها كانت تصل إلى الإسكندرية وربما خارج القطر المصري من خلال الفرق التي تسافر وتعود، فوجئ بزوجته الراقصة ثريا حلمي تقيم عليه دعوى قضائية تطالبه بنفقة زوجية، فكما يقول المثل 'الصيت ولا الغنى'، فقد ظنت أنه أصبح من الأثرياء، من كثرة ما تسمعه من نجاحات يحققها، ولا بد من أن تطالبه بالإنفاق عليها.

ولأن ثريا كانت ذهبت لتقيم لدى أهلها في الإسكندرية فقد أقامت الدعوى هناك واضطر إسماعيل لحضورها في المكان نفسه، وحين قابل زوجته في ساحة المحكمة الخارجية، أقبلت عليه تؤكد:

-أنا ممكن أتنازل عن القضية بس بشرط.

أنا ممكن أتنازل عن القضية بس بشرط.
-إيه هو؟

-نرجع لبعض تاني ويا دار ما دخلك شر.

-اللى بتقولي عليه ده مش ممكن يحصل. خلاص مفيش رجوع.

-انت دلوقت ماشاء الله حالتك اتحسنت وصيتك واصل بر مصر كلها.

-قولي كده بقى. هو ده اللي خلاكي تفكري تاني فيّ بعد كل الفترة د الفلوس!

-صدقني أنا لسه بحبك وباقية على العشرة.

-وأنا مبقاش عندي مكان في قلبي غير لشغلي بس.

رفض إسماعيل العرض ليس لأنه، كما قال، لم يعد ثمة مكان في قلبه للحب أو الزواج، بل لأن الشك ملأ قلبه من ناحية زوجته حين كانت تقبل هدايا صاحبة البانسيون، ولأنه على يقين أن لكل شيء ثمناً، وأن ثريا لا بد من أن تكون دفعت الثمن في كل المرات التي كانت تتلقى فيها الهدايا.

لكن قبل أن يدخلا للمثول أمام القاضي في المحكمة كانا اتفقا على الطلاق، مقابل أن يدفع إسماعيل لثريا مبلغاً من المال على أن تنسى أنها كانت في يوم من الأيام زوجته ليتم الطلاق الثاني في حياته، وهو ما لم يكن يتمناه، فكان كل طموحه أن يكوّن أسرة بدلاً من تلك التي حرم منها، وكان كل همه أن يحدث ذلك مبكراً ليكون له أولاد يعطيهم من كل ما حرم منه: الحنان والحب والعطف والدفء الأسري. غير أن الفشل لازمه في الزواجين، ولم يكن له ذنب في ما حدث، ربما فحسب كان اختياره غير موفّق، وكان عليه أن يتحمل تبعات اختياراته .

Error!



إسماعيل يس حكاية رجل حزين مولد نجم) الحلقة (١٥)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
مولد نجم...

القاهرة - ماهر زهدي

بعد الإعلان عن بدء الحرب العالمية الثانية في سبتمبر (أيلول) عام ١٩٣٩ تدفق جيوش الحلفاء إلى القاهرة، وراحت صالات الملاهي الليلية تعجّ بهم ما جعل روادها من المصريين، أو معظمهم، يتجنبون الدخول إليها لأنهم قد يتعرضون لاعتداء الجنود السكارى.

انعكس هذا الواقع على الفنانين والمطربين أيضاً، فكان بعضهم يرفض العمل في تلك الأماكن، والبعض الآخر يخاف العمل في ظل وجود الجنود.

راح اسماعيل ياسين يفكر في طريقة ينسحب بها من العمل في الملاهي الليلة، لأنه بدأ يمل من أن تفتح الستارة فلا يجد أمامه من يسمعه سوى السكارى الذين لا يفهمون حتى ما يقول.

كان الأمر صعباً إلى حد كبير، لأن ياسين كان يعتاش من العمل في الملاهي، ولا بد له من مورد رزق آخر للاستقالة من الفرقة. اجتمع ذات يوم في مقهى الفن مع زملائه الذين كانوا يفكرون في الأمر مثله، واقترح عليهم فكرة جديدة: تقديم استعراض فني في أحد المسارح بشرط ألا تقدم الخمور إلى الزبائن، كي يضمنوا عدم دخول الجنود الإنكليز.

درس ياسين الفكرة بسرعة، وذهب مع مجموعة من الزملاء واقترحوهاعلى «الست بديعة» التي وافقت على التمويل فوراً، على أن ينفّذ الاستعراض تحت إشرافها، وقدمت الفرقة أول استعراض غنائي راقص لها بعنوان «٩٩ مقلب» كتبه المؤلف أبو السعود الإيباري، وتقاسم بطولته ياسين مع بشارة واكيم، والراقصة تحية كاريوكا.

لاقى العمل نجاحاً كبيراً من الجمهور المصري والعربي الذي كان قاطع الملاهي الليلية، لكن الربح كان قليلاً، بسبب عدم تقديم مشروبات، وإن كان أفراد الفرقة وجدوا أن الربح يزيد يوماً تلو آخر في ما بعد، لكن ذات يوم توجهوا إلى المسرح فكان مغلقاً، وبأمر من صاحبته بديعة مصابني! هرع الجميع لمعرفة السبب منها فقالت لهم ببساطة:

-مالكم في إيه؟!

-المسرح مقفول ليه يا سلطانة.

-كان لازم يتقفل... ما هو بصراحة كدة ماكنش فيه مكسب. ده كمان كان فيه أيام كنت بخسر وبدفعلكم أجوركم من جيبي، وأنتم مترضوش ليّ بالخسارة.

-بس يا سلطانة احنا نجحنا بيكي وبمساندتك.

-يا فرحتي نجاح من غير فلوس. زي قلته.

-يعني مفيش أمل نرجع نشتغل تاني.

-لا... الأمل موجود صبركم بس عليّ. أنا اشتريت حتة أرض في ميدان إبراهيم باشا، ميدان الأوبرا، وهبني عليها مسرح بديعة علشان يبقى ملكي. لا أدفع إيجار ولا اتنقل كل يوم في مكان

بالفرقة.

-وده قريب يا سلطانة؟

-طبعاً كلها ست شهور ويبقى جاهز.

عليهم الانتظار ستة أشهر فقط لينتهي البناء! كانت السينما المصرية آنذاك) نهاية الثلاثينات)، بدأت تلفت الأنظار، إذ كانت الوحيدة في المنطقة الناطقة باللغة العربية، وكما كان لكل فن نجومه، في المسرح والغناء والمونولوغات والإذاعة، أصبح للسينما أيضاً نجومها الذين تمتعوا بسحر خاص.

بسبب الأحداث السياسية وظروف الاحتلال، كانت الأفلام الاجتماعية والميلودرامية هي النوع السائد، فضلاً عن تلك الكوميدية التي كانت تعتمد على شخصيات وأنماط شعبية مستمدة من الموالد والمسرح الشعبي وفن {الأراغوز{، كالعمدة والعسكري والخواجة والزوجة والحماة، والبطل الشعبي الذي كان يشبه إلى حد ما الشخصية الأسطورية {جحا}، ويصطنع البلاهة للسخرية من كل شيء، حتى من نفسه من دون قيود. كان فقيراً غالباً، يملك القدرة على اختراق مظاهر الطبقة الثرية وكشف حقيقة شخصياتها، كأنه ينتقم بذلك لنفسه ولشريحة كاملة من الفقراء.

أغلق مسرح مصابني أبوابه في وجه نجومه، ومن بينهم ياسين، الذي خرج منه وكل ما يملكه ٦٠ قرشاً، وبحسب {الست} لا بد من أن تكفيه ستة أشهر، أي عليه أن ينفق عشرة قروش شهرياً، لكن السماء أرسلت إليه الحل، كالعادة، وكان مختلفاً عن المرات السابقة كلها.

أبواب السينما

كان ياسين يجلس في مقهى في شارع عماد الدين، وحاول أن يفكر في ما قد يفعله بعد إغلاق مصابني مسرحها، وماذا سيفعل بالمبلغ الذي يملكه، لكنه ترك التدبير لله، وعندما هم بالانصراف، استوقفه شخص اقترب منه وأعاده إلى الجلوس:

-أستاذ اسماعيل ياسين؟

-أيوه يافندم أي خدمة. أنا، أنا متهيألي شفت حضرتك قبل كده.

ضحك وهو يجلس: جايز أنا اسمي فؤاد الجزايرلي.

-أيوه كده صح. أستاذ فؤاد المخرج السينمائي المشهور.

-أيوه أيوه. اسمع يا أستاذ اسماعيل. من الآخر ودون مقدمات أنا بعمل فيلم جديد، وفيه فنانين كتير وشخصيات كتيرة: فوزي الجزايرلي وإحسان الجزايرلي وأنور وجدي وعباس فارس وتحية كاريوكا ومحمد عبد المطلب وأدمون توما ...وغيرهم، واسم الفيلم «خلف الحبايب.«

-اللي جابلك يخليلك يا فؤاد بيه.

-ظريف... ظريف... ماهو علشان كده أنا اخترتك معايا في الفيلم الكوميدي ده.

-يا فرج الله، سيما حتة واحدة! أنا أمثل في السيما.

-إيه رأيك يا بطل؟

-سينما!! وكمان بطل.

-لا لا مش قوي كده. إنت هتعمل دور صغير بس هايل وبكره يا سيدي الصغير يكبر.

تحدد الموعد... كان ياسين أول الواصلين إلى أستوديو مصر، في انتظار بقية فريق عمل «خلف الحبايب» لبدء التصوير. كانت الأجواء هادئة في مكان فسيح يشبه ساحة انتظار السيارات، عُلقت فيه أعمدة عدة للإضاءة.

وصل الفنيون وعمال الديكور والإضاءة، وخلال ساعات قليلة، وحين وضع العمال الديكورات المعدة سلفاً، تحوّل المكان الفسيح الخالي إلى شقق وممرات وحجرات نوم وصالونات. أصبح شيئاً مختلفاً تماماً، ثم وصل الفنانون المشاركون في العمل، وكان ياسين سمع عن نجاحات بعضهم من دون رؤيته، لكنه فوجئ بأنهم جميعاً يعرفونه اسماً وشكلاً.

ما إن دارت كاميرا المخرج الجزايرلي حتى أصابت الدهشة ياسين مجدداً، ما هذا السحر؟ ما هذا الأسلوب الذي يعملون به؟ مجرد أن يقف الفنانون كل في المكان المخصص له، ويصيح المخرج: «أكشن»، يبدأ الجميع في تنفيذ حركاته المنتظمة والتحدث بكلام منظم، الكل يعرف دوره وموعد دخوله وخروجه من دون تأخير أو تقديم.

عندما وقف ياسين أمام الكاميرا نسي بعضاً مما كان يحفظه من دوره، وقبل أن يتوه أو يتوقف عن الكلام كان ذهنه حاضراً، فاستخدم بعض الكلمات البديلة وأضاف حركات تناسبها، وعندما همّ مساعد المخرج للإشارة إليه بالتوقف، فوجئ بالمخرج يطلب منه الاستمرار، فقد أدهشته سرعة بديهته، إلى درجة أن الإضافات التي قدمها كانت أفضل كثيراً من النص المكتوب، وهذا ما لفت أنظار الممثلين أيضاً: أنور وجدي، تحية كاريوكا، عباس فارس، وغيرهم.

الأهم من ذلك، أن الفنان فوزي الجزايرلي، وبعد انتهاء تصوير الفيلم، راح يعبر عن إعجابه بأداء ياسين، وكأن له بصيرة نافذة، إذ وقف بين المشاركين في الفيلم وقال لهم: {عليكم أن تخافوا من هذا الفنان فالمستقبل له}.

كان هذا الكلام بمثابة شهادة تقدير من فنان كبير لفنان ما زال في بداية رحلته، وفي الوقت نفسه جرس إنذار للجميع بأن ياسين قادم.

إلى الشام

لم ينته عام ١٩٣٩ إلا وكان أعلن عن ميلاد إسماعيل ياسين سينمائياً، وإن كان في دور صغير لم يكفِ طبعاً لتحسين أوضاع النجم الجديد المالية، فكان لا بد من البحث عن عمل.

عاد ياسين إلى التعاقد مع فرقة {ببا عز الدين}، التي كانت تستعد للسفر إلى لبنان آنذاك في رحلة فنية، وشكلت فرقة تضم المطرب الشعبي محمد عبد المطلب وأنصاف محمد، وسعيد مجاهد،

الذي كان صاحب ملهى رمسيس وزوجته الراقصة زيزي سعيد، ومعهم ١٠ راقصات من أجمل البنات اللواتي يعملن في الفرق المتنقلة، وما كادت {ببا} ترى اسماعيل حتى بادرت:

-إنت فين يا اسماعيل؟

-أنا موجود تحت أمرك.

-طيب أنا عايزك تجهز نفسك علشان تسافر معايا أنا والفرقة... عندنا رحلة للشام.

بدأت الفرقة عروضها في فلسطين، وبدأ ياسين كعادته يلمع ويلفت الأنظار بمونولوغاته، وخطر في بال ببا عز الدين فجأة تطوير نفسها، فبدأت إلقاء المونولوغات إلى جانب الرقص، وعلى رغم أن صوتها كان ضعيفاً، لاقت نجاحاً كبيراً، لأنها كانت تؤدي المونولوغ بإضافة حركات راقصة، فتغطي على ضعف الصوت والأداء، وبخبرته فهم ياسين الأمر، وراح يشجعها:

-أنا ماكنتش أعرف إنك بتقولي مونولوغات بالحلاوة دي؟

ظن أعضاء الفرقة أن ياسين يسخر منها، إذ كانوا يضحكون على طريقة أدائها، ومضطرين إلى منافقتها لأنها صاحبة الفرقة التي يعملون فيها!

ولأن ياسين شجعها بصدق طلبت ببا من مدير الفرقة زيادة أجره من ٢٠ جنيهاً شهرياً إلى ٤٠ جنيهاً، بل وبدأت تأخذه بعد ذلك إلى حفلات كان أثرياء تلك البلاد يدعون الفرقة إليها، بعد أن كانت تعتبر أنه مجرد فنان مغمور لا يستحق حضور الحفلات الكبيرة والخاصة.

استمر نجاح الفرقة وشكّل ياسين مع زميلته المونولوجيست ثريا حلمي، ثنائياً، وكانا يقدمان، إضافة إلى وصلتهما منفصلين، فقرة {دويتو}.

ولأن اسم ثريا حلمي كان يذكره دائماً باسم زوجته الأولى، كان ياسين يشعر بالضيق، حتى تجرأ ذات يوم وطلب منها تغييره، لكنها اعتبرت ذلك إهانة لمكانتها الفنية وردت عليه بجفاء:

-شوف يا اسماعيل أنا مقدرة الكلام اللي انت بتقوله، لكن أنا معنديش استعداد أغير اسمي اللي اتعرفت بيه واشتهرت بيه علشان خاطر راقصة مغمورة اسمها على اسمي... انساها يا أخي.

وأصرت ثريا على الاحتفاظ باسمها، بل رفضت بعد ذلك العمل مع ياسين، لذلك شكّل ثنائياً مع ببا، ثم إنصاف محمود.

كان يقدم ليلياً {دويتو} مع ببا ثم إنصاف، وبعدها يظهر بمفرده ثم يشارك في استعراض غنائي تقدمه الفرقة كلها، وحين ينتهي من عمله يكون في غاية الإرهاق ليعود إلى أحد الفنادق المتواضعة حيث تنزل الفرقة، ويلقي بنفسه في السرير ويستغرق في نوم عميق.

تابع ياسين رحلته مع {ببا عز الدين} إلى بيروت حيث استقبله الجمهور بترحاب شديد، وما إن وصل حتى عرف أن الفنانة اللبنانية نادية العريس تعمل مع فرقة} علي العريس} في مسرح {الكاريون} وتلقي مونولوغاته على أساس أنها خاصة بها، ومن ألحان زوجها علي العريس.

انزعج ياسين، وأراد أن يعطي نادية وزوجها درساً، فما كادت الستارة تفتح في الحفلة الأولى حتى أشار إلى الفرقة الموسيقية بالتوقف عن العزف وراح يخاطب الجمهور:

-طبعا أنتم عارفين أنا بحبكم قد إيه، وبحب كل جمهور الشام لأنه وقف جنبي وشجعني وله نصيب في نجاحي، لكن أنا من وقت ما جيت على بيروت وأنا سامع إن فيه فنانة هنا بتقول كل مونولوغاتي على اعتبار أنها خاصة بها ومن ألحان زوجها. والكلام ده مش صحيح لأن المونولوغات دي نتاج تعبي ودفعت تمنها من عرقي ومن دم قلبي، وألحان وجهد ناس محترمة، ومن يدعي أنها ملكه فهو كاذب.

صفق الجمهور طويلاً، ثم ألقى ياسين المونولوغات بطريقته الخاصة، وبعد أن أسدلت الستارة، ذهب مباشرة في ذلك اليوم من يبلغ نادية والعريس بما صرّح به ياسين، فتوقفا منذ ذلك اليوم عن إلقاء مونولوغاته.

استمر عمل الفرقة في بيروت أسبوعين وسط نجاح كبير، ثم انتقلت إلى طرابلس حيث كان النجاح حليفها أيضاً، ثم إلى حمص وحماه، وكانت حلب الخطوة التالية!

تذكر ياسين الفشل الذريع الذي لاقاه في حلب ذات يوم، واعتراه شعور بالخوف والقلق لأنه لم ينس هروبه من هذه المدينة بناء على اقتراح أبو جورج والد المطربة نور الهدى، لكنه لم يستطع ترك فرقة ببا واضطر الى السفر مع أعضائها.

فور وصوله إلى المدينة، ذهب إلى صديقه القديم صاحب ملهى {اللونا بارك} زكي الضاهر على اعتبار أنه الرجل الذي وقف إلى جانبه على رغم فشله، وأعطاه أجره كاملاً وأكد يوماً في حفلة وداع أقامها له بأنه لم يفشل، بل الجمهور فشل في فهم فنه، وتنبأ له بمستقبل باهر.

استقبل الضاهر يلسين أيما استقبال، ورحب به بشدة، ودعاه إلى تناول الغداء واستطاع أن يملأ قلبه بالأمل والثقة بالنجاح.

تركه ياسين وهو مطمئن إلى حد ما وذهب إلى الفندق الذي نزلت فيه الفرقة، وحاول أن ينام قليلاً قبل موعد العمل، لكن النوم جافاه، وظلت أعصابه مشدودة بعد أن سيطر عليه الشك في عدم النجاح وشعر أنه سيبدأ حياته الفنية مجدداً في تلك الليلة.

ذهب إلى المسرح مساءً وهو يدعو الله أن يوفقه، وأن يكون النجاح حليفه في هذه المرة.

الثأر من الفشل

وقف ياسين بين الكواليس مشدود الأعصاب، وعندما أعلن المذيع عن اسمه اعتلى خشبة المسرح والخوف يعتريه، فاستقبله الجمهور بحرارة، وحين ألقى مونولوغه الأول فوجئ بالتصفيق إلى درجة أبكته، بل إن صديقه ضاهر، بكي أيضاً وصفق طويلاً، وراح الجمهور يطلب من ياسين المزيد واضطر لتقديم مونولوغ آخر، حتى أنه قدم ستة مونولوغات، وحين أسدلت الستارة نزل وهو يبكي ويحمد الله، فالنجاح هذه المرة طعمه مختلف، ووجد وراء الكواليس ضاهر وببا يبكيان أيضاً.

تهلل ضاهر فرحاً وأخذ ياسين بالأحضان قائلاً:

-مبروك يا اسماعِيل، مبروك لقد نجحت نجاحاً رائعاً. نجحت إلى درجة أنك انتقمت لفشلك السابق في حلب. أنت فنان رائع ألم أقل لك هذا الكلام؟

وتدخلت ببا وهي تبكي أيضاً:

-انت رفعت راسنا كلنا يا اسماعيل. أنا مكنتش متصورة إن عندي فناناً في فرقتي بالقيمة دي!

كانت إجابة ياسين البكاء المتواصل ...



إسماعيل يس حكاية رجل حزين الستات ما يعرفوش يكدبوا (الحلقة ١٦)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
الستات ما يعرفوش يكدبوا

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

شعر إسماعيل ياسين في ذلك اليوم بأنه ثأر لنفسه من الفشل الذي لاقاه في السابق من خلال نجاح حفلاته في حلب الذي فاق أي نجاح سبق أن مرّ به، وهو ما جعل الجميع يشعرون بحجم السعادة التي عاشها اسماعيل في ذلك اليوم، فقرر صديقه زكي الضاهر الاحتفاء به على طريقته.

عاد زكي الضاهر إلى بيته ليقيم له حفلة ووعده اسماعيل بتلبية هذه الدعوة بعد الانتهاء من المشاركة في الاستعراض الكبير.

بالفعل ذهب اسماعيل إلى بيت زكي ضاهر بعد انتهاء عمله، غير أنه وجد السواد مخيماً على البيت وسمع أصوات بكاء وعويل... اندهش من هذا الأمر وسأل أول شخص قابله قبل أن يدخل إلى البيت عن سر هذا السواد:

-البقية في حياتك... توفى الأستاذ زكي ضاهر فجأة بالسكتة القلبية.

-إمتى؟

-مفيش من شوية... ده كان لسه راجع وفرحان ومبسوط جدا... منعرفش إيه اللى حصل... يظهر أنه الفرحة كانت زائدة عن اللازم.

نزل الخبر على اسماعيل كالصاعقة وأصابه بحزن عميق ووجد نفسه فجأة منخرطاً في موجة بكاء حادة وهو ينعي ذلك الصديق الذي أعاد إليه الثقة بنفسه، ولم يترك البيت في صباح اليوم التالي إلا بعدما شارك في تشييع جنازة صديقه زكي الضاهر.

كانت صدمة اسماعيل في هذا الصديق الوفي كبيرة، فعلى الرغم من أنه كوّن صداقات كثيرة، إلا أن قلة حفرت مكانة خاصة في قلبه، وكان من بينها زكي الضاهر مع أن اسماعيل لم يلتق به سوى مرتين: الأولى كانت لدى زيارته الأولى لحلب وفعل زكي هذا الموقف النبيل معه، مع العلم أنه لم يكن آنذاك نجماً كبيراً، حتى بمقاييس ذلك الوقت، وكان مجرد فنان ناجح لديه مقومات النجومية، وإن كانت لم تظهر بعد، مع ذلك وقف إلى جانبه وكأنه نجم كبير أو صديق عمر.

الثانية كانت هذه المرة التي زار فيها إسماعيل حلب، فرح زكي من قلبه لنجاحه وكأنه شريك في هذا النجاح، أو هو نجاح لعزيز لديه...

فجأة وبينما كان يستعد للاحتفال به خطفه الموت! ذلك المجهول الذي عاش اسماعيل يخشاه

ويتجنّب سيرته، منذ أن خطف أمه وهو ما زال طفلا، ليذوق بعد رحيلها كل أشكال العذاب، كذلك عندما كان ينزل ضيفاً على هذا الموت بشكل يومي في المقابر بأمر جدته {أليفة} التي لم تكن تحمل أي صفة من اسمها، إذ كانت ترغمه على أن يرافقها إلى هناك!

منذ ذلك التاريخ واسماعيل يكره الموت... ويكره سيرته... وها هو يخطف منه شخصاً أحبه بإخلاص!

سيطرت هذه المشاعر والأحاسيس على قلب اسماعيل، ما جعل الصدمة شديدة عليه، مع ذلك توجه في المساء إلى المسرح وقدم فقرته بالإحساس نفسه وبالمقدرة نفسها، إلا أن الجمهور الذي حضر شعر بمدى المأساة التي يعيشها اسماعيل بفقدان صديقه زكي الضاهر، فقد انتشر الخبر وعرفت حلب بأكملها برحيل هذا الرجل، لهذا ما إن انتهى من فقرته حتى صفّق له الجمهور بحرارة غير عادية، وحين اشترك في الاستعراض الجماعي، استطاع، على الرغم من حزنه الكبير، أن يضحك الناس أكثر من أي يوم آخر بينما كان يبكي في أعماقه!

بعد رحيل زكي ضاهر استمرّ عمل الفرقة في حلب وحصدت نجاحاً كبيراً، ارتدى اسماعيل {الثياب السود} على الرغم من كراهيته لها وأصرّ على الظهور بها طوال الوقت حزناً على صديقه الذي رحل، وكان يقصد أسرته كل يوم بعد انتهاء فقرته للاطمئنان عليها وسؤالها ما إذا كان ينقصها شيء، يدفعه إلى ذلك وفاؤه لذكرى الصديق، إذ لم تكن عائلته في حاجة إلى المال لأنها كانت ميسورة الحال.

الغيرة من النجاح

انتقلت الفرقة بعد ذلك إلى مدينة {دير الزور} السورية ووصلت إليها بعد يوم سفر كامل، ولم يجد أفرادها بعد هذه الرحلة الشاقة سوى فندق صغير فاضطروا إلى النوم مكدسين في غرفة واحدة. لم يستقبل جمهور المدينة عرض الفرقة بالإعجاب في بادئ الأمر، إلى أن ظهرت فرقة اسماعيل ياسين فاستقبله الجمهور بحرارة وقاطعه بالتصفيق أكثر من مرة في المونولوج الواحد.

خرج اسماعيل بهذا النجاح الجديد من المدينة التي زارها للمرة الأولى ما أثار الغيرة في نفوس المحيطين به، لا سيما زملائه في الفرقة بل وصاحبة الفرقة نفسها، فاستغلّ البعض هذا الأمر وعمد إلى إحداث {وقيعة} بينه وبين ببا عز الدين، إذ قد تستغني عنه هذه الأخيرة إذا اقتنع اسماعيل بأنه هو الشخصية الأهم في الفرقة وأظهر نجوميته أمام ببا.

قرر أحد زملائه في الفرقة أن يلعب هذه اللعبة معه، فما إن نزل اسماعيل من خشبة المسرح، والهتافات تدوي في كل ومكان كذلك تصفيق الجمهور، حتى اقترب منه هذا الزميل وهنأه بالطريقة التي يمكن أن تقلب تفكير اسماعيل:

-ألف مبروك يا سمعه... ألف مبروك... والله فرحت لك من قلبي.

-متشكر قوي يا رجب...

-بس شفت بقى جالك كلامي؟!

-مش فاهم تقصد إيه.

لم يدر اسماعيل أو هذا الزميل أن ببا كانت مقبلة عليه لتهنئته، وما إن سمعت الحديث الدائر بينهما حتى وقفت خلف الستار تستمع إليهما:

-أقصد اللي أنت شايفه وسامعه ده... النجاح الهايل اللي أنت عملته... مش زي ببا عز الدين اللي طلعت على المسرح زي ما نزلت... ولا حد حس بيها.

-لا يا أخي متقولش كده.. ببا فنانة كبيرة ولها اسمها برضه.

-يا عم قول يا باسط... ما خلاص راحت عليها... يعني هي هتبقى أحسن من مين.

-أرجوك يا رجب أنا محبش أسمع الكلام ده.

يبدو أن ببا واجهت موقفاً مع جمهور هذه المدينة، قريباً من الموقف الذي واجهه اسماعيل ياسين، وإن لم يكن يماثله، غير أن الجمهور لم يرحّب بها كما يجب، أو قدّرها التقدير الذي تستحقه.

لم ينتبه الزميل الذي تفوّه بهذه الجملة إلى أن ببا كانت واقفة خلفهما وسمعت كل ما قاله، وعندما انتبه لوجودها ارتبك ولم يعرف كيف يبرر أقواله، بل حاول أن يورط اسماعيل معه:

-الحمد لله أهي الست ببا جت... أنا لسه بقول لاسماعيل إن لولا الست ببا مكنتش وصلت للنجاح ده.

لم تعلّق على هذا الكلام وتظاهرت بأن شيئاً لم يحدث، غير أن اسماعيل دهش من هذا المنافق وغضب، عندما لاحظ الرجل ذلك حاول إخراج نفسه من هذا الموقف ثانية:

-بصراحة كده إنتي غطيتي على الكل يا سلطانة... بس اسماعيل كمان يستحق والله النجاح ده.

فرد إسماعيل غاضباً:

-اسمع يا رجب... لا شهادتك ولا شهادتي هي اللي ممكن تدي الست ببا حقها ...ببا عز الدين سواء في مصر أو برّ الشام كله اسمها زي {الطبل} ومفيش داعي للكلام الكتير.

كان لا بد من أن تظهر ببا عدم اكتراثها بهذا الكلام وكأنه لا يعنيها، ولم تزد عن:

-مبروك يا اسماعيل كنت هايل... روح شوف شغلك يا رجب!

ولكن حقيقة الأمر أنها تضايقت من هذه الإهانة الموجهة إليها، فلم تكن تصدق أن أي نجاح لفنان ما يمكن أن يأخذ من نجاحها أو يزيحها عن القمة التي باتت تتربع عليها، لدرجة أنها أصبحت تتخطى بديعة مصابني وشهرتها الذائعة، لذلك لم يكن مستغرباً القرار الذي اتخذته في اليوم التالي، إذ طلبت من الفرقة أن توقف عملها على الفور في هذه المدينة وأن تغادر إلى بيروت من جديد!

مرة أخرى لاقت الفرقة نجاحاً كبيراً في بيروت واستطاعت ببا أن تثبت لنفسها، قبل أن تثبت

لاسماعيل ورجب، أنها ما زالت ببا عز الدين، التي تهتز لها الأجساد قبل القلوب، ما أعاد الثقة بنفسها، وجعلها تقرر العودة بالفرقة إلى سورية، ولكن هذه المرة إلى دمشق.

سوء الحظ

لم تكد الفرقة تحطّ رحالها في دمشق، وقبل بدء أي نشاط، حتى تلقت صاحبتها ببا عز الدين إنذاراً من السلطات السورية، من الأمن العام على وجه التحديد، بعدم السماح لها أو لأي راقصة أو ممثلة في فرقتها بالاختلاط بالجمهور ـ كعادة ذلك الوقت من مجالسات مع الزبائن وتناول الشراب معهم ـ على الرغم من أن هذا التنبيه كان صادماً في بداية وصول الفرقة، إلا أن ببا حاولت أن تلتزم به، غير أنه تعذّر عليها مراقبة الفتيات اللواتي كن يتلقين دعوات سخية من المعجبين، خصوصاً اللبنانيين الذين لحقوا بالفرقة إلى دمشق، باعتبار أن المسافة قصيرة بين بيروت ودمشق، فاضطرت ببا إلى أن تجمع عناصر الفرقة وتخبرهم أوامر السلطات السورية وطلبت من اسماعيل مساعدتها في إفهام بنات الفرقة بضرورة الالتزام بالأوامر. تظاهر الجميع بالاقتناع، ولكن هرعت كل راقصة بعد ذلك إلى صديق كان ينتظرها وما لبثت أن عادت إلى سيرتها الأولى، في مجالسة الزبائن.

مرة جديدة شكا رجال الأمن من راقصات الفرقة وممثلاتها، ولم يسع ببا إلا أن نفذت اقتراحاً قدمه لها اسماعيل ياسين وهو أن يتولى رجال الأمن أنفسهم منع البنات من ذلك!

لم يطبق القرار على نساء الفرقة فحسب، بل على رجالها أيضاً، وبقي الجميع، خارج أوقات العمل، داخل الفندق لا يتحركون منه ويخضعون لمراقبة رجال الأمن المنتشرين في أرجائه، لذا لم يجدوا وسيلة لقتل الوقت إلا بلعب الورق، فيما يقضي اسماعيل وقته بالنوم أو إلقاء النكات وتقديم مشاهد كوميدية ساخرة لزملائه في الفرقة لأنه كان يكره لعب الورق.

مرة جديدة حدثت مفاجأة هزت الفرقة كلها، ففي أحد الأيام بينما الجميع نيام حوالى الثالثة صباحاً، سمعوا طرقاً عنيفاً على باب الفندق، وحين فتح الباب دخل اثنان من رجال البوليس ممسكين بثلاث بنات من أعضاء الفرقة ضُبطن في الخارج بعدما هربن من رقابة رجال البوليس في الفندق، وتبين بعد البحث والتحري أنهن قفزن من النافذة الخلفية على الأرض من ارتفاع مترين، وبررت كل واحدة منهن هربها بأنه كان من شدة الحرارة داخل الغرف وأنهن خرجن لتنشّق الهواء!...

ثارت ببا عز الدين وثار اسماعيل ياسين أكثر وطلب من الأمن اتخاذ التدابير الضرورية في مثل هذه الأحوال:

-سيادتك موجود هنا بتمثل القانون.

-إيه مظبوط.

-خلاص.. أنا بالنيابة عن نفسي وكمان بالنيابة عن الست ببا صاحبة الفرقة بنقولك نفذ الإجراءات اللي بينص عليها القانون في الظروف دي.

-والله نحن كلنا بنقدرك أستاذ اسماعيل وبنقدر الست ببا لكن مو هيك...

-وعلشان هيك أحنا بنقولك خد إجراءاتك.

لكن يبدو أن موقف الفتيات الثلاث لم يضر بهن وحدهن، بل أضر بالجميع، فحين تقرر اتخاذ ما هو ضروري تجاه ما حدث، صدر قرار عن الجهات الأمنية ليس بترحيل الفتيات الثلاث فحسب، بل بترحيل الفرقة كلها من الأراضي السورية!!

تقدير خاص

حاولت ببا عز الدين وزوجها أنطوان عيسى - ابن شقيقة الفنانة بديعة مصابني - يومها مقابلة وزير الداخلية للتوسط لديه لبقاء الفرقة والاكتفاء بترحيل الفتيات، لكن الوزير اعتذر بعدما عرف سبب المقابلة.

حاولت ببا مع زوجها أنطوان واسماعيل ياسين مقابلة أي مسؤول في وزارة الداخلية، وبعد جهود حثيثة نجحوا في لقاء مدير الأمن العام:

-صدقوني أنا بعتذر منكم... لكن ما في حل آخر... لا بد من ترحيل الفرقة بأكملها.

-أحنا بس بنطلب مهلة لحين انتهاء العقد... لأن في التزامات وعقود.

-والله ما في مجال... لكن فيه حل وسط.

وتهلل الجميع:

-ياريت... ألحقنا به.

-نحن من شان خاطر الأستاذ اسماعيل بنمد المهلة بدلا من الترحيل اليوم إلى ٤٨ ساعة. لديكم يومين كاملين بتدبروا حالكم.

-أيوه بس كده خراب بيوت.

-ما باليد حيلة هذه أوامر!

بذكاء فهمت ببا ما لاسماعيل ياسين من تأثير وحب قويين على الجميع في سورية، فكان لا بد من أن تدفع به ربما استطاع هو أن يحل الأزمة، من جديد لجأ اسماعيل ياسين إلى وزير الداخلية، الذي وافق بالفعل هذه المرة على مقابلته ولكن بمفرده:

-أستاذ اسماعيل أنت بتعرف أننا أخوة في الوطن والعروبة، والأخوة المصريين إلهم تقدير ومحبة خاصة، ومن بين الأخوة المصريين أنت لك تقدير ومحبة خاصة من كل الشعب السوري، لكن سامحني هذه قوانين الدولة.

-وإحنا بنقدر ونحترم قوانين الدولة، لكن بس بنطلب ألا يكون العقاب جماعي، لأن زي ما حضرتك بتعرف هناك تعاقدات والتزامات وممكن ينخرب بيوت الناس وأنا أولهم!

-خلاص أستاذ اسماعيل من شان خاطرك... بتستمر الفرقة... شرط أن يتم ترحيل البنات الثلاث فوراً.

ترحيل الفرقة

قبل إسماعيل شروط وزير الداخلية السوري بفرح شديد، ونفذ الشرط بطرد البنات الثلاث وترحيلهن إلى مصر في اليوم نفسه، وتعهدت ببا عز الدين أن تلتزم هذه الشروط:

-بنعتذر منك ست ببا، أنا لا أقبل تعهداتك، أنا بريد تعهد من الأستاذ اسماعيل نفسه.

-وأنا موافق وبتعهد قدام سيادتك إني المسؤول عن أي شيء يصدر من الفرقة من دلوقت ولحين مغادرتها الأراضي السورية.

-هيك معقول... أهلا وسهلا.

وعادت ببا وإسماعيل وأزفا الخبر الجديد للفرقة مع التأكيدعلى شروط رجال الأمن لبقائهم في سورية، وطلبا من الأعضاء الاستعداد لاستئناف العمل، لكن يبدو أن الموضوع لم ينته، ففي اليوم نفسه حدثت مفاجأة لم يتوقعها أحد، فقد سمع علماء الدين ما حدث للفرقة وسارعوا إلى عقد اجتماع وطلبوا فيه من وزير الداخلية أن يلغي قرار التصريح للفرقة بالعمل!

بالفعل تم سحب الموافقة واقترح اسماعيل ياسين أن تذهب الفرقة إلى حلب، رُفض الاقتراح وطلب المسؤولون أن تغادر الفرقة سورية كلها!

نزل الأمر كالصاعقة على ببا عز الدين، وما إن نظرت إلى اسماعيل حتى راح يؤكد لها أنه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً، لأن الأزمة أكبر مما بدت، ما زاد الأمر تعقيداً أن سيدات المجتمع - كان أزواجهن ضيوفاً دائمين على فرقة ببا - أرسلن نداءات يطلبن فيها طرد الفرقة من البلد حماية للأخلاق العامة !ولم يكن أمام هذه الأخيرة إلا العودة مرة أخرى إلى بيروت.

في بيروت بدأ اسماعيل ياسين يعيد حساباته مع الفرقة، وحزم أمره على ألا يعمل معها مرة أخرى، لأنه وجد بالفعل أن العاملات فيها لا تربطهن بالفن أي رابطة وهن غير موهوبات، إنما اتخذن الفن ستاراً لممارسة أعمال منافية للآداب والأخلاق.

مع ذلك أرجأ كل شيء بانتظار عودة الفرقة إلى القاهرة حتى لا يقال إن اسماعيل ياسين قطع رزقها خصوصاً أنها اعتمدت عليه.

وعملت الفرقة من جديد في بيروت ثم سافرت إلى القدس ومنها إلى حيفا ثم يافا ثم غزة حيث أحيت الحفلات، وفي كل مدينة من مدن الشام التي زارتها، كان اسماعيل ياسين الأهم والأبرز، ولم يمر يوم إلا وأضاف نجاحاً جديداً... قبل العودة إلى القاهرة.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين أحبّ الغلط الحلقة(17)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
أحبّ الغلط...

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

مع مطلع الأربعينيات أصبح إسماعيل ياسين معروفاً ومشهوراً، خلال عمله في الفرق المختلفة، سواء في القاهرة أو الإسكندرية، أو حتى في بر الشام كله.

مرّت الأيام وهو ينتقل من مسرح إلى آخر، ولا يكاد يترك مسرحاً حتى يعمل في اليوم التالي في آخر، فقد بات مطلوباً ومحبوباً ومعروفاً تماماً لدى كل المشاهدين وكان يشعر في ذلك الوقت تحديداً بأنه بدأ يصعد درجة أو أكثر على سلّم الفن.

آنذاك كان ثمة الكثير من الفرق المنتشرة ذائعة الصيت، من بينها فرقة ببا عز الدين، وكانت تعمل في كازينو الكوبري الإنكليزي، وكان ثمة أيضاً كازينو البسفور في باب الحرية، ومسرح الماجيستك، وكازينو بديعة مصابني، وكازينو عز الدين 'فرقة ماري عز الدين' بالإضافة إلى تياترو نجيب الريحاني، فرقة رمسيس، وفرقة علي الكسار في روض الفرج وكازينو 'مونت كارلو' في الإسكندرية.

في تلك الفترة لم يتوقف إسماعيل عن العمل والتنقل بين الفرق المختلفة حيث صادفه النجاح وأصبح مطلوباً في السينما وتشير إليه إعلانات الفرقة في الصحف والمجلات وقد سبق اسمه تعريف بأنه 'المونولوجيست المحبوب.'

وشاءت الصدفة أن يكون موعد عودة فرقة ببا عز الدين من بيروت إلى القاهرة في اليوم الذي أعلنت فيه بديعة مصابني عن افتتاح صالة 'كازينو أوبرا' الذي أنشأته على بعد خطوات من دار الأوبرا المصرية التي بناها الخديو إسماعيل.

وما كادت بديعة تعلم بعودة إسماعيل من بيروت حتى أرسلت تستدعيه ليكون ضمن برنامجها الجديد فحاول الاعتذار بحجة أن غالبية الزبائن ستكون من جنود الاحتلال الإنكليزي وهم لا يفهمون كلمة مما يقوله، ولكنها أقنعته بالعمل وأن عليه أن يلقي مونولوجاته فهمها الناس أم لم يفهموها ويتقاضى أجره ولا يعترض على شيء.

وفضلاً عن الكراهية التي يكنّها إسماعيل لجنود الاحتلال، ثمة عداء قديم بينه وبينهم منذ كان طفلاً وهو يراهم يرتعون ويعيثون في الأرض فساداً في مدينته السويس. كذلك لم ينسَ ذلك اليوم الذي كادت فيه جدته أن تتركه لهم عندما قبضوا عليها أثناء عودتها من المقابر، فهو يخشى من التعامل معهم وهم في كامل وعيهم، فكيف سيتعامل معهم وهم سكارى؟!

في يوم افتتاح كازينو بديعة الجديد، وفيما كان الجميع يستعدّون لحدث ضخم يتحدث عنه القاصي والداني، أطلقت غارة جوية عنيفة من غارات الحرب العالمية الثانية على مقربة من القاهرة، تعلن عن قرب وصول الألمان، واستمرت أربع ساعات متواصلة، أطفئت خلالها أنوار القاهرة كلها، بما فيها طبعاً الكازينوهات والمسارح ودور العرض السينمائي.

ولأن إسماعيل كان لا يزال يسيطر عليه المثل الشعبي القائل: 'اللي يخاف من العفريت يطلع له' فقد تصادف بدء الغارة مع خروجه إلى المسرح ليغني.

وإذا كان لهذه الغارة أثر في نفوس المصريين جميعاً، إلا أن وقعها كان مختلفاً على بديعة وإسماعيل، وللمرة الأولى تشعر هذه الأخيرة بتشاؤم من إسماعيل وكأنه هو الذي تسبّب في الغارة، خصوصا أن العرض توقف حتى بعد انتهاء الغارة، فقد لزم الناس بيوتهم والمخابئ خوفاً من أن تعود الغارة، وحتى الجمهور الذي يخشى إسماعيل وجوده، جنود الاحتلال، لم يعد له وجود في هذا اليوم، بسبب انشغاله بالغارات والحرب، فأغلق 'تياترو' بديعة أبوابه في اليوم الأول لافتتاحه.

زجاجة طائشة

في اليوم التالي كانت الأمور أهدأ حالاً، ولا تبدو في الأجواء مؤشرات لحدوث غارات، بدليل وجود عدد كبير من الجنود في الصالة، ومع ذلك بات تشاؤم بديعة من إسماعيل أكبر. سارت الأمور على خير ما يرام في بداية فقرات الفرقة، وصعد إلى المسرح أكثر من مطرب وراقصة ومونولوجيست، ولكن ما إن حان موعد ظهور إسماعيل على المسرح حتى كان الخمر فعل فعله في رؤوس جنود الاحتلال، فلم يكد ينتهي من إلقاء أول مونولوج له حتى قذفه أحد السكارى من الجنود بزجاجة 'بيرة' فارغة تعبيراً عن مدى إعجابه به، فأصابته في رأسه بقوة لدرجة أنها كادت تقضي عليه، فسقط مغشياً عليه والدماء تسيل من رأسه. أقفل الستار وبدأت

الفوضى في التياترو وتعالى الصراخ والصياح، وخرجت بديعة بنفسها لتنقذ الموقف فكان نصيبها أوفر من إسماعيل فقد انهالت عليها زجاجات البيرة واضطرت الى الاختباء خلف ستائر الكواليس، وجرت مضطربة حتى سقطت على الأرض ومعها بعض الفارين من الزجاجات التي تطير في الهواء هنا وهنا. وما إن هدأت الغارة الخاصة بـ'كازينو بديعة' فحسب، حتى اكتشفت بديعة أن 'البروش 'الألماس، الذي يقدر ثمنه بآلاف الجنيهات والذي اشترته خصيصاً للافتتاح، سقط من صدرها، في الوقت الذي كان إسماعيل يُنقل فيه إلى المستشفى، والذي ظل فيه ما يقارب العشرة أيام يعاني من الجرح في رأسه، فضلاً عن حالة الارتجاج في المخ التي سبّبتها له الزجاجة.

خلال العشرة أيام هذه كان زار إسماعيل وسأل عليه زملاؤه كلهم في الفرقة، وكثيرون غيرهم من خارجها إلا بديعة مصابني.

والواقع أنها كانت وصلت إلى ذروة تشاؤمها من حالة إسماعيل، لذلك لم تسأل عنه، بل خشيت إن هي ذهبت إليه، أن يصيبها مكروه في الطريق.

ومن دون أن يعرف أسباب عدم زيارتها له أو السؤال عنه، قرر إسماعيل مقاطعة بديعة وعدم العمل معها أبداً بعد ذلك اليوم، وثار أكثر عندما زاره زميل من زملائه وأبلغه بما قالته بديعة:

-تتصور أنها ما فكرتش تزورني ولا حتى تسأل أو تبعت بوكيه ورد؟!

تتصور أنها ما فكرتش تزورني ولا حتى تسأل أو تبعت بوكيه ورد؟!
-أنا محرج منك ومش عايز أقول اللي هي قالته.

-لا قول أنا خلاص مبقاش يفرق معايا.

-بصراحة بتقول إن شكلك...

-شكلي... مالو شكلي؟

-مش قصدي يعني لكن بتقول إن 'بُقك' هو اللي بيخلي عساكر الإنكليز يثوروا لما بيشوفوه وبيعملوا الشغب اللي بيحصل.

-يا سلام 'بُقي' هو السبب في اللي بيحصل. علشان كده مجتش ولا مرة تزورني.

-ما هي بصراحة عملت كده علشان انت متفكرش ترجع تشتغل عندها تاني.

-ومين قال أصلاً إني ممكن أرجع لها؟ أنا ألف مكان يتمنى أشتغل فيه. إذا كانت هي لسه فاكره أنها بديعة مصابني أنا بقيت إسماعيل ياسين.

فرقة علي الكسار

في اليوم نفسه الذي تقرّر له أن يغادر فيه المستشفى، تلقى إسماعيل خبراً من زميله القديم حسين المليجي يدعوه فيه الى العمل معه في 'كازينو' افتتحه في روض الفرج، المنطقة التي

أصبحت منافساً قوياً لشارع عماد الدين، وانتشرت فيها الفرق والمسارح والكازينوهات، وكانت المنافسة آنذاك بين فرقة' المليجي' وفرقة 'علي الكسار.'

عمل إسماعيل مع فرقة 'حسين المليجي' وحقّق معها نجاحاً كبيراً مستقطباً جمهوراً واسعاً، استشعره صاحب الفرقة المجاورة 'علي الكسار' الذي كان آنذاك اسماً كبيراً، ومنافساً قوياً ليس لفرقة المليجي فحسب، بل لفرقة نجيب الريحاني نفسه، الذي كان في ذلك الوقت نجماً كبيراً في سماء المسرح والسينما، وكان الكسار سبقه إليهما، غير أن نجومية الريحاني أصبحت تفوق نجومية الكسار، ذلك لأن الأخير اعتمد منذ بدايته وحتى النهاية على شخصية واحدة كان يظهر بها على خشبة المسرح، وانتقلت معه الى السينما، وهي شخصية' بربري مصر الوحيد عثمان عبد الباسط'، كذلك الحال كانت بالنسبة الى الريحاني الذي اعتمد أيضاً على شخصية 'كشكش بك' في بدايته، لكن الفارق بينهما أن الأخير كان يجيد قراءة المجتمع من حوله والتغيرات والتحولات التي كانت تشهدها تلك الفترة من صعود وهبوط، ومن خلال قراءاته تلك استطاع تطوير نفسه، وتقديم الفن الذي تنتظره الطبقة الأعم والأشمل، وهي الطبقة المتوسطة، فاتجه إلى تقديم نماذج منها في أشكال: الموظف المطحون، والمواطن الفقير البسيط الذي يستطيع التفوّق على أولاد الباشاوات والطبقة الأرستقراطية، بعلمه وثقافته وشرفه وكرامته، في الوقت الذي توقف فيه الكسار عند شخصيته الوحيدة، الأمر الذي خلق لديه حساسية من أي نجاح جديد، وهو ما جعله يتردد خلسة إلى كازينو حسين المليجي ليشاهد هذا الفنان الجديد الذي أصبح اسمه على كل لسان.

في الوقت ذاته كان إسماعيل يزور مسرح الكسار كثيراً، ليس للسبب نفسه، ولكن لمشاهدة الجديد الذي يقدمه الكسار وأعضاء فرقته، خصوصاً عندما علم أن ثمة' مونولوجيست' جديداً بدأ اسمه يلمع في تلك الفرقة اسمه 'محمود شكوكو.'

ولد محمود إبراهيم إسماعيل موسى، الذي اشتهر في ما بعد باسم 'شكوكو'، في العام نفسه الذي وُلد فيه إسماعيل ياسين (١٩١٢)، غير أنه نشأ في قلب القاهرة، وتحديداً في حي 'الدرب الأحمر'، ثم عمل في بداية حياته مع والده الذي كان يعمل نجاراً غير أن الغناء كان يجري في عروقه، فاستطاع أن يفرض نفسه على الوسط الفني ويصبح مونولوجيس مشهوراً، وهو ما جعل الكسار يعتمد عليه لتقديم المونولوجات في الفواصل بين أعماله المسرحية، والذي كان يشارك فيها أيضاً.

شاهد إسماعيل 'شكوكو' وأعجب به، لدرجة أنه حرص على أن يتعرف إليه، فراح يبدي له إعجابه به، مؤكداً أنه يتوقع له مستقبلاً باهراً في فن المونولوج والغناء الشعبي، وقد أصبحا منذ ذلك الوقت من أحب وأقرب الأصدقاء الى بعضهما، بل إن الكسار أوعز إلى شكوكو أن يقنع إسماعيل بالعمل معه في 'فرقة الكسار'، وبعد إلحاح طويل من شكوكو وافق إسماعيل، ليعلنا معاً عن إعادة ميلاد جديد لفرقة علي الكسار في روض الفرج.

العودة إلى السينما

اعتقد إسماعيل أن السينما نسيته بعد أن شارك في أول أدواره فيها، من خلال فيلم 'فؤاد الجزايرلي'، وأنها كانت تجربة ومرت لم يشعر بها أحد، وفيما هو يفكر في طريقة يعود بها، فوجئ بأن المخرج السينمائي حسين فوزي أرسل في طلبه، وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة حين فكر إسماعيل في البحث عن طريقة للعودة إلى السينما، فما إن دخل على فوزي حتى استقبله بترحاب كبير وكأن ثمة سابق معرفة كبيرة بينهما:

-شوف يا سيدي أنا بعمل فيلم اسمه 'أحب الغلط.'

شوف يا سيدي أنا بعمل فيلم اسمه 'أحب الغلط.'
-أهو ده اللي محبوش.

ضحك حسين فوزي وقال له:

-وإن شاء الله مفيش غلط. لكن أنا عايزك تعمل دور في الفيلم. صحيح هو دور صغير بس...

وقبل أن يكمل جملته قاطعه إسماعيل:

-عارف وبكره الصغير يكبر إن شاء الله.

-الله... ما انت فاهم اهه.

رحب إسماعيل بذلك الدور الذي سيتيح له الوقوف أمام نجمين سينمائيين كبيرين هما تحية كاريوكا وحسين صدقي، بل وسيعفيه من العمل في الملاهي.

وما كان عليه إلا إثبات وجوده في السينما، ولكن أين السينما لكي يثبت وجوده فيها؟ فقد كانت الوافد الجديد على الساحة، ولم تعرف مصر من وسائل اللهو سوى 'يوم المقابلة' للسيدات في البيوت أو جلسات المعلمين والتجار الخاصة، ثم انتقلت إلى 'الصالات والكازينوهات' وشجّعت على ذلك 'فلوس الحرب' وطبقة الأثرياء الجدد ومئات الألوف من العمال الذين وفدوا إلى المصانع الجديدة، وظروف الحرب، وخدماتها التي تحتاج إلى أيد عاملة رخيصة.

كانت السهرات في 'الصالات' مكلفة، فضلاً عن سمعتها 'السيئة' وعجز أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة عن السهر بسبب عملها في الصباح الباكر.

جاءت السينما فجذبت الكثيرين من سكان القاهرة وكانت وسيلة غير مكلفة، فنقلت المشاهد إلى دنيا جديدة وعوالم مختلفة، ووضعت بين يديه فرصة تحقيق أحلامه على الشاشة، من خلال الأدوار التي يجسدها البطل بدلاً عنه، لذا كان لا بد من أن تجذب الأسماء المشهورة في عالم الفن والتي يسمع الجمهور بها تتردد في الصحف أو الإذاعة أو الأسطوانات.

بعد أكثر من عام على عرض 'أحب الغلط'، لم يكن مصطفى يعتمد في ما يقدمه من أفلام على لون واحد، فقد كان يحرص على التنوع، ما بين البدوي والمغامرات والكوميدي، وغيره، وهو ما جعله لا يستقر على أبطال بعينهم، وعندما أراد في العام ١٩٤١ تقديم فيلم كوميدي بعنوان 'مصنع الزوجات'، تذكر فوراً ذلك الممثل الجديد المشهور بإلقاء المونولوجات، إسماعيل ياسين، فقرر الاستعانة به ولو في دور صغير، المهم أن يظهر هذا الممثل معه في الفيلم، وفعلاً ظهر اسماعيل في دور صغير لا يستغرق سوى ثلاث دقائق على الشاشة يجسد فيه دور' رجل سكير'، لكنه استطاع أن يخلق مساحة جديدة تعلن عن وجوده في السينما.

إعادة اكتشاف

هذه المساحة القصيرة على شاشة السينما في فيلم 'مصنع الزوجات' وقبلها في فيلمي 'خلف الحبايب' و'أحب الغلط'، جعلت المخرج توجو مزراحي يدرك مدى موهبة إسماعيل وتقبّل الجمهور له في دور العرض السينمائي. إحساس المخرج لدى مزراحي جعله يستشعر فوراً أن إسماعيل كان خلال هذه الأفلام الثلاثة، مبعث الابتسامة بل والضحكات العالية، إذ كان أخف دماً ممّن حوله من عتاة الممثلين، حتى لو كان الفيلم ميلودراما ساخنة تُبكي الجمهور، فضلاً عن أنه يتحرك بتلقائية وخفة أمام الكاميرا. والأهم من هذا كله أنه مهما كان دور إسماعيل، فإن الجمهور يخرج من دار العرض متذكراً ذلك الممثل ذا الفم الكبير الذي كان مبعث السعادة والبهجة في الفيلم.

وجاءت الانعطافة الحقيقية عندما تبناه علي الكسار أثناء عمله معه في فرقته المسرحية، لدرجة أنه طلب من مزراحي أن يمثّل اسماعيل في فيلمه الجديد 'علي بابا والأربعين حرامي' في العام ١٩٤٢.

رحّب مزراحي في داخله بهذا الاقتراح المهم الذي عرضه عليه الكسار، ولكنه راح في وجود إسماعيل يتمنع وكأنه رافض مشاركته في الفيلم، لكنه رضخ بناء على طلب الكسار، مؤكداً لإسماعيل أنه موافق ولكن بشرط:

-شرط إيه أستاذ أنا تحت أمرك.

-بشرط انك تشوفلك حل وتغير شويه من نفسك.

-أغير من نفسي أزاي. أربي شنبي؟ ولا عايزني أربي نفسي علشان أرضيك؟

-يا أخي لا. شوف لك حل في 'بُقك' ده.

-أعمله إيه أقطع لك منه حتة؟!

-معرفش أصله بصراحة كبير قوي وممكن يملا الشاشة.

-عموماً يا أستاذ أنا كان يشرفني إني اشتغل معاك انت والأستاذ علي الكسار. لكن مفيش نصيب..

وهنا تدخّل الكسار فوراً:

--الله الله ينكد عليك وعلى عمرك. انت صدقت؟ الراجل بيضحك معاك. انت معانا في الفيلم مفيش كلام.

فشكره إسماعيل على ثقته فيه ثم سأله:

-وامتى هنبدأ التصوير.

وامتى هنبدأ التصوير.
وكان جواب مزراحي:

-يا أستاذ إحنا بدأنا التصوير فعلا. جهز نفسك هتدخل الأستوديو دلوقت. سلم نفسك للماكيير علشان يعملك الماكياج.

بدأ إسماعيل يشعر بخطورة الموقف فهذه هي أول فرصة حقيقية أمام الكاميرا ومن خلال فيلم تاريخي، ومن المستبعد أن يكون كوميديا كما يحب أن يكون، وإذا حدث وفشل فلن يعرف طريقه إلى الاستوديوهات بعدئذ.

ومع ذلك استجمع شجاعته، وجلس بين يدي الماكيير وإلى جانبه مساعد المخرج، يحفظه دوره وتحركاته أمام الكاميرا والإشارات التي يجب أن يقوم بها مع الحوار.

وما كاد مزراحي يشير إلى بدء التصوير حتى شعر إسماعيل بأن شيئاً ما في داخله يمنعه من النطق، بل شعر ببرودة شديدة تسري في جسده.





شكوكو



الكسار

إسماعيل يس حكاية رجل حزين تحيا الستّات (الحلقة18)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
تحيا الستّات...

القاهرة - ماهر زهدي

شعر إسماعيل ياسين أنه يمثل للمرة الأولى، وأنه نسي كل شيء، وخشي أن يلاحظ المخرج ذلك، لكن من حسن حظه أن المخرج توجو مزراحي اكتشف في الوقت نفسه خطأ في الديكور فأوقف التصوير وطلب إصلاح الخطأ بعد أن ثار ثورة عنيفة على مهندس الديكور.

استغرق الموضوع ما يقرب من ١٠ دقائق تغلّب إسماعيل خلالها على خوفه ونسي كل شيء إلا المشهد الذي سيمثله، واندمج تماماً فيه، وغاب عن كل ما حوله، وأفاق على صوت توجو مزراحي مهللاً:

-برافو يا اسماعيل برافو.

كانت هذه الكلمة فاتحة خير عليه، وشهادة دخوله بشكل جديد إلى عالم السينما، فقد استدعاه مزراحي بعد انتهائه من تصوير مشاهده ذاك اليوم إلى مكتبه لتهنئته والتعاقد معه بأجر قدره ١٥ جنيهاً، على فيلم جديد بعد أن تقاضى ١٢ جنيهاً على مشاركته في {علي بابا والأربعين حرامي}، وطفرت الدموع من عيني ياسين وهو يأخذ الشيك، وتوجه في اليوم التالي مباشرة وصرفه ليشتري بدلة} سموكنغ} من آخر طراز، وظل يحتفظ بها، حتى بعد أن أصبح يملك مثلها العشرات!

كان {علي بابا والأربعين حرامي} بداية ظهور ياسين الحقيقي والقوي على شاشة السينما، فقد حرص مزراحي على توظيف قدرات ياسين في الفيلم، إلى درجة أنه كتب دوره بنفسه، وجعله مرافقاً للفنان علي الكسار في المشاهد التي يظهر فيها، فغنى ياسين ورقص وأدى حركات أصبحت في ما بعد إحدى سماته مثل {الرقص بنصف وسطه الأعلى مع رفع يديه}، كذلك تنبه إلى موضوع كبر فمه، فقرر أن يجعله مادة للسخرية في أعماله، بداية من هذا الفيلم، ليكون أيضاً من} لوازمه} التي يحرص على أن يُذكر بها الآخرين قبل أن يذكروه هم بها.

استغرق تصوير دوره في {علي بابا والأربعين حرامي} أسبوعاً، لكنه ما كاد ينتهي حتى بدأ تصوير {تحيا الستات}، وقبل ياسين العمل فيه على رغم أنه بدأ يخاف من عصبية مزراحي الشديدة، ولحسن الحظ لم يكن المخرج المشهور عصبياً إطلاقاً معه، لأنه أحبه كممثل، بل كان لا يتمالك نفسه من الضحك حين يراه يمثل أحد المشاهد، لذلك لم يسمع ياسين {شتيمة} منه أبداً على رغم أنه كان} يشتم} الجميع وحين كان يخطئ، كان مزراحي يفجر عصبيته بشتم نفسه فيقول:

-أنا مغفل... أنا حمار أنا مش ممكن أفهم حاجة أبدا!

كان ياسين يعرف أن هذا الكلام موجه إليه فيتأثر منه، بل كان يبكي أحياناً، وكان لا بد من أن يبدأ تصوير {تحيا الستات} وشارك معه في الفيلم كل من مديحة يسري وليلى فوزي وأنور وجدي وحسن فايق وبشارة واكيم.

مطاردة غرامية

آنذاك كان ياسين لا يزال جديداً في عالم السينما، ولا تزال صداقاته مع أهلها جديدة، ويجهل

الكثير من أسرار الفن، ما جعله يتعرض إلى {مشاكسات {قاسية من بعض الزملاء، لعل أقساها ما حدث من وجدي عندما كانوا يصورون {تحيا الستات}، وكان ذات يوم يعمل معه في الأستوديو حين قال له:

-روح للأستاذ حسن فايق وقله إن {ابن بنته} ينتظره بره الأستوديو وإنه عاوز يروح الجهادية!

ذهب ياسين إلى غرفة فايق وقال له بمنتهى حسن النية:

-يا أستاذ.. {ابن بنتك} مستنيك بره وبيقولك هو عاوز يروح الجهادية.

ووجد ياسين فايق يثور في وجهه ويغضب ويطرده من الغرفة: اطلع بره يا...

راح فايق يصرخ مراراً ويوبخ ياسين أمام إحدى بنات الكورس التي كانت في غرفته. حاول النجم الجديد الدفاع عن نفسه، وتأزمت الأمور وكاد فايق أن يضربه، وهرع وجدي لإنقاذ الموقف أو ياسين من المقلب الذي دبره له، فقد كان يستلطف الفتاة التي كانت تجلس مع فايق في غرفته، التي تعمل كومبارس، وطلب من ياسين أن يقول لحسن ذلك الكلام كي يظهره أمامها رجلاً عجوزاً وأن {ابن ابنته} أصبح في سن التجنيد!

شارك ياسين أيضاً في {الطريق المستقيم} مع يوسف وهبي وفاطمة رشدي وأمينة رزق. آنذاك كان منير مراد الملحن، وشقيق الفنانة ليلى مراد يعمل كمساعد للمخرج مزراحي، وقد أصبح صديقاً لياسين بحكم العمل، وكان شارك في أكثر من فيلم حين تعاقد معه المخرج على تصوير {الطريق المستقيم} وقال منير لياسين:

-إيه ده... دورك في {الطريق المستقيم} صغير جداً. بعد ما تعمل أدوار كبيرة ومهمة في كذا فيلم قبل كده. تاخد الدور الصغير ده؟

-أعمل إيه ما انت عارف الأستاذ توجو.

-يا سيدي الأستاذ توجو مش بعبع... قوله إن الدور صغير يمكن يكبره شويه.

-إنت شايف كده؟

-مفيش غير كده.

استجمع ياسين شجاعته، وذهب إلى مزراحي وحاول الاعتذار له عن الفيلم لأن الدور صغير ولا يليق به بعد أن شارك في بطولة فيلمين، أو أن يعمل على أن يكون الدور أطول، فرد عليه:

-اسمع يا إسماعيل مش مهم في السينما أبداً أن يكون الدور قصير أو طويل، المهم إنه يكون دور كويس، وأنا بقولك إن ده واحد من الأدوار الكويسة جداً، وأنا واثق من إنك ستنجح فيه وإنك ستثبت من جديد إنك فنان كبير وموهوب.

أدى ياسين الدور وكان لشخصية رجل سكي، ونجح فيه كثيراً، وحين أداه صفق له كل من كان

يعمل في الأستوديو.

صديق العمر

كان ياسين يُقدم في الأفلام التي شارك فيها قبل {على بابا والأربعين حرامي {باعتباره مؤدياً للمونولوج، إضافة إلى التمثيل، واستطاع خلال فترة وجيزة مواصلة نجاحه، ما دعم مكانته وأضاف إلى رصيده في سوق {الصالات}. لكن تقديمه بصورة جديدة وجيدة في فيلم مزراحي لفت الأنظار إليه كممثل له حضوره القوي على الشاشة، ما جعله مطلوباً في أكثر من مسرح وأكثر من صالة وملهى ليلي، والأهم من ذلك من وجهة نظره، أنه أصبح مطلوباً في السينما، التي قد تغنيه عن {البهدلة} في الصالات والكباريهات!

استطاع ياسين تثبيت قدميه كممثل من خلال {علي بابا والأربعين حرامي}، الذي لاقى نجاحاً منقطع النظير عند عرضه، وكان ظهوره فيه بمثابة الهدية التي قدمها مزراحي إلى جمهور السينما آنذاك، ما جعل ياسين يعيش نشوة غير عادية بهذا النجاح غير المتوقع، في السينما وإلى جوار أحد أهم نجوم ذلك الزمان علي الكسار.

لكن أهم ما خرج به ياسين من الفيلم، إضافة إلى النجاح، اقتناع المخرج به إلى حد كبير، فضلاً عن نشوء صداقة كبيرة بينهما، وصداقات كونها النجم الصاعد مع بقية أبطال الفيلم، سواء المطرب محمد عبد المطلب، الذي كان ينافسه في الغناء بالفيلم، أو الفنانة الجميلة ليلى فوزي، والأهم من ذلك كله ما اكتشفه من حب وموهبة حقيقية داخل فنان يبدو قاسي الملامح، لكنه طيب القلب، يدعى رياض القصبجي، الذي كان يكبر ياسين بتسع سنوات، وكان عاشقا للتمثيل، غير أن أسباباً عدة كانت وراء تأخره كثيراً، وهذا ما سأله عنه ياسين، وراح يناديه بـ {عم رياض} على رغم أن فارق السن بينهما ليس كبيراً:

-إلا قوللي يا عم رياض... لما انت فنان هايل كده، كنت مختفي فين الفترة اللي فاتت؟

-أبدا موجود بس كل شيء نصيب.

-لا... أقصد ليه مبتشتغلش كتير؟

-النصيب، وبعدين بيني وبينك يمكن يكون العيب من عندي أنا.

-إزاي مش فاهم انت اللي بترفض الشغل.

-لا مش كده. أنا أصلاً موظف.

-أيوه موظف فين يعني؟

-أنا بشتغل كمساري في السكة الحديد. خلاص ارتحت.

-ودي حاجة مزعلاك كده. طب ده انت حظك حلو. موظف محترم والدولة مقدراك .أمال بقى لو كنت دقت الجوع والتشرد ونمت على الرصيف كنت عملت إيه؟!

-تقصد تقول إنك...

-أيوه. محسوبك هو كل اللي أنا قلت عليه دلوقت.

-والله براوة (برافو) عليك يا سمعه.

-سيبك مني أنا وقولي. انت لسه في الوظيفة؟

-ما هو زي ما انت عارف الفن مبيأكلش عيش، وكمان أنا عضو في فرقة السكة الحديد المسرحية، وكمان عضو في أكتر من فرقة، آخرها فرقة {أحمد الشامي {يمكن تسمع عنه، وبعدين بشارك في أدوار كده في السيما زي ما أنت شايف.

-أيوه... أيوه.

-بس يا سيدي آدي كل حكايتي.

بعد كل ما سمعه ياسين من القصبجي، قرر أنه ما إن تتاح أمامه الفرصة في السينما، لن يتخلى عن هذا الرجل في أي فيلم يقدمه، لما يتمتع به من موهبة فطرية رائعة.

مكتشف النجوم

كان ياسين يظن أن اقتناع مزراحي به، سيجعله يستعين به في كل عمل، خصوصاً أن مزراحي كان بدأ ينتشر كمخرج، بعد أن مر بمراحل العمل السينمائي كافة، من كتابة وإخراج وإنتاج ومونتاج، وخاض تجربة التمثيل مرة واحدة، وأصبح أحد أهم مخرجي السينما المصرية آنذاك، وكانت إحدى بطلاته المفضلات فتاة نحيلة القوام جميلة الملامح تدين مثله بالديانة اليهودية، هي المطربة ليلى مراد، ابنة المطرب زكي مراد، وما إن لمعت إلى جانب المطرب محمد عبد الوهاب في} يحيا الحب} عام ١٩٣٩، حتى التقطها المخرج فوراً، وأعاد اكتشافها وقدّم لها سلسلة أفلام على التوالي.

أعطاها الفرصة في عام ١٩٤٠ في ثاني أفلامها {ليلة ممطرة} لتقاسم البطولة مع عملاق المسرح آنذاك يوسف وهبي، ثم جاء الفيلم التالي ليكون أول عمل يحمل اسمها {ليلى بنت مدارس}، ثم {ليلى بنت الريف} الذي كان أول تعارف بينها وأنور وجدي، وفي عام ١٩٤٢ قدمها في {ليلى} المقتبس عن غادة الكاميليا، وعرض الفيلم على مدى ١٦ أسبوعاً ونجح بشدة.

لا شك في أن مزراحي كان يفكر في استغلال نجاح بطلته في مجال الغناء، فكانت ليلىتظهر في أفلامه باسم {ليلى}، ما لفت نظر ياسين إلى أن يكون اسم الفنان عنوان الفيلم، واستوقفه الموضوع طويلاً إلى درجة أنه أنساه عدم استعانة مزراحي به، لكن صدى النجاح الذي حققه في السينما انعكس سريعاً على المسرح وعلى عمله كمونولوجيست.

جعله هذا النجاح على قائمة المدعوين التي تضم المطرب صالح عبد الحي، وفرقة بديعة مصابني، لإحياء حفلة {مبرة محمد علي} في سراي سمو الأميرة {شويكار {زوجة الملك الراحل فؤاد السابقة، وكتبت مجلة {الصباح} تشيد بهذا الفنان الذي يلمع اسمه يوماً تلو آخر،

فقد أحسن في تقديم نفسه أكثر مما أجاد في مونولوغاته التي تحتاج بشكل ظاهر إلى تقوية روح الفكاهة فيها!

بقدر ما أسعد هذا الكلام ياسين أحزنه، فهل أصبحت مونولوغاته في حاجة إلى مراجعة. لاحظ ياسين هذا الأمر فعلاً، إلى درجة أن مساحة وجوده على خشبة المسرح تقلصت، فيما كانت تتاح المساحة لغيره، وكتبت المجلة مجدداً تنتقد ما يفعله ياسين في عددها الصادر في مايو (أيار) عام ١٩٤٣ وبعنوان {من هنا وهناك} أن المونولوجيست إسماعيل ياسين يشكو زملاءه وزميلاته من أن الوقت المخصص لإلقاء مونولوغاته أقل كثيراً من الوقت المخصص للراقصات الناشئات اللائي يعملن معه... وأن زميلاً له كتب للمجلة أن إدارة الصالة التي يعمل فيها معذورة في ذلك لأن ياسين لا يجدد في مونولوغاته، وأنها تسمح له بوقت أطول عندما يقدم مونولوغاً جديداً، أو أن يطلب الجمهور منه الإعادة!

العودة إلى الكسار

ترك ياسين الفرقة التي يعمل فيها وقرر التركيز مجدداً في المونولوغ لتفتح السينما له أبوابها مجدداً، وراح يتنقل بين مختلف الفرق، وحتى تلك الجوالة المختلفة التي تجوب أنحاء مصر في الوجهين القبلي والبحري. إذ عمل تارة مع فرقة محمد عبد المطلب، وتارة أخرى مع فرقة محمد الكحلاوين وأخرى عاد فيها إلى فرقة {علي الكسار} التي اعتبرها فاتحة خير عليه لأنها قدمته الى مزراحي.

لم يمر وقت طويل حتى طلبه مزراحي للعمل معه في فيلم جديد يجمع بينه وعلي الكسار بعنوان {نور الدين والبحارة الثلاثة} ويشاركهما هذه المرة المطرب إبراهيم حمودة، وكانت المفاجأة التي أسعدت ياسين أيضاً أنه وجد معه في الفيلم ذلك الفنان طيب القلب قاسي الملامح رياض القصبجي.

نجح الفيلم نجاحاً كبيراً جعل علي الكسار يعرض على ياسين مشاركته في الفرق الاستعراضية المسرحية التي كانت تقدم مسرحية جديدة على أحد مسارح روض الفرج:

-اسمع يا إسماعيل. أنا عايزك تشتغل معايا.

-سلامتك يا أستاذ علي. أمال أنا بشتغل مع مين. مش برضه دي فرقة علي الكسار.

-يا أخي أنا فاهم. انت فاكرني مسطول. أنا عايزك تدخل شريك معايا في الفرقة.

-إيه؟! بتقول إيه؟

-زي ما سمعت كده. بعرض عليك تدخل معايا شريك في المسرحية دي. وأي شغل تعمله الفرقة.

-أيوه، ده شرف كبير وثقة كبيرة منك.. لكن أنا زي ما انت راسي « إل نيا با فلوس!«

-يعني إيه؟

-بالعربي كده مفيش فلوس.

-ما هو أنت هتدخل شريك بأجرك.

-بس يا أستاذ...

-متقولش حاجة... قول موافق.

عرض علي الكسار جعل الدموع تسيل من عيني ياسين، وبدت تلك الفترة سعيدة ومشرقة في حياة الفنان، غير أنه لم يكن يفكر في موضوع الزواج أو الحب مجدداً، فيكفيه ما حدث له في المرتين اللتين أحب وتزوج فيهما.

كان ذلك تفكير ياسين قبل تلك الليلة التي جلس يتناول فيها طعام العشاء في حديقة المسرح قبل صعوده إلى الخشبة، وبينما كان جالساً أقبلت زوجة مدير المسرح أحمد رفعت، وبصحبتها فتاة، بدا من مظهرها أنها وقورة وخجولة، وكان جمالها لافتاً. جلست الاثنتان بجواره بعد أن تبادل ياسين التحية مع زوجة المدير، أما صاحبتها فاكتفت بأن أومأت برأسها إلى ياسين.

بدأ ياسين يختلس النظرات إلى هذه الضيفة التي لم يرها سابقاً، فهي بالتأكيد ليست فنانة، فهو يعرف فنانات البلد. سيطر عليه إحساس غريب، فقد شعر أنها ليست غريبة عنه تماماً، وأنه يعرفها منذ فترة طويلة، أو ربما كان يعرفها وهي طفلة صغيرة أو يعرف واحدة تشبهها. المهم أنه شعر بأنه يعرف هذه الفتاة، ثم أدرك أن كل ما في الأمر أنه كان يبحث في خياله عن واحدة مثلها، أو كما يقال «فتاة الأحلام»، وها هي أمامه وجهاً لوجه.

أحاسيس جديدة وغريبة شعر بهاياسين، فلم تكن المرة الأولى التي يتعرف فيها إلى فتاة أو يجلس معها، كما لم تكن المرة الأولى التي يفكر فيها بامرأة، فقد سبق له الزواج والحب مرتين، وإن كان أسقطهما من حساباته بل ومن حياته تماماً، لكن ما الذي حدث هذه المرة؟!





إسماعيل يس حكاية رجل حزين لوعة الحب (الحلقة ١٩)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
لوعة الحب...

القاهرة - ماهر زهدي

جريدة الجريدة

أحاسيس جديدة وغريبة شعر بها ياسين، فلم تكن المرة الأولى التي يتعرف فيها إلى فتاة أو يجلس معها، كذلك لم تكن المرة الأولى التي يفكر فيها بامرأة، فقد سبق له الزواج والحب مرتين، وإن كان أسقطهما من حساباته بل ومن حياته تماماً، لكن ما الذي حدث هذه المرة؟!

لم يكن اسماعيل ياسين يتصور نفسه في هذا الموقف أبداً لدرجة أنه غاب تماماً عن أجواء الجلسة وراح يحدث نفسه:

-إيه يا أبو السباع... مالك عامل كده ليه ما تثبت أمال خليك جدع.

-ما يكونش ده الحب اللي بيقولوا عليه؟

-وهو الحب جديد عليك ما انت حبيت قبل كده محصلش حاجة من دي.

-اخص الله يكسفك... إنت بتسمي الهباب اللي فات ده حب؟!

-ما علينا خلينا هنا وقولي إنت عامل كده ليه.. وإيه العرق ده كله حتى الجو جميل.

وهنا نطق إسماعيل بعبارة «الجو جميل» بصوت عالٍ، وظنت زوجة المدير وصديقتها أنه يحدثهما، فردت زوجة المدير ولم تردّ الفتاة:

-آه الجو جميل فعلاً... الشتا خلص بسرعة السنة دي... لحقنا نتمتع شوية بالربيع قبل الصيف ما يهجم.

ظلت الصديقة صامتة، ولكن المدهش أن الوقار والخجل انتقلا إلى اسماعيل وأحس بالعرق يملأ وجهه فأخرج منديله وبدأ يجفف عرقه.

-إيه ده أنت عرقان كده ليه، إحنا لسه بنقول الجو جميل؟

-مش عارف يظهر إني حران.

-آه صحيح أنا نسيت أعرفكم ببعض... مودموزيل فوزية.

-يا أهلا وسهلا يا فندم وأنا بقى محسوبك اسماعيل ياسين... مغني وممثل و...

لم تردّ فوزية بل اكتفت بأن أومأت برأسها مع ابتسامة خفيفة، ما زاد توتره وقلقه، بعدها ساد صمت بين الجميع، بينما كان يتم حديث هامس من حين إلى آخر بين فوزية وزوجة المدير، حاول اسماعيل أن يتحدث مع الفتاة أو أن يقول لها أي شيء، بعدما انتابته رغبة كبيرة في ذلك، لكنه شعر بأن لسانه تجمد، أو توقف ولم يتحرك وبأن قلبه يدق بصوت مسموع، بحيث أخذ صدره ينخفض ثم يعلو! ثم بدأ يلهث وكأنه يجري في سباق. ثم بدأ يعيش في الخيال، توهم أن الفتاة تتحدث إليه وأنها تبادله الشعور نفسه، وانتابته أحلام وأوهام لها بداية وليس لها نهاية:

-على فكرة أنا من أول ما شفتك على الشاشة حسيت أنك فنان حقيقي.

-ده شرف يا فندم وشهادة أعتز بيها.

-أنا مش بجاملك اللي أنا بسمعه عنك كمان يقول كده.

-كلامك الحلو ده خلاني اتشجع وأقولك على حاجة حسيت بيها من أول ما شفتك وأنت جايه.

-حاجة!! حاجة إيه؟

-إنت لو قربتي ودنك من صدري هتسمعي صوت دقات قلبي.

-ياه... ليه إنت خايف من حاجة؟

-فعلا... فيه حاجة عاوز أقولك عليها بس خايف.

-قول متخفش.

-فوزية... أنا من أول ما شفتك حبيتك!!

وفجأة أفاق إسماعيل من أوهامه وأحلامه ووجد نفسه صامتاً وهي لا تلتفت إليه أبدا، غير أنه راح يتطلع مجدداً إليها ويتفرّس في وجهها، فاكتشف بعين الخبير أنها لم تكن تضع ماكياجاً إطلاقاً، وكان وجهها على طبيعته: خمري اللون وبشرة صافية، أما نظراتها فكانت هادئة ودافئة في الوقت نفسه، بريئة ولكنها تخفي صخباً كالموج، فهي تحتمل سذاجة وذكاءً، ترى أيهما تكون؟!

بدأ اسماعيل يختار ألفاظا عذبة جديدة ويصف بها الفتاة، وحين تمالك نفسه بعدما استنفد الصفات الطيبة في الدنيا وفكر كما يحلو له، عاد ليتذكر أنه يستطيع استخدام لسانه في مناسبة كهذه، بصعوبة وبعدما تردد طويلا، أخرج علبة سجائر وتجرأ وقال لها:

-اتفضلي سيجارة.

في دهشة وبنظرة عابرة أدارت بعدها وجهها إلى الجهة الأخرى وقالت:

-آسفة ما بدخنش!

على الرغم من أن الجواب كان طبيعياً لسؤال ساذج، إلا أن اسماعيل بات بعدها كالمحموم وفقد زمام نفسه، فهو يسمع صوتها للمرة الأولى منذ أن التقى بها، منذ أكثر من ساعة، ظل خلالها ينظر إليها وسرى صوتها في قلبه كأنه تيار كهربائي.

انتهى اللقاء على هذه الكلمات السريعة القصيرة، ففي تلك الدقيقة الحساسة جاء من يخبره بأن المسرح أصبح جاهزاً بعدما كان نسي المسرح وكل شيء عنه:

-اتفضل يا أستاذ، المسرح جاهز.

-مسرح إيه... آه المسرح.

وهنا ضجت زوجة المدير بضحكة عالية، في حين اكتفت فوزية بابتسامة خفيفة، ما زاد توتره، مجدداً... فطلب من عامل الستارة أن يؤخر فتحها عشر دقائق لأنه في حالة غير طبيعية، ما جعل زوجة المدير تقلق عليه:

-إيه يا أستاذ اسماعيل أنت تعبان ولا حاجة؟

-لا أبداً... حاسس بس إن صوتي مش طالع... هشرب فنجان زنجبيل وهبقى كويس... بعد إذنكم.

اعتلى اسماعيل المسرح لكي يؤدي دوره في المسرحية ويغني مونولوجه.

إحساس بالسعادة

كان ذلك اليوم من أفضل الأيام في حياة اسماعيل ياسين، سواء كإنسان أو كفنان، شعر بأن له قيمة، ويقدّره الناس من حوله كإنسان، كذلك عمل كفنان كما لم يعمل سابقاً وغنى مونولوجات كما لم يغنِ سابقاً، لإحساسه بأنها تجلس في الصالة تشاهده، ومن المؤكد أنها صفقت له من بين الذين يصفقون.

انتهى العمل وأخذ طريقه إلى «محطة الترام» ليعود إلى بيته الجديد، خرج من المسرح وأصداء تصفيق الجمهور ترنّ في رأسه، وصورة فوزية وهي تصفق له لا تفارق خياله. وقف على المحطة، وهو لايدري بمن حوله، غير أنه بمجرد وصول الترام وركوبه، فوجئ بها تركب، نعم هي، إنها فوزية وصديقتها زوجة مدير الفرقة، وكأن الأقدار تسوقها إليه مجدداً.

ابتسم لها، وردت على ابتسامته بمثلها، أو أقل منها وبدا من ملامح وجهها أنها ارتاحت ـ قليلا أو كثيرا ـ بلقائه مرة ثانية في الليلة نفسها.

يبدو أن نجاحه وإعجاب الجمهور به هذه الليلة ـ وهي واحدة من هؤلاء ـ شجعاه على أن يفكّ عقدة لسانه ويبادرها:

-وحضرتك بقى من مصر؟

-لا... أنا من الإسكندرية.

-يبقى لازم تكوني عايشة في القاهرة على طول.

ولكنها لم تعلق على ذلك فاضطر إلى أن يسألها:

-وحضرتك حتقعدي في مصر؟

ردت عليه هذه المرة بالمختصر المفيد أيضاً:

-إن شاء الله.

لم يعجبه هذا الرد المختصر، كان يشعر برغبة شديدة في أن يعرف عنها أي شيء وكل شيء، أين تعيش؟ من أي عائلة هي؟ ما اسم أبيها وأمها وأهلها كلهم لو استطاع؟ ثم وهذا هو الأهم، كيف يمكن أن يراها مرة ثانية؟

لكن السؤال الأخير ربما يكون في غير وقته، فهو قد تعرف إليها اليوم، كيف يتجرأ ويسألها

متى سيراها ثانية، ومع ذلك عقد الخجل لسانه مجدداً وشعر بأنه عاجز عن الاستكشاف وخشي أن تثور على أسئلته، أو لا ترد عليه.

في نهاية محطة الترام، في شبرا، نزلت زوجة مدير الفرقة مع صديقتها، فاضطر اسماعيل إلى النزول على الرغم من أن محطة نزوله كانت التالية، لكنه وجد أنه من اللياقة أن ينزل معهما حتى لا تتعرضا لمضايقات، وما إن مد يده لمصافحة زوجة مدير الفرقة أولا، حتى وجدها تقدم له هدية على طبق من ذهب:

-مينفعش يا أستاذ اسماعيل تبقى قدام البيت وما تطلعش تاخد قهوتك.

وعقد لسانه هذه المرة أيضا، لكن يبدو أنه تعمد ذلك ليعلن عدم ممانعته... ولكنه اضطر إلى أن يرد:

-بس علشان الوقت متأخر.

-لا متأخر ولا حاجة، وبعدين كلها خمس دقايق وأحمد هيحصلنا على البيت.

-اللي تشوفيه حضرتك.

-تفضل.. اتفضل.

ما شجع إسماعيل على مرافقتهما أن فوزية استقبلت عرض صديقتها بابتسامة، فوافق فوراً واتجه معهما إلى البيت، ولكنه ما كاد يشرب نصف فنجان القهوة حتى جاء صديقه أحمد مدير المسرح، وراح يتحدث معه في مواضيع خاصة بالفرقة والعمل، ويرد عليه اسماعيل بردود مختصرة، لم يكن عقله معه، بل كان هائماً في مكان آخر.

{فرحة ما تمت}

لم يتمكن اسماعيل في ذلك اليوم من التحدث مع الفتاة التي سلبت عقله، ففور الوصول إلى بيت صديقتها (زوجة أحمد) دخلت إلى غرفتها لتنام!

واقتربت الساعة من الرابعة صباحاً ووجد اسماعيل نفسه في موقف لا يحسد عليه .يريد التحدث مع الفتاة، ولا توجد فرصة، ولا بد من أن يستأذن للانصراف، وقبل أن يهمّ بذلك أخذت زوجة أحمد زوجها لتهمس له بعيداً عن اسماعيل:

-اطلب من اسماعيل يجي يتغدى معانا بكره، أنا شايفه كده في عينيه كلام بخصوص فوزية.

-مش فاهم، تقصدي إن إسماعيل عنده رغبة إنه...

-متهيألي كده... ما هو عشان كده بقولك تعزمه بكره ع الغدا.

وعاد أحمد ليجد اسماعيل واقفاً ليعتذر عن تأخره لهذا الوقت وقبل أن يتحدث بادره أحمد:

-على فين يا سمعه.

-أنا لازم أمشي بقى، كلها ساعة والنهار يطلع، وزمانكم بتقولوا عليا إيه قلة الذوق دي.

-يا راجل عيب عليك... إنت في بيتك ولو الظروف سامحه يعني معندناش ضيوف كنت مسكت فيك تبات هنا.

-أنا متشكر قوي يا أبو حميد... بس كنت عايز أقولك.

-عموماً أنا اللي عايز أقولك إننا لازم نكمل كلامنا بس مش دلوقت أنا مستنيك بكره ع الغدا...

-تصبحوا على خير وأشوفكم بكره... بكره إيه ده يا أخويا ما خلاص بقينا بكره.

في تلك الليلة لم ينم اسماعيل ياسين لحظة واحدة، كان سعيداً كالطفل الذي يحلم بلعبة فوجدها أمامه، أو فرصة ـ بضربة حظ ـ تمناها طويلا فأرسلها له القدر، ولا بد من أن ينتهز هذه الفرصة ويتشبث بها ـ كما يقولون بيده وأسنانه ـ مهما كلفه ذلك من ثمن أو جهد أو تعب أو حتى «مرمطة!«

ووجد نفسه يمشي في الشوارع حتى وصل إلى مقهى في روض الفرج والتقى مجموعة من الأصدقاء يلعبون الورق فجلس يتسلى معهم لتمرير الوقت، حتى أشرقت الشمس، وذهب الجميع ولكن اسماعيل بقي في مكانه، يفكر في ما حدث تلك الليلة.

عاد إلى البيت ليغير ثيابه كي يظهر أمام فوزية بالشكل المناسب، وفي الطريق دخل أحد المحلات وسط القاهرة واشترى «بدلة» جديدة، وأسرع إلى شقته الجديدة في حي شبرا التي اشتراها ليكون قريباً من المسرح في روض الفرج، وراح يستعجل الوقت وموعد الغداء ويهيئ نفسه لهذا اللقاء، كيف سيسلم عليها؟ هل يجب أن يضغط قليلا على يديها أم لا؟ هل يضحك أم يكون وقوراً؟ على العموم سيحدثها إذا لاحظ منها أي رد فعل، سيدخل في الموضوع مباشرة ويعلن رغبته في الزواج منها وتكوين أسرة سعيدة مليئة بالحب والأولاد.

ظلت هذه الأسئلة كلها وغيرها تدور في رأسه حتى حان وقت الغداء، فتوجه وقلبه يسبقه إلى منزل صديقه مدير المسرح!

فوجئ إسماعيل بصديقه مدير المسرح يفتح له الباب ثم دخل إلى الصالون وجلس معه وحده، وأدرك اسماعيل أن زوجة صديقه ليست في البيت، وإلا لماذا لم تخرج للسلام عليه وترحب به كعادتها، وتوقع أن تكون ذهبت مع صديقتها في مشوار، لم يعودا منه بعد، أو تكون الصديقة تعمدت أن تترك البيت وقت حضوره ويكون في ذلك أبلغ رد على طلبه.

لوعة الحب

بدأ القلق يظهر على وجه اسماعيل ياسين خصوصاً أن صديقه لم يشر أبدا إلى عدم وجود زوجته أو صديقتها، ولم يفتح معه الموضوع، فلم يجد اسماعيل بداً من أن يفاتحه فقد نفد صبره:

-أمال فين المدام يعني مش باينة؟

-المدام يا سيدي جوه مع صاحبتها بتاعة الإسكندرية.

أطمأن اسماعيل ولكنه لم يخفِ دهشته:

-أمال مجوش يعني... هو إحنا مش هنتغدى ولا رجعت في كلامك؟

-في الواقع أنا اللي طلبت منهم يتغدوا لوحدهم جوه علشان إحنا نتكلم براحتنا في شؤون الشغل.

وكاد اسماعيل أن يلعن اليوم الذي يتحدث فيه عن الشغل، ولم يعد يعرف كيف يتصرف، فهو لم يقبل الدعوة إلا ليرى الفتاة التي خلبت لبه، وليس للطعام أو الحديث في الشغل، وها هو حضرة المدير يأمر زوجته وصديقتها بألا يظهرا ويتناولا طعامهما بمفردهما.

تناول اسماعيل طعام الغداء في صمت ولم يسمع حرفاً واحداً مما كان المدير يقوله له على المائدة بالنسبة إلى العمل في الفرقة، فقد ظل عقله شارداً يفكر في صديقة زوجة هذا المدير الذي يتكلم ولا يسكت أبداً.

وعندما حان موعد العمل مساء توجه اسماعيل ومدير المسرح إلى الفرقة على أن تلحق بهما زوجة المدير، ولاحظ اسماعيل أن الزوجة أتت بمفردها ولم يتمالك نفسه فاقترب منها وسألها:

-أمال فين صاحبتك؟

-تقصد مين فوزية؟

-أيوه فوزية اللي كانت معاكي إمبارح... مش اسمها فوزية؟

وكان إسماعيل يعيد الاسم ليتأكد تماماً من أنها هي، وردّت عليه زوجة صديقه:

-أيوه اسمها فوزية.

-أمال هي فين؟

-فوزية سافرت الإسكندرية بعد الغدا!

وكاد أن يصرخ: سافرت إزاي؟! وليه؟ ثم أدرك أنه لا يملك أي حق في أن يسأل فسكت، ولم ينطق بحرف واحد ثم خرج إلى المسرح في موعده ليلقي مونولوجاته ولكنه كان يتفرس هذه المرة في كل الوجوه لعله يرى فوزية بينها، ويبدو أنه لمح بين المتفرجات واحدة تشبهها، وبدأ ينظر إليها، ظناً منه أن زوجة المدير فعلت كل هذا بالاتفاق مع فوزية لترى مدى اهتمامه بها، وأيقن أنها هي، وراح يغني لها بمفردها وكأنه لا يرى في الصالة سواها، حتى اتضح له أنها امرأة أخرى تشبهها، وكاد زوجها الذي يجلس إلى جانبها أن يلاحظ اهتمام اسماعيل بها، فغض نظره لكنه استلهم من حبه لفوزية الكثير من الإبداع، والرغبة في أن يكون فناناً عظيما

وكبيراً ليعجبها وتحبه كما أعجبته وأحبها.

وحين انتهى من وصلته عاد إلى الصالة ليبحث عنها مجدداً ونسى أنها سافرت إلى الإسكندرية، وبدا تماماً كمن فقد شيئاً عزيزاً ويريد العثور عليه بأي شكل وبأية وسيلة!

البحث عن الحبيبة

أدرك اسماعيل شيئاً مهما... أنه قلق على إنسانة ليست قلقة عليه ويبحث عن فتاة لا تبحث عنه، هذه السيدة التي شاهدها مع زوجة المدير لم تتجاوب معه ولم تشعر نحوه بشيء بل ولم تبدِ مجرد اهتمام عادي أو سطحي به. فلماذا يهتمّ بها هو هذا الاهتمام كله؟

مع ذلك مضت ثلاثة أيام واسماعيل تائه في أفكار متضاربة ومشاعر متباينة، بعد البحث والتحري استطاع معرفة عنوانها في الإسكندرية فصمم على الذهاب إلى هناك ليراها أو يقابلها ويفاتحها بما يشعر به نحوها.

كان اسماعيل في هذه الفترة من العام ١٩٤٥، فتح الله عليه بالرزق من السينما التي بدأت تلتفت إليه، فقدم «القلب له واحد» عندما اختاره المخرج هنري بركات ليشارك نجوم السينما على رأسهم الفنان أنور وجدي والفنانة منى ابنة المنتجة آسيا، التي جاءت من لبنان وأسست شركة إنتاج كبيرة قدمت من خلالها أولا ابنة شقيقتها ماري كويني ثم ابنتها منى.

شاءت الأقدار أن تعمل في هذا الفيلم مونولوجيست جديدة تدعى «سعاد حسين«، حاولت التقرب من اسماعيل ياسين، وكان بطبيعته لا يعامل أحداً بشكل غير لائق سواء كان كبيراً أو صغيراً، فظنت سعاد أنه يتقرّب منها أو يحاول البوح لها بحبه، غير أن هذا الأمر لم يكن في تصوره إطلاقاً.

قبل أن ينتهي من تصوير الفيلم اختاره المخرج كمال سليم ليشارك في فيلمه الجديد «ليلة الجمعة» بطولة الحصان الجديد الرابح أنور وجدي أيضاً، إبراهيم حمودة، تحية كاريوكا، بشارة واكيم، وكان يصور أثناء ذلك أدواره في فيلمي» ليلة حظ» مع فريق العمل السابق وزادت عليهم المطربة رجاء عبده، إخراج عبد الفتاح حسن، ثم «تاكسي حنطورة»، وبعده «البني آدم «الذي اختاره المخرج نيازي مصطفى لبطولته، ليجمع بينه وبين بطلة جديدة تعمل راقصة في فرقة بديعة مصابني اسمها سامية جمال وصديقه المونولوجيست محمود شكوكو والفنان محمود إسماعيل .

!Error



إسماعيل يس حكاية رجل حزين البني آدم (لحلقة ٢٠)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
البني آدم..

القاهرة - ماهر زهدي

شعر إسماعيل ياسين بأن الدنيا بدأت تضحك له، وأن السينما أصبحت ملاذه الوحيد، وأن العام

الذي رأى فيه فوزية هو «وش السعد» عليه، غير أنه عزم على قرار لا بد من أن يتخذه، وهو طالما أن السينما بدأت تفتح له ذراعيها، فلماذا لا يبقي عليها وحدها إلى جانب المسرح، ويترك إلى الأبد فكرة أن يكون مجرد «مونولوجيست في صالة»، إذ شعر بأن هذا ينتقص كثيراً من قدره، فهو ليس مطرباً بالمعنى المفهوم مثل محمد عبد الوهاب أو حتى المطرب الجديد فريد الأطرش.

لم ينسَ اسماعيل أن «المونولوجيست» أوصله إلى باب السينما، ولكنه استشعر بأن هذه اللقب يبدو ضئيلاً أمام حبيبة القلب «فوزية» بخلاف أن يكون أحد نجوم السينما الذين يشير الناس إليهم بالبنان، ويهرولون إليهم لمجرد السلام عليهم أو للتوقيع على «أوتوغراف.«

اتخذ إسماعيل قراراً باعتزال غناء المونولوجات والعمل في الصالات والكباريهات والكازينوهات، حتى لو كان الثمن هو الجوع والعودة الى التشرد .ولا بد من أن يبدأ حياة جديدة تناسب وضعه الجديد وحبيبته الجديدة التي يأمل بأن تكون زوجته المستقبلية، فهي تبدو من عائلة أصلها عريق، ولا يليق أن يتقدم للزواج منها باعتباره «مونولوجيست»، بل سيكون ثمة فارق كبير إذا تقدم لخطبتها باعتباره أحد نجوم المسرح والسينما.

من شراكته بالمسرح وعمله بالسينما بدأت النقود تجري في يدي إسماعيل، فجهّز شقته بأحدث أنواع الأثاث لاستقبال زوجة تليق بها.

وفي أثناء عودته إلى بيته في أحد الأيام حدث ما كان يتمناه طيلة حياته، فما إن ركب الترام حتى فوجئ ببعض المارة يلتف حوله ويشير إليه باعتباره الفتى الذي يظهر في السينما، لدرجة أن أحدهم داعبه قائلاً:

-يا بُقو.

فردّ عليه إسماعيل:

-بُقك أكبر من بُقي.

بقدر سعادة إسماعيل بالتفاف الناس حوله وبأنه أصبح له جمهور، شعر بالخجل وراح يحدث نفسه:

-إزاي فنان زيي كده يركب الترام ويتشعبط على السلم. يا أخي الحمد لله ربنا فرجها من وسع. لازم بقى تجيب عربية علشان الأوضاع الجديدة.

طلب إسماعيل من أحد سماسرة السيارات أن يجد له سيارة في أقرب وقت تغنيه عن المواصلات العامة ومتاعبها، خصوصاً أنه حصل على إجازة سريعة من المسرح والسينما وقرر السفر إلى الإسكندرية. وهذا ما حصل:

-أستاذ إسماعيل جبت لك حتة عربية متقلبش ورايا.

-أيوه بس دي باين عليها مستعملة.

-ما هو على أد الفلوس. ده موجود وده موجود بس انت قول.

-يا سيدي كويسه. بس تفتكر دي تقدر تسافر إسكندرية؟

-دي تسافر أسوان ما تقولش آي.

-ودي بكام يا عم؟

-علشان خاطرك ٢٠٠ جنيه.

-يا مُحمدي ٢٠٠ جنيه!!

-ده بس علشان خاطرك..

-لا يا عم أنا كل اللي معايا ١٥٠ جنيه إذا كان ينفعوا يبقى «بونو.«

-بونو بونو. مش هخسرك وادفع الباقي وقت ميجيلك فلوس.

اضطر إسماعيل إلى تأجيل موعد سفره، ريثما تتم إجراءات نقل الملكية وكان سعيداً بذلك، فهو لن يذهب إلى حيث تسكن حبيبته بوسائل المواصلات بل بسيارته الخاصة، وربما يكون في هذا تدعيم لموقفه.

أول سيارة

اشترى إسماعيل أول سيارة في حياته من ماله الخاص، وقرّر الذهاب بها إلى الإسكندرية ليفتّش عن فوزية التي سلبته نصف عقله، لكنه اضطر الى تأجيل السفر ريثما يتدرب على القيادة فهو لم يكن سائقاً يوماً.

أدت الصدفة دورها مجدداً حين اتفق اسماعيل مع صديقه مدير الفرقة على أن ينظم رحلة إلى الإسكندرية. وهكذا ذهب إسماعيل لا ليتفسّح ويرى حبيبته فحسب، بل ليعمل أيضاً، ولكنه لم يسافر مع الفرقة بل بسيارته الجديدة.

لم يذهب اسماعيل إلى الفندق فور وصوله بل إلى العنوان الذي تسكن فيه فوزية، وأوقف السيارة وجلس يراقب المكان وهو يتظاهر بقراءة جريدة.

ثم لمح فوزية وهي تنزل من البيت. أخذ يسبقها بالسيارة ببطء شديد، ويقترب منها وينظر إليها، ولكنها لم تشعر به أبداً، فأوقف السيارة وفكّر في أن يسرع وراءها ويتحدث إليها ولكنّ الخجل انتابه، وعجز عن نطق كلمة واحدة، عجز حتى عن ترديد اسمها فقد كان خائفاً أن يفسَّر ذلك على غير حقيقته، وتعتقد أنه من صنف الرجال الذي يعاكسون السيدات بسياراتهم وتكوِّن عنه فكرة سيئة.

لذلك تراجع عن ملاحقتها واختفى. وفي اليوم التالي ركن سيارته وبدأ يتمشّى بجوار بيت فوزية.

مضت ثلاث ساعات وهو يمشي قرب منزلها ذهاباً وإياباً لعله يراها تخرج أو تطل من النافذة، ولكن من دون فائدة.

فكّر اسماعيل للحظة بأن يدق باب بيتها ويسأل عنها، ثم تراجع فوراً، فماذا لو كان أهلها محافظين ومتزمّتين فقد يتناولون الموضوع على طريقة يوسف بك وهبي: «لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم!!«

ومع ذلك فكّر في أن يدخل البيت من بابه، ويقول لأهلها مباشرة:

-أنا بحب بنتكم وعاوز أتجوزها على شرع الله وسنة رسوله.

لكنّ السؤال سيكون عندئذ: كيف أحببتها؟ فلا بد أن تكون قابلتها سابقاً، وهنا تُحرج الفتاة وتوضع في موقف حساس ولا يسلم الشرف الرفيع أيضاً، فعدل إسماعيل عن ذلك كله وركب سيارته وعاد إلى المسرح.

ثم وجد أن أصعب السبل هو أسلمها:

-أما أنا طلعت بني آدم زي الدور اللي عملته في فيلم البني آدم (يقصد الحمار!!(

-كانت تايهه عني فين. أنا أفاتح مرات أحمد مدير الفرقة وأقولها على أحاسيسي ومشاعري وكل اللي نفسي فيه وإني بحبها وعاوز أتجوزها. وهي بقى تقدر تتصرف. هتقولها وتخلص الموضوع وكمان هتفهمها بطريقتها لعل وعسى!

وفعلاً قابل اسماعيل زوجة مدير الفرقة في اليوم نفسه وأوضح لها رغبته في التعرف الى صديقتها فوزية وإذا لم يكن لديها مانع يريد الزواج منها:

-أنا كنت واخدة بالي وفهمت من أول يوم قابلناك في المسرح.

-انت بس اللي كنت واخدة بالك ولا هي كمان؟

-انت كانت نظراتك باينه ومفضوحة. بس هي ما بتفكرش في حاجة.

-أنت هتخسري حاجة؟ كلميها وخدي رأيها.

لم تكذّب زوجة مدير المسرح خبراً، ودعت فوزية لحضور عروض الفرقة في اليوم نفسه. فحضرت بالفعل.

استطاع إسماعيل مقابلتها، وحاول أن يجد أي لحظة ليفاتحها بحقيقة مشاعره نحوها ورغبته في الزواج منها ولكنه كلما أراد التكلّم وجد شيئاً يسد الطريق بينه وبينها بل يجبره على الصمت.

وتساءل في نفسه عن سرّ هذا الإحجام:

-ترى هل شعورها نحوي هو نفس شعوري نحوها؟

حاول أن يدق على هذا الوتر، وعلى أسوأ تقدير سيعرف رأيها. فدخل في حوار معها وسألها عن الصحة والأحوال وبعد أن قدم لها التمنيات الطيبة تعمّد أن يقول شيئاً غامضاً عن الحب والزواج والاستقرار.

-عارفة حضرتك الجواز ده أهم شيء في الدنيا لأنه بيخلي الإنسان سعيد ومستقر.

-يمكن.

-ده أكيد وخصوصاً لما الواحد ربنا يبعت له الإنسان المناسب.

تضايق إسماعيل من عدم اكتراثها به، وبهذا الموضوع المهم الذي أكد لها من خلاله أنه جاد ويريد دخول البيوت من أبوابها وليس مجرد معجب أو يعاكس، غير أن تصرّفها يعني أنها لا تبادله الشعور. ثم قرر فجأة أن يفاتحها بصراحة، وفيما انشغلت صديقتها بالحديث مع إحدى الفنانات قال لها:

-فوزية إحنا مش هنشوف بعض تاني.

ونظر إليها ينتظر جواباً فإذا بها لا تقول شيئاً.

ومع ذلك شعر بينه وبين نفسه بأنها رمقته بنظرة فيها عطف وتساؤل. فارتبك ولم يكرر السؤال ثم انتهت المقابلة.

أحقاد الزملاء

بعد ذلك عرف إسماعيل بالصدفة أن بعض الأصدقاء الذين شعروا بمحاولاته مع فوزية ومشاعره نحوها تطوّع لتشويه سمعته أمامها بسبب الغيرة من نجاحه:

-اوعي تكوني بتفكري في إسماعيل ده مش مناسب أبداً لك.

-من الآخر كده ده لا أصل ولا عيلة.

-إسماعيل ده زير نساء وبيقولوا إنه طالع لأبوه.

-اللي انت متعرفهوش أنه اتجوز قبل كده مرتين في ستة أشهر.

-وجاي دلوقت يدور على التالتة علشان يبهدل ولاد الناس معاه!!

-ابعدي عنه وانفدي بجلدك ده إنسان شرير هربت منه مراته الأولانية، وبعدها هربت الثانية، والثانية دي من هنا من إسكندرية وتقدري تقابليها وتسأليها، قبل مصيرك ما يبقى زيّها.

-المصيبة إنه بيغير جداً والغيرة بتخليه زي المجنون في تصرفاته. تتصوري كان بيقفل الباب عليها بالمفتاح!!

عرف إسماعيل بأمر هذه الوشايات، وقرر ألا يتحدث فيها، لا ينفيها أبداً ولا يؤكدها، بل فكّر بينه وبين نفسه بأن فوزية ليست من نصيبه، لأن أي فتاة مكانها سمعت هذا الكلام كله، لن توافق على الزواج به فاكتفى بالنظر إليها كل ليلة تأتي فيها إلى المسرح.

وفجأة وجد إسماعيل زوجة مدير الفرقة تأتي وتهمس في أذنه:

-فوزية عايزة تقابلك في كازينو شاطئ الإبراهيمية على الكورنيش بكرة الساعة تمانية قبل المسرح.

لم يصدّق إسماعيل نفسه! موعد بينه وبين فوزية فحسب على انفراد؟! وهي التي حددت الموعد، لماذا وكيف؟ ترى هل تريد أن تصارحه بأنها تحبه؟ أم تريد أن توبخه على ما سمعته عنه من كلام يسيء الى أي إنسان. ولكنه لم يتجاوز معها الحدود فهو مجرد طلبها للزواج فحسب.

وعلى رغم أن هذا اللقاء تمناه إسماعيل طويلاً، إلا أنه ظلّ متوتراً قلقاً: ماذا سيحدث في اللقاء وماذا تريد أن تقول له؟!

أول موعد غرام

في الموعد المحدد ذهب إسماعيل إلى كازينو شاطئ الإبراهيمية، تسبقه دقات قلبه، وهناك وجدها في انتظاره، فقد سبقته إلى الموعد وكانت تجلس في زاوية بعيدة عن العيون، ذهب إليها والدنيا لا تسعه من فرط سعادته، فها هو أخيراً سيجلس معها بمفردها، سيجلس مع الإنسانة التي أحبها من أعماقه، أحبها كما لو لم يكن أحب سابقاً، ليس مهماً ماذا ستقول فهو كفيل بأن يرد على كل اتهام توجّهه إليه. ويكفيه فحسب أن تعرف أنه يحبّها وبجنون.

في اللقاء حدث ما لم يُتوقع إطلاقاً، جلس ولم يتحدث في انتظار أن تبدأ صاحبة الدعوة، وظلا صامتين، حتى قطعت هي الصمت:

-أنا عارفة إن فيه فيلم بيتعرض دلوقت في السينما انت مشارك فيه.

-أيوه صحيح. هو دور غريب شويّه بس كويّس.

-اسمه إيه؟

ضحك اسماعيل خجلاً وقال:

-اسمه «البني آدم». بس دوري ملوش علاقة بالبني آدمين. بس صدقيني الفيلم ده صادق جدا لأنه أحياناً بيكون الحيوان أوفى من البني آدم.

شعرت فوزية بأنه يلمّح إلى الوشايات التي قالها عنه بعض الحاقدين في الفرقة، فأرادت الردّ

عملياً على هذا الكلام:

-إيه رأيك نروح دلوقت نشوفه؟

-اللي انتي تكوني جمهوره لازم يكون أسعد ممثل وأسعد إنسان في الدنيا.

وللمرة الأولى وجد إسماعيل نفسه يمشي على كورنيش الإسكندرية والى جواره أجمل الفتيات، ربما لم تكن فعلاً بهذا الجمال، لكنه رآها ملكة جمال الدنيا، فرفقتها كانت تعني السعادة المطلقة بالنسبة إليه.

أطفئت الأنوار في دار العرض، وبدأ عرض فيلم «البني آدم»، بطولة محمود إسماعيل، سامية جمال وإسماعيل ياسين.

لم ينظر إسماعيل إلى نفسه على الشاشة أبداً، بل كان يتطلع إليها فحسب فوجدها هي الأخرى تنظر إليه، ثم بدأ يسمع الصالة تضج بالضحك كلما كان يظهر على الشاشة. همست فوزية إليه في حرارة:

-الناس مبسوطة منك قوي وبتحبك.

-ميهمنيش حب أي حد في الدنيا غير إنسانة واحدة بس.

-انت بتحبني صحيح يا إسماعيل؟!

-كلمة بحبك كلمة عادية قوي وبنقولها كتير في السينما. أنا بعبدك يا فوزية.

صمت اسماعيل قليلاً واستطرد:

-لكن المشكلة في إني بحبك حب ملك على الدنيا كلها!

-أمال إيه المشكلة؟

-المشكلة هل انت كمان بتبادليني الحب؟

أطرقت فوزية برأسها على رغم أنه لم يرَ إحمرار وجنتيها في الظلام وقالت له بما يشبه الهمس:

-أيوه.

-أيوه إيه؟

-بحبك؟

-تتجوزيني؟

-موافقة.

-وتعيشي معايا على الأرض؟

-أعيش معاك على البلاط إذا كنت واثق من إنك عايز تعيش معايا طول العمر.

-بس أنا رجل فقير. ميغركيش إني فنان وبطلع في السيما وبغني في المسرح.

-وأنا حاعمل ايه بفلوسك إذا كنت مليونير؟

-أنا على باب الله كل يوم بيومه.

-وأنا على باب الله معاك إن ما كنش في فراخ ناكل طعمية. وحيبقى للطعمية معاك طعم اللحمة والديك الرومي.

-أنا مش عايزك تندمي.

-أنا بحبك واللي بيحب ما يندمش.

-أنا مسافر بكرا للقاهرة.

-وأنا معاك.

وهنا اندهش اسماعيل ونظر إليها:

-معايا؟ إزاي وليه؟!

-علشان نتجوز.

-إزاي، كده من غير علم أهلك؟

-هيعرفوا بعدين. لكن لو قلت لهم دلوقت مش هيوافقوا.

-ليه، أنا وحش قوي كده؟

-مش حكاية وحش ولا حلو. الحكاية إنهم لهم مواصفات معينة وطلبات متعبة. ومش بسهولة هيوافقوا. لكن لما نحطهم قدام الأمر الواقع هيضطروا يوافقوا.

-قد كده بتحبيني؟

-زي ما انت بتحبني.

عند هذه الكلمة كان انتهى عرض الفيلم وأضاءت الأنوار، ووجد إسماعيل الجمهور يلتف حوله ويصفق له فشعر بأن الدنيا تهنئه ليس على نجاحه في الفيلم بل على فوزه بقلب فوزية.

في اليوم التالي غادر إسماعيل الإسكندرية إلى القاهرة، وبدأ يجهز نفسه بالفعل، وقبل أن يبدأ بتحضيرات الزواج كانت فوزية وصلت إلى القاهرة، فاستقبلها وفرح بها فرحاً لا يوصف لأنه تأكد من أنها تحبه فعلاً، فقد تركت أهلها وأتت إليه!

أقامت فوزية في بيت صديق إسماعيل، مدير المسرح، ريثما تتم إجراءات الزواج .من جهته، قرَّر اسماعيل ترك شقة شبرا، ليستأجر شقة في العباسية، أحد الأحياء الراقية آنذاك، وكان مُعلم الرقص إيزاك ديكسون كان أعلن عن رغبته في تنازله عن شقته لقاء مبلغ مائة جنيه، فاستطاع إسماعيل إقناعه بـ ٧٥ جنيهاً.

استلم إسماعيل الشقة بعد أن وقع على عقد إيجار، ثم اشترى بعض أدوات المطبخ وبعض الأثاث البخث الذي وضعه إلى جانب الأثاث المستعمل الموجود في الشقة .وحين انتهى من إعداد شقة الزوجية المتواضعة، ذهب إلى بيت صديقه مدير المسرح وتم الاتفاق على أن يعقد القران يوم الخميس.

وكأن الأقدار استكثرت الفرحة على إسماعيل، فقد حدث ما يعكّر صفو الأجواء بين الحبيبين قبل أن يأتي يوم الخميس، إذ فوجئت فوزية بخبر على صفحات مجلة» الصباح» في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٥، يحمل تكذيباً للمونولوجيست سعاد حسين تنفي فيه إشاعة خطوبتها من المونولوجيست والممثل إسماعيل ياسين، وأن ليس ثمة ما يربطها به، مؤكدة أنه قد يكون الحب من طرفه هو، وأن ليس لها علاقة بهذا الموضوع!

Error!



إسماعيل يس حكاية رجل حزين صاحبة العصمة (الحلقة٢١)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
صاحبة العصمة...

القاهرة - ماهر زهدي
جريدة الجريدة

بكت فوزية وشعر إسماعيل بأن الأمر مدبّر، فأجّل الزواج ريثما ينتهي من هذا الموضوع، وكان ردّه الوحيد والبليغ، ما كتبه وأرسله إلى مجلة «الصباح «ليُنشر في العدد التالي:

»اندهشت عندما لم تكذب المونولوجيست سعاد حسين نبأ فسخ خطوبتها منذ خمسة أشهر سابقة عندما أعلمتها يومها برفض والدي رفضاً قاطعاً أن أتزوجها. على كل حال وإن كان الخبر قد تأخر خمسة أشهر إلا أنني سعيد لما قامت به السيدة سعاد حسين، فقد أعفتني من هذا الحرج، ما جعلني أعجّل بعقد قراني الأسبوع الماضي في نفس يوم نشر الخبر.«

وكان في ذلك إرضاء كافٍ لفوزية.

جاء يوم الخميس التالي، وكان موافقاً لموعد الحفلة الشهرية التي تحييها كوكب الشرق أم كلثوم، فاحتفل إسماعيل بقرانه مع عدد قليل جداً من المدعوين راحوا يستمعون إلى أحدث أغنية لأم كلثوم آنذاك، وعُقد القران في بيت صديقه مدير المسرح.

في نهاية هذة الحفلة البسيطة أخذ إسماعيل عروسه فوزية وذهب إلى بيتهما في العباسية الذي شهد بعد ذلك أيام شهر عسل حقيقية.

اكتشف إسماعيل في زوجته «ست بيت» ماهرة تحسن كل الأعمال المنزلية إلى جانب إيمانها بأن «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود» وكانت تقتصد من مصروف البيت لتزوّده بالأدوات التي كانت تنقصه.

كانت السعادة بهذه الزوجة تبدو على إسماعيل بل وتنعكس إبداعاً على عمله .كانت فوزية «وش السعد» عليه، فلم يمض وقت طويل على زواجهما حتى بدأت العروض تنهال عليه من السينما، إذ كان العام ١٩٤٥ علامة فارقة في حياته. كذلك اتخذ فيه قراراً بمقاطعة الكباريهات والكازينوهات وبعدم الغناء فيها بعد اليوم، وبأنه لن يقدم على أي عمل إلا إذا تأكد من أنه عمل متميز. بدأ اسماعيل يعيد حساباته في كل ما يقدمه فلن يقدم تنازلات بعد اليوم مهما كانت الإغراءات.

زوجة من السماء

شعر إسماعيل بأنه للمرة الأولى منذ وفاة والدته يذوق طعم الحب والحنان، ويعرف مجدداً معنى أن تكون له أسرة، وبيت مفتوح وزوجة موجودة فيه طوال الوقت، معنى أن تكون له زوجة محبة في انتظاره، يتناولان معا الوجبات الثلاث، معنى أن يكون ثمة دفء في البيت، وأن تكون زوجة محبة لزوجها بإخلاص، ضحت من أجله بالكثير، ووقفت ضد رغبة عائلتها كرمى له، ما جعل إسماعيل يصنع منها تاجاً يضعه على رأسه، لدرجة أنه أسقط من ذاكرته تماماً الزيجتين السابقتين، حتى أن فوزية عندما لاحظت ذلك لم تسأله عنهما، وإن كانت عرفت بهما، وتجاهلتهما تماماً كما فعل إسماعيل، فلا وجه للمقارنة.

التغيرات كلها التي حدثت في حياة إسماعيل العائلية، انعكست على حياته الفنية، فكما كانت فوزية نعم الزوجة المخلصة الوفية، كانت أيضاً «وش السعد «عليه كفنان، فقبل أن تمر أيام قليلة من الزواج، كان تعاقد على فيلم جديد بعنوان «الأحدب»، من تأليف وتمثيل محمود إسماعيل وإخراج حسن حلمي، وشارك معه فيه الوجه الجديد محسن سرحان، والفنانة الشابة روحية خالد، وظهر فيه للمرة الأولى صديقه المونولوجيست حسين المليجي.

في عام ١٩٤٥ الذي تزوج فيه إسماعيل وقدم خلاله ستة أفلام، تنبه الفنان أنور وجدي إلى أهمية اثنين في السينما المصرية، هما ليلى مراد وإسماعيل ياسين، فلا شك في أنهما الحصانان الرابحان في السينما المصرية خلال السنوات المقبلة.

كان وجدي أيضاً، وكما إسماعيل، يذوق طعم السعادة والنجاح، وأخيراً بدأت النقود تعرف طريقها إلى جيبه بعد سنوات من المجافاة، ذاق خلالها طعم الجوع والحرمان، ونام ليالي طويلة في كواليس مسرح رمسيس، وضُرب وأهين وطرد من أماكن كثيرة، وكان من بين الذين

طالوه بالضرب والإهانة الفنان الكبير يوسف بك وهبي، فقد كان صارماً في مسرحه «مسرح رمسيس» الذي كان يعمل فيه وجدي مجرد عامل إكسسوار، حتى ابتسم له الحظ وأعطاه دوراً في واحدة من مسرحياته .ودور بعد دور، ومسرحية بعد مسرحية تنبهت له السينما، خصوصاً أنه يحمل كثيراً من صفات نجوم السينما آنذاك: الوسامة والأناقة والعود الممشوق، وهي المواصفات التي كان لا بد من أن يتحلى بها «الفتى الأول» أو بلغة السينما» الجان»، وما إن ثبّت قدميه في السينما، لم يكتف بالوقوف أمام الكاميرا، بل راح يزج بنفسه في تفاصيل الصناعة نفسها، فتعلّم الإخراج وكتابة السيناريو والحوار ثم حلمه الأخير الإنتاج.

ما إن بدأ وجدي التفكير في الإنتاج والإخراج حتى تنبه فوراً إلى هذين النجمين ليلى مراد وإسماعيل ياسين، ففكر في نجاح فيلم «ليلى في الظلام» مع المخرج توجو مزراحي، وما سبقه من الأفلام التي تحمل اسمها، وانتهز فرصة رحيل المخرج كمال سليم في العام نفسه، ١٩٤٥، حيث كان يتأهب لإخراج فيلم» ليلى بنت الفقراء» وعرض هو أن يُخرجه، فرفضت ليلى في البداية، لأنها تكن تعرف مدى خبرة وجدي وقدراته، وإذا ما كان يستطيع أن يخرج الفيلم بنجاح أم لا، غير أن وجدي لم يكن يترك أمامه فرصة ليقنعها بنفسه وبقدراته، وتحت الضغط والإلحاح والمطاردة في كل مكان، اضطرت ليلى أن توافق، فأخرج لها أول أفلامهما معاً، والذي حقق نجاحاً كبيراً لم تكن تتوقعه ليلى، كما لم يكن يتوقعه صناع السينما آنذاك، ليقدمها في العام التالي في فيلم يحمل اسمها أيضاً بعنوان «ليلى بنت الأغنياء» وكان لا بد من أن يستعين في هذا الفيلم بالحصان الثاني إسماعيل ياسين الذي كان مقتنعاً به كثيراً وبموهبته.

وكما كانت ليلى مراد فاتحة خير على أنور وجدي، الذي عرف من خلالها طعم النجاح والتفوق، والأهم طعم النقود، كانت فوزية كمال أيضاً فاتحة خير على إسماعيل وذاق معها طعم النجاح والنقود، وربما الثراء، ولم لا.؟ فقد أصبح آنذاك ينتقل من تفوّق إلى تفوّق، ومن نجاح إلى نجاح، وكان على قناعة تامة بأن زوجته هي السبب في كل ما كان يحدث له، لدرجة أنه أصبح يتفاءل بوجودها معه عندما يذهب ليوقع أي تعاقد جديد، وبدا هذا واضحاً منذ الأسبوع الأول من الزواج، حيث وقع عدداً من العقود السينمائية، وكان كل عقد بخمسين جنيهاً وهو أجر كبير لنجم في حجمه آنذاك.

«ست بيت»

كانت السعادة تلف بيت إسماعيل ياسين من كل جوانبه بعد أن تزوج من فوزية، وثبت له بما لا يدع مجالاً للشك أنها «ست بيت» بكل معنى الكلمة، بعد أن كان يشك في هذا الأمر، خصوصاً أنها كانت مرفهة إلى درجة كبيرة، ولا تفعل ذلك في بيت أسرتها، حيث كان هناك من يهتم بخدمتها. سهرت فوزية على خدمة إسماعيل، فكانت تعد له الطعام بيدها، حتى بعد أن وقع العقود وحصل على» مقدمات» أجر كبيرة، رفضت الاستعانة بخادمة، وأصرت على أن تكون هي الزوجة، بل والسكرتيرة التي تنظّم له مواعيده وارتباطاته وتنسق في ما بينها.

كذلك حرصت على أن تقتصد من مصروف البيت الذي يدفعه لها، لتزوّد المنزل بما يلزمه من أدوات مطبخ جديدة وفرش جديد وأثاث ناقص، رافضة أن يعود لما كان عليه سابقاً من الإنفاق بغير حساب، والأكل في المطاعم والكازينوهات، لدرجة أنه ذات يوم وقع إسماعيل عقدين لفيلمين جديدين، وحصل على مقدم لكل منهما، من منتج الفيلمين أنور وجدي، وكان معروفاً عن هذا الأخير أنه لا يدفع مقدمات أجور إلا بعد أن يكون الفيلم عرض وحقق نجاحاً، فاعتبر إسماعيل ذلك نصراً عزيزاً، وأراد أن يحتفي بهذه المناسبة الخاصة، ووجدها فرصة لأن يصطحب زوجته لقضاء سهرة سعيدة خارج البيت، خصوصاً أنها لم تخرج من البيت طوال

الستة أشهر الأولى لزواجهما:

-البسي بسرعة يا فوزية أنا عندي لك خبر حلو قوي.

-وهو ما ينفعش تقول الخبر وأنا بهدوم البيت، لازم ألبس؟

-لا يا ستي الخبر مش هقولولك هنا ده بره.

-بره فين؟

-في كازينو أوبرا.

-إسماعيل! انت رجعت للكازينوهات تاني؟!

-إحنا رايحين الكازينو باعتبارنا زباين مش شغل.

لم يقل لها ماذا سيفعلان، وظنت فوزية أنه يصطحبها معه كالعادة إلى كازينو أوبرا حيث سيتقابل مع أحد المنتجين هناك وسيوقع عقداً جديداً لفيلم، أو يتفق على العمل في فرقة مسرحية جديدة.

وصل الزوجان إلى كازينو «أوبرا» ووجدت فوزية إسماعيل يقول للنادل:

-اتنين عشا. هات رطلين كباب ورطلين كفتة وجوزين حمام محشي والسلطات والذي منه.

وما كاد النادل ينصرف حتى ثارت زوجته وغضبت:

-إيه الإسراف ده. أربعة أرطال كباب وكفته وجوزين حمام. كأننا مشفناش أكل قبل كده. ثم إيه لزومه العشا بره من أصله. أنا فاكره إنك عاملي مفاجأة.

-وهو فيه مفاجأة أحسن من كده.

-كنت فاكره إنك جاي توقع عقد جديد مع منتج معادك معاه هنا.

-ماهو ده اللي حصل. وعقدين مش عقد واحد. وآدي العربون عن كل فيلم.

أخرج اسماعيل من جيبه مقدم كل فيلم فأخذت فوزية النقود وأكملت كلامها:

-علشان وقعت عقدين تفقد الفلوس في الأكل ده كله؟

-ياستي كُلي اللي تاكليه وسيبي الباقي.

-مينفعش. ده اسمه إسراف وإحنا محتاجين كل قرش دلوقت.

-طب أعمل إيه بس يا فوزية ما أنا خلاص طلبت الأكل وزمانه جهز. مينفعش أقولهم خلاص بلاش.

-لكن ينفع تخليهم يلفوه وناخده البيت. ناكل فيه براحتنا واللي يفيض ناكله مرة تانية.

-حاضر يا ستي بس بلاش تزعلي نفسك كده. إحنا خارجين علشان نتبسط شويه.

-ما إحنا برضه ممكن ننبسط في البيت. ولا أنت خلاص مبقيتش تحب تاكل من إيديا؟

-ده كلام!! إذا كان أنا عاوز آكل ايديك نفسها.

حمل اسماعيل الطعام الذي طلبه إلى البيت وهو يعتذر لزوجته عن سوء تصرّفه هذا، ويعدها بألا يكرره مرة أخرى، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي يفكر فيها في أن يتناول طعامه خارج البيت أو من يد أحد غير فوزية.

زوجته حياته

لم تكن فوزية تعدّ الطعام الذي يحبه إسماعيل وتسانده في تنظيم مواعيده وارتباطاته في الأفلام فحسب، بل كانت أيضاً تشتغل بعض المفارش وتصنع بعض» تابلوهات الكنفاه» لتزيّن بها الجدران.

في فترة الزواج الأولى استطاعت فوزية تغيير كثير من عادات زوجها وهواياته، وأبرزها «سباق الخيل» الذي عاد إليه بعد أن بدأت «الفلوس» تجري مجدداً في يده، كذلك أبعدته عن الجلوس في المقاهي، التي كانت منتشرة في شارع عماد الدين، خصوصاً أنه كان يدمن لعب الزهر أو «الطاولة»، فما كان منها إلا أن تعلمت «الطاولة» لكي تلعب معه في البيت، وأبعدت عنه أصدقاء السوء، الذين يجرونه إلى مثل هذه العادات السيئة، وقربت منه الأصدقاء الذين يحبونه، ويخلصون له، وكانت لا تشكو من شيء أبداً، بل كانت زوجة راضية قانعة، لدرجة أن البيت في بداية حياتهما الزوجية كان يخلو أحياناً من أهم الضروريات بل ومن الطعام أحياناً وكان يكفيها أن تعيش طوال النهار على كوب من الشاي ورغيف من الخبز أو تشاركه في أكل «الفول أو الطعمية»، وكانت تبدو في غاية السعادة. كانت مصممة فحسب على أن تبني كيان زوجها من دون إرهاقه وأن تعمل للمستقبل بكثير من التفاؤل، وحريصة على أن تفعل كل ما يوفر لزوجها الأسباب التي تشجعه على أن يعمل ويبدع في عمله، وهو ما انعكس بشكل كبير على حياته الفنية، وحتى إذا حدث ووقع خلاف ما بينهما، وهذا نادراً ما كان يحصل، فإن فوزية لم تكن تترك إسماعيل يذهب إلى عمله إلا وهو راض تمام الرضا، وكانت تعتذر له حتى لو كان هو المخطئ، ومعها كل الحق، وهذا ما جعله يقدرها تقديراً لم تنله زوجة في ذلك العصر، وأحبّها لدرجة الجنون.

فاكهة السينما

في هذه المرحلة استطاع إسماعيل تثبيت قدميه في السينما، لدرجة أنه أصبح يشبه «طبق الفاكهة» الذي لا بد منه في أي فيلم يقدَّم آنذاك، فبعد الحرب العالمية الثانية تضاعف عدد الأفلام المصرية من ١٦ فيلماً عام ١٩٤٤ إلى ٦٧ فيلماً عام ١٩٤٦، ربما كان من نصيب

إسماعيل منها وحده ما يزيد على ستة أفلام، كان من بينها «سلوى، غرام بدوية، حرم الباشا، صاحب بالين». كذلك لمع فى هذه الفترة عدد من المخرجين الواعدين مثل كامل التلمساني، وعز الدين ذو الفقار، وصلاح أبو سيف، الذي عمل بالمونتاج بعد انتقاله إلى أستوديو مصر، ثم مساعد إخراج، وعندما جاء ليقدم نفسه للسينما كمخرج، بفيلم روائي قصير بعنوان «نمرة ٦» اختار لبطولته أحب نجم من نجوم ذلك الوقت إسماعيل ياسين، ثم كتب نجيب محفوظ سيناريو فيلم «المنتقم» بالتعاون مع مخرجه صلاح أبو سيف لتكون المرة الأولى التي يظهر فيها اسم الكاتب على الشاشة ككاتب سيناريو، وفي هذا العام أيضاً ١٩٤٧ ظهرت المطربة الصاعدة شادية كبطلة للمرة الأولى مع المطرب محمد فوزي، في فيلم «العقل في إجازة» إخراج حلمي رفلة، ثم تخرجت أول دفعة من المعهد العالي للتمثيل، وكان بين الخريجين شكري سرحان وفريد شوقي وحمدي غيث وزهرة العلا وصلاح سرحان وغيرهم. ومن الأفلام التي شارك إسماعيل في ذلك العام: «لبناني في الجامعة، معروف الإسكافي، أنا ستوتة، العرسان الثلاثة، حبيب العمر، بياعة اليانصيب، عروسة البحر، سلطانة الصحراء، ابن عنتر، الستات عفاريت، بنت المعلم.«



إسماعيل يس حكاية رجل حزين ليلة العيد (الحلقة ٢٢)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
ليلة العيد

القاهرة - ماهر زهدي

تصدّى أنور وجدي لإخراج «ليلى بنت الفقراء» بعد رحيل كمال سليم، وأثناء تصوير الفيلم قرّر أن يتزوج ليلى مراد، فقد وقع أسير غرامها من ناحية، ومن ناحية أخرى كان خائفاً من أن يستغلّ مواهبها مخرج آخر غيره، وكان مفترضاً انتهاء أحداث الفيلم بزواج البطل أنور من البطلة ليلى ابنة الفقراء، فبُنيت الديكورات بناءً على هذه النهاية.

قبل تصوير الفيلم كان أنور يخشى مفاتحة ليلى في موضوع الزواج، فطلب من إسماعيل ياسين جسّ نبضها، ووجد الأخير عدم رفض أو قبول، وهو ما نقله إلى أنور الذي لم يكن يضيّع وقته وبادر فوراً بطلب يدها، وهمس في أذنها:

-تتجوزيني يا ليلى؟

-موافقة.

وما إن انتهى تصوير المشهد الأخير حتى أعلن أنور وجدي نبأ الزواج فوراً أمام الجميع، وكان معروفاً عنه حرصه الشديد على عدم صرف المال، بسبب أيام الفقر والجوع والتشرّد التى عاناها، وحتى يوفر في نفقات إقامة فرح حقيقي، انتهز وجود الديكورات وأكد للجميع أن هذا هو زواجه من ليلى مراد، فاحتفل الجميع بزفافهما في اليوم نفسه من انتهاء تصوير بالفيلم.

فاتحة خير

لم يغب إسماعيل ياسين عن عقل الفنان والمخرج أنور وجدي، فتوطدت الصداقة بينهما، واستعان به في بطولة فيلم «قلبي دليلي» عام ١٩٤٧، إلى جانب محمود شكوكو وإلياس مؤدب، ومعهم الخريج الجديد من معهد التمثيل فريد شوقي، واستيفان رستي وبشارة واكيم، وغيرهم، وبرع فيه إسماعيل تمثيلاً وغناءً، ثم تبعه فيلم «عنبر». ولم يكن اسماعيل يتردد في تلبية طلب وجدي، في الوقت الذي كان مشغولاً بالمشاركة في أفلام كثيرة منها: «يحيا الفن، صاحب العمارة، حب وجنون، الصيت ولا الغنى، خلود، السعادة المحرمة، الروح والجسد، أميرة الجزيرة، وخيال امرأة.«

يوماً بعد يوم كان تفاؤل إسماعيل بزوجته يزداد فمنذ زواجهما وهو في صعود دائم ولا يعرف الفشل، إذ انتقل في السينما من الأدوار المساعدة إلى الأدوار الرئيسة، وارتفع أجره من الآحاد إلى الألوف. وكان لا بد من أن يكافئها على ما تفعله معه، فانتقلا من شقتهما المتواضعة إلى شقة فاخرة في منطقة الزمالك.

وعلى رغم حرص فوزية على الاقتصاد، بهدف بناء حياتهما، إلا أنها كانت تطلب من إسماعيل أن يظهر دائماً بأحسن مظهر، وعندما وجدت الوقت مناسباً بعد الانتقال إلى السكن في أرقى أحياء القاهرة حرصت على أن يشتري أحدث سيارة وأجمل الملابس، وبمرور الأيام، وجد إسماعيل أن زوجته استطاعت أن توفر له شبه ثروة، وكان هذا يحثّه على أن يعطيها أكثر، ولا يسألها عما تفعل.

عاش إسماعيل ينهل من عسل حياته الزوجية، وكانت سعادته أكبر عندما تصالح مع أهل زوجته، خصوصاً بعدما أصبح اسمه على كل لسان. وبعد ثلاث سنوات من زواجه قرر السفر مع زوجته إلى الإسكندرية، في زيارة عائلية، والعمل في فيلم جديد، وما إن دخلت فوزية إلى بيت أهلها حتى أصيبت بحالة إغماء شديد، فأحضر إسماعيل الطبيب وتبيّن أنها حامل.

كاد إسماعيل يطير فرحاً بهذا الخبر السعيد، وبعد تسعة أشهر، أي في ٢٠ مارس) آذار) عام ١٩٤٩، رُزق بأول وآخر طفل، وقد سماه على اسم والده ياسين، ووفر له كل اهتمامه والكثير من العناية والحب والدلال.

بعد ولادة ياسين بشهور قليلة اشترى إسماعيل فيللا في الزمالك وأقام فيها، وهنا تذكر والده، فقد مضت سنوات طويلة لم يره فيها. ترى كيف أصبح؟ وكيف حاله وهل لا يزال على قيد الحياة؟!

العودة إلى أيام الثراء

أصر اسماعيل على السفر إلى السويس، خصوصاً بعد أن وفقه الله وأصبح ميسور الحال. ولدى وصوله وجد أباه على حاله يعمل لدى أحد الصاغة بعد أن باع دكانه ولم يعد يملك شيئاً فقال له:

-اسمع يا والدي أنا الحمد لله ربنا فتح عليا. علشان كده أنا هرجعلك كل حاجة. المحل وتجارتك، مش هسيبك تاني تتبهدل. بس اوعدني يا والدي إنك تبعد بقى عن موضوع الستات والشرب والحاجات اللي بالي بالك دي.

-أوعدك يا ابني. وأنا اللي كنت فاكرك نسيتني خلاص بعد ما ربنا فتح عليك وكانت بتوصلني أخبارك!

-انت عارف إن ابنك كده، أنا بس كنت مستني ربنا يفرجها. وأول ما حصل جت لك.

-متتصورش كنت ببقى فرحان قد إيه لما بسمع أخبارك ولا أشوف صورتك في جورنال. كنت ببقى عايز أصرخ وأقول لكل الناس إن ده ابني. بس كنت بخاف» أعرك» ولا أسببلك مشاكل.

-أنا عمرى ما استعر منك. أنا فخور إني ابن المعلم ياسين. وكمان سميت أول ابن لي على اسمك، ياسين.

-يعني أنا بقيت جد.

أعاد إسماعيل والده إلى محله الكبير بل واشترى له محلاً آخر إلى جانبه، وأعطاه مبلغاً يضمن

له بدء العمل بقوّة. لكن ما كاد الوالد يبدأ عمله حتى عاد إلى سيرته الأولى وأقبل مجدّداً على حياة الليل والصخب، وكان هذا يكلفه كثيراً فأخذ يبدد محتويات المحل ويطلب من إسماعيل أن يمده بالمال بحجة أنه يريد شراء بضائع جديدة.

كان إسماعيل يرسل الى والده كل ما يريده ولم يكن يعرف أنه ينفق أمواله على السهر واللهو مدعياً أنه يسافر لشراء بضائع، وكان إسماعيل يصدقه لأنه كان يحبّه من أعماقه.

لقاء مع الملك

أصبح إسماعيل بنجاحه المتواصل في السينما «تميمة الحظ» لكثير من الفنانين والفنانات الذين بدأوا حياتهم الفنية خلال فترة ظهوره الطاغي على شاشة السينما، وحدث هذا مع المخرج الكبير صلاح أبو سيف حين استعان به في أول أفلامه، وتكرر الأمر مع عدد كبير من المخرجين الذين حرصوا على أن تكون بداياتهم في السينما من خلال العمل مع إسماعيل ياسين، بعد أن عمل بعضهم كمساعد مخرج في بعض أفلامه، ضماناً لعدم المخاطرة أو كسراً لرهبة التجربة الأولى بالاعتماد على نجم سبق التفاهم معه، ومنهم: حسن الصيفي، حسن حلمي، حمادة عبد الوهاب، وفطين عبد الوهاب.

كان إسماعيل ياسين «حدوتة المصريين» في القرن العشرين، ومنذ عام ١٩٤٨ تحديداً انسحب نهائياً من إلقاء المونولوجات في المسرح والملاهي ما عدا بعض الحفلات التي كانت تقام في المناسبات. وكان من بينها حفلة دُعي فيها لإلقاء بعض مونولوجاته في العام ١٩٥٠ في ملهى «الأوبرج»، وكاد يفقد فيها حياته. كان الحفلة خيرية لصالح جمعية «مبرة محمد علي»، وحضرها الملك فاروق الذي فقد وقاره في تلك الليلة من شدة الضحك حين كان إسماعيل يلقي مونولوجاته ونكته، وأوعز إلى أحد رجاله بأن يدعو إسماعيل إلى القاعة الخاصة بالاستراحة الملكية.

وحين جاء وقت الاستراحة، وقف إسماعيل أمام الملك وهو في حالة خوف وتوتر وقلق، فبادره الملك قائلاً:

-يلا يا إسماعيل سمِّعنا نكتة جديدة.

ومن فرط الارتباك بدأ إسماعيل النكتة قائلاً:

-مرة واحد مجنون زي جلالتك كده!!

فصرخ الملك:

-انت بتقول إيه. ده مجنون؟

أدرك إسماعيل أن الارتباك أوقعه في مصيبة، وقد أخطأ في الكلام، فما كان منه إلا أن سقط أرضاً متظاهراً بأنه أغمي عليه، ثم نهض الملك لمتابعة الحفلة غاضباً، وبقي بعض رجال الحرس الملكي حول إسماعيل لمعرفة مصيره الذي سيأمر به الملك. فلا بد من أن ثمة عقاباً ينتظره!

بقي إسماعيل يتصنّع الآلام طوال ما تبقى من مدة الحفلة، بل وكان يتمتم بألفاظ غريبة حتى سأل عنه الملك فاروق وحين قيل له إنه لا يزال مغشياً عليه أمر الدكتور يوسف رشاد، طبيبه الخاص، بعلاجه.

أدرك الطبيب الموقف وعرف أن إسماعيل يتظاهر بذلك كله من شدة الخوف فقال للملك:

-لا لا مفيش كلام من ده. إسماعيل مريض وتصيبه حالة من ضعف الذاكرة وفقد الإدراك واضطراب الأعصاب، وهو في حاجة لأن يقضي فترة تحت الرقابة الطبية لمعالجة هذه الحالة.

فهم إسماعيل أن الملك عاقبه بإيداعه مستشفى الأمراض العصبية والنفسية، فراح يبكي بدموع حقيقية وهو ملقى على الأرض، ثم نُقل إلى مستشفى «المبرة «ليعالج على نفقة الملك مع العناية التامة به.

صدرت الصحف في اليوم التالي مشيدةً بالعطف الملكي الكريم على إسماعيل ياسين، وأشارت إلى أن الممثل عاوده مرض الصرع أثناء الحفلة الخيرية، التي كان الملك يحضرها، والذي أمر بعلاجه على نفقته الخاصة.

أصبح هذا الموضوع حديث الناس في المجتمعات، ومناسبة لتوجيه الشكر من الجميع للملك فاروق.

غادر إسماعيل المستشفى بعد عشرة أيام وكتم سر تلك الحكاية ولم يروها لأحد أبداً، حتى ولو بينه وبين نفسه، لكنه فوجئ بعد ذلك بمندوب من المستشفى يطلب منه حساب إقامته!

فقال له إسماعيل:

-أنا علاجي كان أمر فيه الملك وعلى حسابه والصحف نشرت الكلام ده!

فرد عليه مندوب المستشفى:

-الخاصة الملكية رفضت دفع مليم واحد. ولازم تدفع حساب المستشفى أو تفضل هنا لحد ما الفلوس تندفع!

كاد أن يغمى على إسماعيل عندما وجد أن فاتورة المستشفى تزيد على مائتي جنيه، لكن فوزية كانت على استعداد لدفع أضعاف المبلغ ولو عشر مرات، فدفع المبلغ مجبراً لأنه خشي أن تتأزم الأمور ويدعوه فاروق الى إلقاء نكتة ما أمامه.

قيام الثورة

ظل إسماعيل ياسين يتذكر هذا الموقف بينه وبين نفسه فحسب، ولم يجرؤ أن يذكره حتى أمام زوجته، لما يحمله من ذكريات أليمة، وخشية أن ينكّل به، فقد كان يكره الحفلات التي كانت تقيمها الأسرة المالكة ويكره أن يدعى إليها، بل بات منذ ذلك اليوم يكره أن يسمع بسيرة الملك أو أي من أفراد الأسرة المالكة، حتى استيقظ على البيان التالي في الإذاعة المصرية صباح ٢٣ يوليو (تموز:1952)

»لقد اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في فلسطين، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.«

تلقى إسماعيل ياسين هذا النبأ بفرحة غامرة، مثل بقية الشعب المصري، غير أن سعادته كانت خاصة، فقد شعر بأن القدر انتقم له.

أراد إسماعيل أن يشارك الجيش والشعب هذه الفرحة، ولكن ماذا يفعل؟ فقد كان آنذاك انتهى مباشرة قبيل قيام الثورة من تصوير فيلمه «اللص الشريف«، سيناريو وحوار علي الزرقاني، إخراج حمادة عبد الوهاب، وشاركته البطولة شادية ولولا صدقي، فأوقف إسماعيل عرض الفيلم وأصر أن يضيف إليه مشهداً يقدم فيه مونولوجاً يعبر من خلاله عن فرحة الشعب بالثورة وإعلان مساندته للجيش، واتفق على ذلك مع المخرج. وبالفعل صوّر المونولوج وهو يغني في الشارع بين الناس، تعبيراً عن فرحة الشعب، وأكدت الكلمات التي كتبها الشاعر «ابن الليل» ذلك:

عشرين مليون وزيادة كانوا عايشين هنا أموات

علشان حضرات السادة البهوات والبشوات

كان الفلاح أجري يامشكاح لجل اللي عايش مرتاح

وأبو كرش كبير داير بنكير في أوروبا عامل سواح

وبوتيك سليمان وعلى النسوان

وعلى الكونكان فودفيل وبكام

اصرف كُع ما في الجيب يأتيك يا ابني ما في الغيب

وما بعد سعادته سعادة أصله وجيه وابن ذوات

خدعوه حضرات السادة البهوات والبشوات

الغني من دول كان قد القول كذا ألف وكذا فدان

كان هو السِّيد والباقي عبيد وكلامه تقول قرآن

سجن وترابيس أحرار محابيس

والعجل أبيس داير تهليس

يسرق ويقولوا أمين. يكفر ويقولوا أمين

ويقولوا ده شيخ سجادة وصاحب كرامات

خدعوه حضرات السادة البهوات والبشوات

كان عهد فساد واسود وسواد على شعب أصيل وكريم

والمولى أراد وكان بالمرصاد وسمع شكوى المظاليم

كان فرجه قريب

وسميع ومجيب

والجيش ونجيب عملوا الترتيب

وبفضل المولى عليه سعدنا تم على أيديه

والشعب بقاله إرادة هزت كل الشنبات

وبقينا كلنا سادة ولا بهوات ولا بشوات

عشرين مليون وزيادة.

هزّ إسماعيل ياسين بهذا المونولوج وجدان جميع فئات الشعب المصري، بمن فيهم أعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو، وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب والبكباشي جمال عبد الناصر، الذي كان أحد عشاق فن اسماعيل، وزاد حبه وعشقه له بعد أن شاهد هذا المونولوج في الفيلم. غير أن اسماعيل لم يكتف بهذه التحية، فبعد حوالى شهر تقريباً قدم «اسكتش الثورة» بمشاركة الفنانة شادية من خلال فيلم» حظك هذا الأسبوع» الذي كان من بين مجموعة أفلام قدمها إسماعيل ياسين خلال عام ١٩٥٣ وكان من بينها: «بنت الأكابر، عفريت عم عبده، دهب، بين قلبين، كلمة حق، بيت الطاعة، ابن ذوات، الحموات الفاتنات، حرام عليك، الدنيا لما تضحك، نشالة هانم، فاعل خير، اشهدوا يا ناس، لحن حبي.«

كذلك شارك إسماعيل الى جانب أسماء عدة بأداء الدور الثاني أو السنيد لها في بداياته مثل بشارة واكيم، حسن فايق، هند رستم، تحية كاريوكا ومحسن سرحان، ثم أصبح البطل الأول في أفلامه، ليس هذا فحسب، بل كان يحاط دائماً بكوكبة من كبار ممثلي الكوميديا مثل استيفان روستي، عبد الفتاح القصري، عبد السلام النابلسي، محمود شكوكو، سعاد مكاوي، ثريا حلمي، رياض القصبجي، حسن أتلة، ماري منيب) وغيرهم.

أصبح اسماعيل النجم الأول والأغلى، تتنافس عليه مجموعة كبيرة من نجمات السينما آنذاك، ووقفت أمامه ممثلات كبار شاركنه البطولة في أفلامه، مثل شادية، كاميليا، هند رستم، تحية كاريوكا، زهرة العلا، نجاح سلام، نزهة يونس، فريدة فهمي، هدى شمس الدين، ثريا حلمي،

برلنتي عبد الحميد، آمال فريد، فيروز (طفلة وشابة) فايزة أحمد، لولا صدقي، مها صبري، سامية جمال وغيرهن.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين الدنيا لما تضحك (الحلقة ٢٣)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
الدنيا لما تضحك...

القاهرة - ماهر زهدي

جاءت ثورة ٢٣ يوليو وجاء معها الخير الوفير للشعب العربي كله، مصر تحديداً واسماعيل ياسين خصوصاً، لدرجة أنه من كثرة الأعمال التي كانت تعرض عليه، كان يرفض نصفها تقريباً، ليس تمنعاً ولكن لضيق الوقت، حتى أنه لم يكن ينام في تلك الفترة أكثر من ثلاث ساعات يومياً، ليستطيع الإيفاء بالتزامات العقود التي يبرمها، وكان من نتيجة ذلك أنه قدّم في العام التالي للثورة ١٧ فيلماً.

وفر القدر لاسماعيل النجاح تلو الآخر فازدادت نجوميته في عام ١٩٥٤ لتستقرّ في القمة بعدما قدّم ١٨ فيلماً جديداً، جميعها بطولات مطلقة، ولم تخلُ واجهة دار عرض في القاهرة أو

الإسكندرية من «أفيش» لفيلم يحمل اسم «اسماعيل يس.«

من هنا جاء التفكير في فكرة الظاهرة (إسماعيل ياسين في...) عام ١٩٥٤، عندما أطلق المخرج يوسف معلوف على فيلمه اسم «مغامرات إسماعيل يس» على الرغم من أن البطولة لم تكن لاسماعيل ياسين إنما لكمال الشناوي، أحد فتيان السينما الجدد آنذاك وكان يطلق عليه «فتى الشاشة الأول» ويقدم بطولات مطلقة، شاركتهما دلوعة السينما المصرية شادية.

أطلق معلوف على الفيلم اسم «مغامرات اسماعيل ياسين» استغلالاً لظاهرة هذا الفنان «الفلتة»، ولم يكن لدى كمال الشناوي غضاضة في أن يتصدر اسم اسماعيل» الأفيش.«

لاقى الفيلم صدى كبيراً لدى الجمهور وحقق نجاحاً غير عادي ولفت أنظار المنتجين والمخرجين، وفي العام نفسه قدمه المخرج حسن الصيفي في فيلم» عفريتة اسماعيل يس» أمام الراقصة اليونانية كيتي وفريد شوقي وزينات صدقي، وتوالت بعد ذلك سلسلة أفلام «إسماعيل يس في...» فكان الممثل الأول، في تاريخ السينما العربية، الذي يقدم سلسلة أفلام تحمل اسمه الحقيقي وليس اسم البطل، وإن كانت المطربة ليلى مراد سبقته بوضع اسمها على الأفلام، غير أنها لم تصل إلى العدد الذي وصل إليه ـ أكثر من ١٧ فيلماً يحمل اسمه ـ فضلاً عن الأفلام التي أعيد عرضها، وتصدّر اسمه الأفيش قبل اسم الفيلم، مثل فيلم» بيت الأشباح» الذي أنتج عام ١٩٥١ وأعيد عرضه بعدما أضيف اسم اسماعيل على العنوان ليصبح «اسماعيل ياسين في بيت الأشباح»، إضافة إلى تقديمه لما يسمى بأفلام الكوميديا المرعبة مثل «اسماعيل يس في متحف الشمع» و{اسماعيل يس يقابل ريا وسكينة.«

في الجيش

في عام ١٩٥٥ وفي فورة الحماسة للثورة، شعر اسماعيل ياسين بوجوب المشاركة في تعزيز الإنجازات التي حققتها الثورة، معتبراً أنها قامت من أجله كمواطن مصري وتحديداً من أجل البسطاء أولاد الفقراء مثله الذين لا سند لهم ولا ثروة لديهم بل يعيشون بالكاد، خصوصاً أن البلاد كانت بأمسّ الحاجة إلى العمل والتكاتف للنهوض بها، ففكّر في تقديم فيلم عن الجيش تقديراً للدور الذي اضطلع به في تغيير وجه الحياة المصرية، وبحث عن كاتب ومخرج على دراية بالحياة العسكرية، لذا اختار الكاتب عبد المنعم السباعي وصديقه المخرج فطين عبد الوهاب، وهما من ضباط الجيش المصري، وإن كان عبد المنعم استمر في الجيش بعدما أسندت إليه مهمة الإشراف على الإذاعة المصرية من خلال مكتب الشكاوى ورقي إلى رتبة أركان حرب الإذاعة، في حين طلب فطين التسريح من الجيش، شأنه شأن الذين تعلّقوا بالفن ووجدوا فيه أنفسهم، مثل ضابط سلاح الفرسان أحمد مظهر، الذي قدّم في عام ١٩٥٥ دور «البرنس علاء» في فيلم «رد قلبي.«

كتب عبد المنعم السباعي قصة وسيناريو وحوار فيلم «اسماعيل يس في الجيش «وأخرجه فطين عبد الوهاب، ووجه اسماعيل ياسين الدعوة إلى قائد ثورة يوليو الزعيم جمال عبد الناصر، الذي لبى وحضر العرض الأول للفيلم ورافقه أعضاء مجلس قيادة الثورة. ضحك ناصر كما لم يضحك سابقاً، غير أنه أستشعر رسالة الفيلم والأهداف التي يرمي إليها اسماعيل ياسين.

أغرى نجاح الفيلم اسماعيل ياسين بتكرار التجربة كذلك المنتجين والمخرجين، وظهرت تباعاً سلسلة أفلام «إسماعيل ياسين في...» وشملت أسلحة الجيش في معظمها: الطيران، البوليس،

الأسطول، البوليس الحربي، مستعيناً في ذلك بتوأمه الفني أبو السعود الأبياري، ليكوّن معه ثنائياً فنياً على طريقة نجيب الريحاني وبديع خيري، وجاء الضلع الثالث في المثلث فطين عبد الوهاب ليعزفوا معاً أجمل ألحان «سينما الكوميديا المصرية.«

حرص اسماعيل ياسين على أن يفي بوعده للصديق القديم الفنان القاسي الملامح رياض القصبجي الذي كان القاسم المشترك في غالبية أفلام اسماعيل ياسين وقلما خلا فيلم من وجوده، خصوصاً سلسلة الأفلام التي قدمها اسماعيل عن أسلحة الجيش المصري، لدرجة أن الجمهور نسي الاسم الأصلي للفنان رياض القصبجي وتذكّر «الشاويش عطية» اسمه في سلسلة الأفلام هذه، وقد ثبت اسماعيل اسمه في كل الأفلام مثله وكان اللقاء بينهما مثل «القط والفار!«

أثناء تصوير فيلم «اسماعيل ياسين بوليس حربي» كان دوره يفرض عليه أن يكون له ابن، إذ يتمحور الفيلم حول فكرة مرض اسماعيل ودخوله المستشفى فيظن» الشاويش عطية» أن مرضه جعله يرتد إلى طفولته عندما شاهد ابنه شديد الشبه به، وهنا أصرّ المخرج على أن تتم الاستعانة بالفعل باسماعيل الصغير أو نجله» ياسين.«

رفض اسماعيل أن يقف ابنه أمام الكاميرا، فلم يكن عمره يزيد على ست سنوات آنذاك، وكان اسماعيل يحبه حباً مرعباً ويخشى عليه من نسمة الهواء، لكن مع إصرار المخرج خصوصاً أن من الضروري أن يشبه الطفل البطل، فوافق اسماعيل. ما إن وصل الطفل ياسين إلى البلاتوه لتصوير دوره علا صراخه فجأة وركض إلى والده واختبأ وراءه:

-إيه... إيه فيه إيه يا ياسين؟!

-خبيني يا بابي... خبيني.

-ليه خايف من إيه؟ متخافش... متخافش.

-إلحق يا بابي «الشاويش عطية» جاي... أهرب يا بابي.

هنا ضج اسماعيل ياسين بالضحك لدرجة أنه وقع على الأرض وعرف أنه نجح والفنان القدير رياض القصبجي إلى أقصى درجة وأن الرسالة وصلت حتى إلى لأطفال، غير أنه أراد إزالة رهبة ياسين ليستطيع تقبل القصبجي لأنه سيعمل معه في المشهد التالي من الفيلم:

-تعالى يا ياسين متخافش، تعالى ده عمك رياض، الراجل اللي قلبه زي الفل، ده بقى يا سيدي أطيب واحد في الدنيا.

-ده بيضربك ويجري وراك علشان يدخلك السجن.

-ده تمثيل يا حبيبي... زي دلوقت كده... مش انت جاي هنا دلوقت علشان تمثل... أهو ده تمثيل... مش حقيقي.

علم القصبجي بما حدث وشاهد خوف ياسين، فاقترب وراح يقبل إسماعيل أمام ياسين ويأخذه في أحضانه، ما أدهش الطفل ياسين:

-هو بيبوسك يا بابي.

أخذ القصبجي ياسين في أحضانه وراح يقبله.

-وهبوسك إنت كمان يا سي ياسين... إنت خايف مني... تعالى تعالى ده إحنا هنبقى أصحاب.

تحرك الإحساس الطفولي داخل القصبجي واستقبله رادار الطفل داخل ياسين وأصبح منذ ذلك الوقت من أحب الناس إلى قلب ياسين، كما كان الأحب إلى قلب اسماعيل.

واجب وطني

على غرار الدور الذي اضطلعت به أغاني المطرب الصاعد بسرعة الصاروخ عبد الحليم حافظ، الوحيد الذي لم يمثل أمام اسماعيل ياسين ربما خوفاً من نجوميته، في توضيح أهداف الثورة والتقريب بينها وبين الشعب، كانت أفلام اسماعيل ياسين تسعى إلى الهدف ذاته، بخلاف بقية الأفلام التي ظهرت في الفترة نفسها، وحاولت تناول الثورة وأهدافها ومبادئها.

على الرغم من طابعها الكوميدي، إلا أن الهدف الوطني كان واضحاً تماماً في أفلام اسماعيل ياسين وهو إذكاء الرغبة لدى الشباب المصري في الالتحاق بالجيش وأسلحته المختلفة، وإشاعة روح الانتماء وإحداث نوع من الالتحام بين الجيش والشعب. كانت هذه النوعية قريبة الشبه بنوعية «أفلام الحرب» التي قدمتها السينما العالمية لحث الشباب على التطوع في أسلحة الجيش المختلفة، والتي ظهرت أثناء الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها.

أفسحت الدولة في المجال لتوظيف شعبية النجم الكبير اسماعيل ياسين في إيصال أهداف ومضامين سياسية إلى الشعب، هكذا أصبح اسماعيل أحد أهم نجوم عصره وأغزرهم عطاءً وأغلاهم أجراً، لدرجة أنه أصبح يمثل «إنتاج السينما المصرية»، فقد قدم مجموعة من الأفلام لم يسبق لفنان غيره تقديمها، ما جعله يحقق هدفاً سامياً جديداً، إذ أتاح فرص عمل للفنانين والفنيين وتشغيل الاستوديوهات والمعامل والعاملين فيها باستمرار وتشغيل دور العرض على مدى سبع حفلات يومياً.

تهافت المنتجين

ولأن اسماعيل ياسين فنان حقيقي وكبير، لم يكن يستطيع رفض أي أعمال تعرض عليه، خصوصاً عندما شعر بأن كثر يعتمدون عليه في فتح بيوتهم، لدرجة أن المنتجين كانوا ينتظرونه على الطرقات أثناء خروجه من البلاتوه ليدخل آخر، وينتهزون الفرصة لطلب توقيعه على عقود أفلامهم، وكان يضطر أمام إلحاحهم على الموافقة وتوقيع العقود.

لم يكن اسماعيل يهتم أو يشترط أداء دور البطولة المطلقة، بل أدى أدواراً ثانية وثالثة ودور «السنيد»، وكان يقتصر دوره أحياناً على أن يكون «صديق البطل» الذي يبثه شكواه أو يعلن له حبه لفتاة لا يستطيع الوصول إليها أو يستشيره للخروج من الورطة التي وقع فيها، لدرجة أن فريد الأطرش حين أراد تصوير فيلم في تلك الفترة عرض على اسماعيل ياسين مبلغ ١٥ ألف جنيه، على أن يتفرغ لمدة ١٥ يوماً لتصوير دوره في الفيلم، لكن اسماعيل اعتذر بلطف

لأن فريد كان من أعز أصدقائه، وأكد له أنه لن يستطيع فعل ذلك، فأمامه ارتباطات لخمسة أفلام ما اضطر فريد الأطرش إلى تأجيل تصوير فيلمه حوالى شهر ليتمكن اسماعيل من التفرّغ له!

ذات يوم سافر اسماعيل إلى الإسكندرية لتصوير أحد أفلامه هناك، مصطحباً أسرته معه لأنه لم يعد يراها أو يجلس معها، قصد موقع التصوير في اليوم الأول ووقف أمام الكاميرا بالقرب من كورنيش الإسكندرية، وما إن قال المخرج» اكشن» ودارت الكاميرا، حتى فوجئ العاملون في الفيلم باسماعيل يصرخ قائلا:

-أبويا.. أبويا.

ولم يكن هذا الكلام ضمن الحوار ولم يتضمن المشهد أباً ينادي عليه إسماعيل، فسأله العاملون سبب تفوهه بهاتين الكلمتين فأشار إلى رجل وامرأة يجلسان أمام أحد البارات، على طريق كورنيش الإسكندرية، وكانا في حالة سكر واضح.

كان الرجل والد الفنان اسماعيل ياسين، فتوقف التصوير بعدما توجه اسماعيل إلى والده وأصرّ على اصطحابه إلى أحد الفنادق، وبعدما أفاق هذا الأخير من سكره أعطاه نقوداً وطلب منه السفر فوراً إلى السويس، وما كاد اسماعيل ينتهي من تصوير الفيلم حتى لحق به وهناك تولى بنفسه تصفية محل والده بعدما وجده فارغاً، واتفق معه على أن يخصص له راتباً شهرياً قدره ٤٠ جنيهاً يساعده على مواجهة التزاماته، وظل الأمر كذلك حتى تُوفي الأب بعد عامين، فبكاه اسماعيل طويلا وحزن على فراقه، فقد أحبه إلى درجة لا توصف وحاول أن يعوضه عما فات ويغدق عليه الأموال وينقذه مما وقع فيه... ولكنه القدر.

تفكير في المسرح

بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٢ مثل اسماعيل ياسين ٧٥ في المئة من الأفلام التي صورت في تلك الفترة... وهو رقم قياسي لم يحدث مع ممثل في تاريخ السينما العربية... لغاية اليوم!

قدم اسماعيل نماذج متنوعة ابتداء من دور الصعلوك إلى دور الرجل الثري وصاحب الأعمال، وقد تتشابه الأدوار أحياناً ولكن بأفعال مختلفة.

كتب أبو السعود الأبياري غالبية الأفلام التي مثلها اسماعيل غير أنه عمل مع مخرجين لم يكونوا مؤهلين دائماً للإخراج الكوميدي... بمعنى آخر كانوا يفتقدون إلى الحس الكوميدي وروح السخرية، وكان كل هدفهم الربح واستغلال» فترة الرواج التجاري» لاسم إسماعيل يس الذي بات مطلوباً ومسوقاً لأي عمل قبل أن يُعرف مضمونه، بل كان الاتفاق يتم على أساس اسم اسماعيل ياسين أولا، ثم تأتي بعد ذلك «العناصر الأخرى» من قصة وإخراج وتصوير وممثلين!!

ولكن قبل أن ينقضي عام ١٩٥٤، توقف إسماعيل يس وسأل نفسه:

-ياه يا اسماعيل... عمرك كنت تحلم باللي انت حققته ده... الحمد لله ...مفيش حاجة معملتهاش... لدرجة إني مبقتش عارف إيه تاني ممكن أقدمه.

-أيوه عندك حق... لازم بقى أقف شويه وأشوف إيه اللي لازم يتعمل وإيه اللي ميتعملش... وإيه اللي أنا عايزه من السينما.

كانت فكرة المسرح تشغل بال اسماعيل، وفكر في طرحها على الأبياري.

ذات مساء كانا معاً في حفلة أقيمت في «حديقة الأندلس» قدم خلالها اسماعيل منولوجات أمام مجلس قيادة الثورة على رأسه محمد نجيب، وكان رئيساً للجمهورية آنذاك وجمال عبد الناصر، ولقي مونولوج «عشرين مليون وزيادة «نجاحاً كبيراً، ونال تهنئة الجميع بعد اختتام وصلته، فقبله أبو السعود وقال له:

-عندك كل الشعبية دي وساكت؟!

-مش فاهم يعني اعمل إيه... ما أنا بغني أهه.

-أقصد دلوقت لك اسم كبير وجمهورك غفير، وعيب قوي مايكونش في مصر غير مسرح كوميدي واحد اسمه «مسرح الريحاني»، إنت دلوقت متقلش شهرة عن الريحاني الله يرحمه، ليه ما يكونش عندك فرقة مسرحية باسمك يبقى اسمها «فرقة اسماعيل ياسين» أو «مسرح اسماعيل ياسين»، وأنا واثق من نجاحها وعلى استعداد لكتابة أعمالها المسرحية.

أعجب اسماعيل بالفكرة تماماً، ولكنه قال لـ أبو السعود:

-لكن الفكرة دى محتاجة مسرح وإحنا معندناش مسرح وده يتكلف كتير.

-المهم الأول انت موافق على الفكرة في حد ذاتها؟

-طبعا.. بكل قوة ورغبة!

-خلاص سيب الموضوع ده عليّ.

-ماشي وأنا تحت أمرك في اللي تطلبه... وهعمل كل اللي أقدر عليه.

غير أن أبو السعود لم يبدأ البحث عن المسرح، بل عن المسرحية واستطاع تحديد أفكار أكثر من مسرحية.

اختمر المشروع في وجدان اسماعيل ياسين ووجد أنه والابياري سيكونان ثنائياً رائعاً ومثمراً، خصوصاً أن الأخير هو المؤلف «الملاكي» لغالبية أفلام اسماعيل آنذاك.



إسماعيل يس حكاية رجل حزين مغامرات الحلقة(٢٤)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
مغامرات.....

مغامرات

القاهرة - ماهر زهدي

اتفق الشريكان إسماعيل ياسين وأبو السعود الإبياري على تنفيذ الفكرة، وساعدتهما الظروف والمناخ الثقافي والاجتماعي، فياسين نجم في أوج تألقه وعلى الساحة المسرحية لا يوجد مسرح يجذب الجماهير التي كان اتجاهها الرئيس آنذاك نحو السينما.

كانت الفرقة المصرية الحديثة تعمل على مسرح الأزبكية (القومي) وتقدم أعمالاً معادة ليوسف وهبي ومسرحيات عزيز أباظة الشعرية، فيما ضمّت فرقة المسرح التي نشأت عام ١٩٥٢، بعد قيام الثورة، بين صفوفها شباب المسرح خريجي معهد التمثيل العالي ولم تقدم في موسم ١٩٥٣ سوى ثلاث مسرحيات من إخراج عبد المنعم مدبولي وأخرى من إخراج كامل يوسف، أما «مسرح الريحاني» فكان يجتر نجاح مسرحيات سبق أن قدمها مؤسسه وتفتقد «روح» صانعها برحيل نجيب الريحاني عام ١٩٤٩ عندما كان يصور آخر أفلامه «غزل البنات!«

نشأت الفرقة كشراكة فنية بين أبو السعود الإبياري واسماعيل ياسين، رأسمالها عشرة آلاف جنيه. وبعد إعلان الشركة بدأ البحث عن المسرح، وكان ذلك دور ياسين إضافة إلى اختيار أعضاء الفرقة، فيما بدأ أبو السعود ينهي كتابة أول مسرحية.

ونشرت الصحف الخبر: «إسماعيل يس وأبو السعود الإبياري يؤلفان فرقة مسرحية .«وجاء الخبر بالتفاصيل التي تؤكد تعاقد ياسين والإبياري على تشكيل فرقة مسرحية تبدأ عملها في الموسم المقبل بتقديم روايات كوميدية من تأليف الإيباري وبطولة ياسين، وأن الفرقة الجديدة سيكون اسمها «فرقة إسماعيل يس المسرحية»، وستتعاقد مع كبار الفنانين، ومن المنتظر أن ينضم إليها كمال الشناوي ومن المسرح الحر توفيق الدقن وشكري سرحان، ومن المخرجين السيد بدير، محمد توفيق، عبد المنعم مدبولي، ونور الدمرداش في أولى محاولاته الإخراجية.

طلب ياسين تحديد موعد لمقابلة الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومي للتفاهم معه على تدبير مسرح للفرقة الجديدة، وتخصيص «مسرح حديقة الأزبكية» للفرقة!

يُلاحظ في صياغة الخبر قوة اسم ياسين، فهو سيطلب من وزير الإرشاد القومي أن تتخلى فرقة الحكومة عن مسرح الأزبكية الذي تعمل عليه، وطلب تحديد موعد مع الوزير للتفاهم على ذلك.

جاء حلّ مشكلة الفرقة الوليدة بتدخل من وجيه أباظة، أحد الضباط الأحرار، الذي أقنع صاحب «سينما ميامي» الصيفية في وسط القاهرة بتأجيرها للفرقة لإعداد المكان ليصبح دار عرض مسرحياً.

الفرقة الوحيدة

في هذا الجو المتفائل ارتفع الستار في ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٥٤ عن أول عمل مسرحي تقدمه الفرقة الجديدة باسم «حبيبي كوكو»، لتبدأ موسمها الأول حيث قدمت ست مسرحيات بمعدل مسرحية كل شهرين تقريباً.

ولقيت عروض الفرقة نجاحاً يفوق التوقعات، واستطاعت خلال أشهر من عملها استقطاب نجوم مسرح الريحاني، للعمل في فرقة إسماعيل ياسين بعد أن أغراهم برواتب أكبر.

بعد افتتاح الفرقة بما لا يزيد على ثلاثة أشهر، انضم إليها الفنان حسن فايق، الذي كان يتقاضى آنذاك ٥٠ جنيهاً مصرياً في فرقة الريحاني كراتب شهري، تخصم منه الإجازات والأيام التي لا يعمل فيها، فاتفق معه الإبياري على راتب قدره ٢٥٠ جنيهاً شهرياً، أي خمسة أضعاف ما كان يأخذه من فرقة الريحاني، وأكد له أنه سيأخذ المبلغ بانتظام طوال موسم الفرقة المسرحي، حتى لو لم يكن له دور في الرواية التي تعرض على المسرح، ولن تُحسم منه أيام العطلة والإجازات.

كذلك فعل الإبياري وياسين مع استيفان روستي، وعبد الفتاح القصري ومحمد كمال المصري أو «شرفنطح» وغيرهم من نجوم فرقة الريحاني، ما أوقع مدير الأخيرة الكاتب بديع خيري في مشاكل كثيرة، واضطر أن يدعو الإبياري بوصفه مدير فرقة ياسين إلى اجتماع، يقرران فيه إيقاف التسابق نحو التعاقد مع الممثلين بهذا الشكل، فقد بدأ الممثلون كلهم يطالبون برفع أجورهم بشكل غير معقول.

وقع الإثنان اتفاق تعاهد بألا يخطف أحدهما الفنانين الذين يعملون لدى الآخر، وعدم زيادة أجر فنان عن حد مقرر، لأن هذا يؤدي إلى زيادة أجور الفنانين الآخرين بشكل مبالغ فيه. هكذا بدأ تحديد ضوابط العمل لمنع المنافسة التي كانت تلتهم غالبية الإيرادات.

آنذاك عمل كثير من الممثلين الكبار والمشهورين مع فرقة ياسين، وكانت من بينهم سميحة أيوب والفنان محمود المليجي والممثلة والراقصة لولا صدقي والراقصة تحية كاريوكا، التي أخذت هذا المسرح في ما بعد وأنشأت عليه فرقتها.

كذلك عمل في الفرقة محمد شوقي وحسن مصطفى وزوزو نبيل وسناء جميل وعايدة كامل وزينات صدقي وزوزو شكيب، وعشرات من نجوم السينما والمسرح.

ظلت الفرقة تعمل على مسرح ميامي في القاهرة طوال فترة الشتاء، وحين يأتي الصيف كان ياسين يسافر إلى الإسكندرية لافتتاح «مسرح إسماعيل ياسين» هناك وكان الإبياري يقدم مسرحية جديدة شهرياً، ما أدى إلى إقبال جماهيري شديد، وكانت إيرادات الفرقة جيدة دائماً وتعطي أجور الممثلين وتترك هامش ربح جيداً لياسين وأبو السعود أو لشركتهما الفنية!

واكب نجاح ياسين المسرحي نجاحه السينمائي، والعكس صحيح، فحين أحبه الناس في السينما أحبوا أن يشاهدوه شخصياً على المسرح، ما أدى إلى زيادة الإقبال على أفلامه.

الفنان الأشهر

عبر أعماله المسرحية، أعاد ياسين إلى المونولوج حيويته وجدد فيه، ليصبح أحد أهم رواده، إذ غير في مواضيعه، وجعله يعيش في أذهان الناس ومخيلتهم فترة طويلة، خصوصاً بعد توقف معظم من قدموه، ليبقى ياسين وحيداً على الساحة، الأكثر صيتاً، والأشد بريقاً. وأصبح غناؤه المونولوج مقصوراً على الأفلام.

كان يكتب المونولوج لياسين في أفلامه أشهر زجالي مصر وكتاب الأغنيات والشعراء، من بينهم: محمد عبد المنعم «أبو بثينة»، محمد أنور نافع، عبد العزيز سلام، محمود فهمي إبراهيم، مصطفى السيد، السيد زيادة، أحمد عبد الله، جليل البنداري، فتحي قورة، عبد الفتاح

شلبي، أبو السعود الإبياري، وابن الليل.

وكان يلحنها أشهر الملحنين، بدءاً بالموسيقار محمد عبد الوهاب، ومروراً بفريد الأطرش، محمد فوزي، محمود الشريف، أحمد صدقي، عزت الجاهلي، محمد البكار، عبد العزيز محمود، محمد أمين، علي فراج، فريد غصن، أحمد صبرة، محمد الكحلاوي، منير مراد، وانتهاءً بياسين الذي جازف ولحن مونولوغات لنفسه أحياناً.

كان ياسين يعتمد على موهبته كثيراً، بشخصيته الساحرة... قوة حضوره، حركات جسمه السريعة، طريقة نطقه ومطه للكلمات، ومعرفته أين يقف ومتى يبدأ، فكان يربط بينه والجمهور خيط سحري، لا سيما أنه يعرف متى «يفجّر» النكتة وكيف يؤديها.

تراجع سينمائي

خلال تلك الفترة قدمت الفرقة ٥١ مسرحية، بين القاهرة والإسكندرية، كلها من تأليف الإبياري، وتناوب على إخراجها كل من السيد بدير الذي كان له النصيب الأكبر ومحمد توفيق ونور الدمرداش. وتواصل نجاحه في المسرح والسينما إذ قدّم في الموسم المسرحي (نوفمبر ١٩٥٤ ـ نوفمبر ١٩٥٥) خمس مسرحيات جديدة يقابلها في السينما ستة أفلام، وقرر تحديد عدد الأفلام التي سيظهر فيها سنوياً كي لا يتعارض عمله السينمائي مع عمله المسرحي الجديد. وفي عام ١٩٥٥ هبط خط مساهماته في السينما إلى ستة أفلام، وفي عام ١٩٥٦ العدد نفسه، لكنه في الوقت نفسه قدّم ست مسرحيات جديدة في عام واحد، واستمرت الفرقة في تقديم عروضها طوال العام، شتاء في القاهرة، وصيفاً في الإسكندرية.

كان ياسين يخطو في السينما من نجاح إلى آخر، وبدا التنوع كبيراً في أعماله السينمائية، وحاول بعض المخرجين دفعه إلى تقليد نجيب الريحاني، خصوصاً في الأفلام المقتبسة عن مسرحيات الأخير، مثل فيلم «الدنيا لما تضحك، الستات ما يعرفوش يكدبوا، كدبة أبريل، صاحبة العصمة»، لكن ياسين رفض ذلك تماماً، ليس تقليلاً من شأن الريحاني، بل لأنه هو أيضاً يملك الأسلوب والمدرسة، وقدم الأفلام بطريقته الخاصة ولم يحاول، على رغم الإغراءات، تقديم مزيد منها!

فجأة تكاثرت على ياسين أدوار المرأة في عدد كبير من الأفلام، فقدم «الست نواعم، الآنسة حنفي، ليلة الدخلة، مملكة النساء، إسماعيل يس في مستشفى المجانين، دهب، مغامرات إسماعيل يس، فاعل خير»، وقد نجح نجاحاً مذهلاً في أداء هذه الشخصية بملامحها وحركاتها وتنوع دور المرأة فيها، وأدى ذلك من دون ابتذال أو خروج عن حدود اللياقة والأدب، لكن لما زاد الأمر على الحد واقترب من أن يصبح ظاهرة جديدة، إذ وجد المنتجين والمخرجين يقبلون عليه مجدداً بعقود أفلام يقدم فيها دور المرأة، اضطر ياسين إلى التوقف عن أداء هذا الدور، بل إن الرقابة على المصنفات الفنية نفسها في مايو (أيار) عام 1958 أنذرت منتجي أفلام ياسين بأنها سترفض أي قصة يظهر فيها الأخير في دور امرأة.

كذلك قدّم ياسين الكوميديا السوداء التي يختلط فيها الحزن بالضحك والجد بالهزل مثل «إسماعيل يس في جنينة الحيوان» الذي قدمه في عام ١٩٥٧، فلم يتقبل الجمهور بسهولة صورته الجديدة فقد وقف بناؤه الجسدي وشكله العام وصورته حائلاً أمام تقبل الناس دور العاشق والقاتل الذي يفكر في تدبير جريمة.

سكرة النجاح

لعل سوء حظ ياسين يكمن في أنه كان طيب القلب، ولم يكن يهمه ما يقدمه بل» أسكره النجاح» الذي حظي به، وحتى الأصدقاء من الكتاب والمخرجين، لم يجدوا فيه سوى «الدجاجة» التي تبيض ذهباً فحاول كل منهم استغلالها للحصول على أكبر «مكاسب» بغض النظر عن تأثير ذلك على ياسين كفنان وإنسان.

تعرض ياسين إلى «التعليب» كماركة مسجلة فلم يكن مطلوباً منه أكثر من» الشوية بتوعه وخلاص»، حتى من خلال الإذاعة في مسلسل رمضاني، إذ لم يحاول أحدهم استغلال قدراته الفنية على رغم أن إمكاناته كانت كبيرة، فيكفي أنه قدم في «دهب» و{اسماعيل يس في الطيران» مثلاً مشاهد تمثيلية لا تعتمد على الكلام، بل على الأداء الحركي التمثيلي وقدرة الممثل على إيصال ما يريده إلى الجمهور. ولم يكن الأداء «البانتوميم» معروفاً آنذاك.

كذلك قدّم ياسين دور «الشبيه»، واستطاع أن يحتفظ لكل شخصية بمقوماتها وتفردها في أفلام «المليونير، الست نواعم، إسماعيل يس في الطيران.«

كان ياسين ليعطي أكثر لو وجد من يجيد توظيفه في أفلام ذات مضامين وقيم إنسانية، ولعل أفلام مثل «إنسان غلبان، الآنسة حنفي، المفتش العام» أكبر دليل على ذلك، فأداؤه فيها أشار إلى أصالة موهبته وقدرته على الدخول في إهاب الدور وتقمصه.

هبوط المنحى

شهد عام ١٩٥٨ ارتفاعاً جديداً لمشاركات ياسين السينمائية، من ستة أفلام إلى تسعة أفلام سنوياً، وتكرر العدد نفسه في العام التالي ١٩٥٩، وزاد الإقبال عليه مجدداً، حتى أصبح يتنقل بين ستة استوديوهات أو سبعة مواقع عمل يومياً، لأنه كان يمثل في أكثر من ستة أفلام شهرياً، وكان مخرجو هذه الأفلام يعقدون اجتماعات يومية لتنظيم مواعيد العمل، وقفز أجر ياسين من خمسمئة إلى خمسة آلاف جنيه، عن الفيلم (أغلى الأجور آنذاك)، وبات عدد من النجوم والمنتجين يرفض تصوير فيلم ما إلا إذا شارك ياسين فيه، وكان من بين هؤلاء أنور وجدي الذي شاركه في أفلامه كافة، والموسيقار فريد الأطرش الذي شاركه بطولات معظم أفلامه التي أنتجها.

في حقبة الستينات بدأ منحنى مسار ياسين الفني بالهبوط، وكانت البداية في السينما، فبعد تقديمه في عام ١٩٥٩ تسعة أفلام، تراجع في عام ١٩٦٠ إلى ستة أفلام، وفي هذا العام ضرب ياسين مثالاً للحب والوفاء والتضحية، عندما أراد صديقه الفنان عبد السلام النابلسي تقديم أول بطولة مطلقة له عبر فيلم من إنتاجه، كتبه أبو السعود الإبياري وأخرجه فطين عبد الوهاب، وهنا قبل ياسين المشاركة في الفيلم الذي لم يحقق النجاح المرجو منه بالدور الثاني.

ثم فجأة حدث الهبوط الحاد في العام التالي (١٩٦١) وقدّم ياسين فيلمين، والرقم نفسه في العام الذي يليه، ثم مجرد فيلم عام ١٩٦٣!

فرق تلفزيونية

في عام ١٩٦٤ لم تُعرض أي أفلام لياسين، ثم عاد في عام ١٩٦٥ ليقدم فيلماً واحداً! وانعكس الأمر على المسرح، فلم يقدم فيه في موسم ٦٢/٦١ سوى مسرحيتين... بعد أن كان يقدم أكثر من ست مسرحيات موسمياً... ماذا حدث؟

أدّت أسباب عدة شخصية واجتماعية وسياسية إلى هذه النهاية، ففي عام ١٩٦٠ ظهر التلفزيون في حياتنا وأصبح متعة كبيرة وأصبح الحلم حقيقة، واستأثرت البرامج بعيون الناس وساعات فراغهم.

لكن الكارثة الحقيقية التي أصابت الفرق المسرحية غير الحكومية، سواء تلك التي تقدم عروضاً غير منتظمة كـ{جمعية أنصار التمثيل» أو عروضاً منتظمة مثل» إسماعيل يس» و{الريحاني»، والتي كانت تعتمد في الوقت نفسه على تغطية تكاليفها من شباك التذاكر... هذه الكارثة - القنبلة كانت في إنشاء التلفزيون فرقه المسرحية المختلفة.

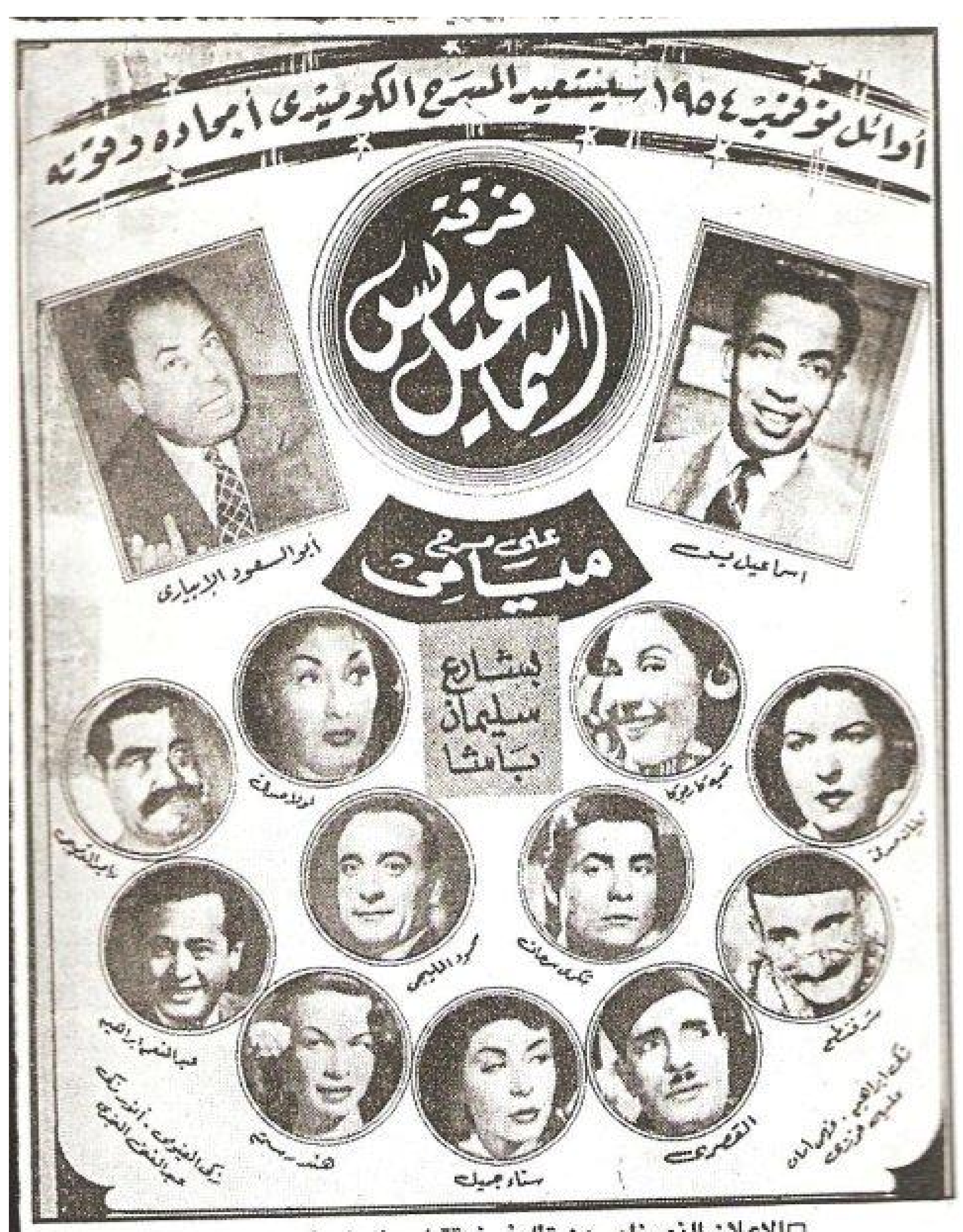
أنشئت هذه الفرق أساساً لتغذية التلفزيون بعروض تشغل ساعات الإرسال الطويلة ومنح فرص عمل لشباب المسرح والفنيين. وصاحبت إنشاءها دعاية ضخمة وظهور جيل جديد من نجوم الكوميديا الدارسين، فضلاً عن الأسعار الزهيدة لأثمان تذاكر الدخول إلى مسرح التلفزيون (باعتباره مسرح الدولة) مقارنة بفرقة إسماعيل أو الفرق الخاصة، إضافة إلى سرعة تغيير الروايات أسبوعياً ما ساعد في تألق عدد كبير من نجوم التلفزيون، وظهور جيل جديد من نجوم الكوميديا من بينهم محمد عوض، أبو بكر عزت، فؤاد المهندس، وشويكار، ناهيك عن الاستعانة بنجوم فرقة «ساعة لقلبك» الإذاعية مثل فؤاد المهندس، خيرية أحمد، محمد أحمد المصري، أبو لمعة، فؤاد راتب، الخواجة بيجو، محمد يوسف «المعلم شكل«، الدكتور شديد، الكاتب يوسف عوف، والمخرج والممثل عبد المنعم مدبولي.

وزادت جرعة الثقافة المسرحية والسينمائية بظهور المجلات المتخصصة والفرق المسرحية الجديدة التي بلغت ١٠ فرق.

أدت النشاطات المسرحية وظهور جيل جديد من الكتاب والمخرجين والفنانين إلى توجه الجماهير إلى الجديد لما لمسوه فيه من تنوع أساليبه في الأداء وفنون العرض المسرحي، وأدت هذه الظروف، إضافة إلى تأميم الشركات والبنوك، إلى ارتفاع الأسعار وزيادة أجور الفنانين وتكاليف إعداد الأعمال الفنية سواء في السينما أو المسرح.

لم يصدق ياسين ما يحدث... بعد ١٨ فيلماً سنوياً، يصل الأمر إلى فيلم فقط، أو ربما يمر العام من دون أن يقف أمام كاميرات السينما؟ الواقع نفسه ينطبق على المسرح، فقد انصرف عنه الجمهور، ولم يعد ياسين يقدم سوى مسرحية سنوياً!

شعر ياسين أن خطراً ما يحدق به، ولا بد من معرفة الأسباب.



الاعلان الذي ظهر عن تاليف فرقة اسماعيل ياسين



إسماعيل يس حكاية رجل حزين قليل البخت (الحلقة٢٥)

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
قليل البخت

القاهرة - ماهر زهدي

أثر تغير شكل الحياة سياسياً وثقافياً واجتماعياً في مصر خلال فترة الستينات بشدة على عالم الفن، فقد ظهر جيل جديد من الكتاب والمؤلفين في جميع المجالات، في القصة والرواية والمسرح والسينما، وباتت الأشكال الفنية مثل السينما والمسرح تحديداً تعتمد على الأدب المصري والكتاب المصريين بعيداً عن الترجمة أو ما يطلق عليه «التمصير»، فضلاً عن ظهور التلفزيون الذي غير وجه الحياة الثقافية والفنية، ما شكّل بالتبعية أجيالاً جديدة من الفنانين، خصوصاً نجوم الكوميديا.

لم تحاول الفرق الخاصة مثل «إسماعيل ياسين» و{نجيب الريحاني» مسايرة المناخ الثقافي والاجتماعي الجديد، بل حافظت على ما بدأت به، وكانت الوجوه نفسها تقريباً.

أمر آخر كان الأهم في ما يتعلّق بياسين تحديداً، فاقتصاره وفرقته طوال هذه السنوات على مؤلف واحد (أبو السعود الإبياري) يغذي الفرقة بالمسرحيات ويسهم في السينما بتأليف الأفلام وكتابة الأغنيات، لم يكن يتيح له الوقت للتجديد أو تقديم أعمال تنافس وتنتشر.

أبو السعود الإبياري الذي كان قدّم عملاً أسبوعياً لفرقة «بديعة مصابني» في الأربعينات وقبلها، هو نفسه من أعطى فرقة إسماعيل ياسين خمسة أو ستة عروض موسمياً، إضافة إلى عدد آخر من أفلام سينمائية، كتب لها القصة والسيناريو والحوار... والأغنيات!

كان الإبياري يعتمد على قدرته الفائقة على تمصير الأعمال الأجنبية لمسرح» الفارس»، وتحويلها إلى مجرد أعمال كوميدية «هزلية» خالية من أي مضمون سوى الضحك!

بدأت تأثيرات هذه الظروف والملابسات تظهر على فرقة ياسين، ما جعل الجمهور ينصرف عنها، خصوصاً أن بدائل كثيرة باتت متوافرة، بالتالي لم يعد يتوافر دخل يضمن للفرقة استمرارها، حتى تراكمت عليها الديون، ولم يعد ياسين قادراً على سداد هذا العجز من السينما، ولم تكن حال الأخيرة بالنسبة إليه أفضل من المسرح!

الديون تهاجمه

حاول عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإرشاد القومي (الثقافة والإعلام معاً) آنذاك مساعدة الفرقة، فوقف إلى جانبها دعماً لوجودها وتقليلاً لمشاكل صاحب المسرح مع الفرقة عندما حاول طردها لتراكم الإيجار عليها، بل إنه وبعد تأميم المسرح جعل الإيجار رمزياً، وصرف للفرقة منحاً مالية للاستمرار في العمل وقدم لها مساعدات غير مباشرة، عندما قرر دعمها إعلامياً بإذاعة ثمانية إعلانات تلفزيونية لها شهرياً ومجاناً.

سجل التلفزيون بعض المونولوجات لياسين ومسرحيات الفرقة، بل وجرت محاولات لضم الأخيرة إلى مسارح التلفزيون، وأتيح لياسين الغناء من خلال حفلات التلفزيون الشهرية، فعاد إلى المونولوج عام ١٩٦٣، واستقبله الجمهور بحرارة.

مرارة

للأسف، لم يتحقق الكثير من هذه الوعود، ما جعل ياسين ينفجر غضباً وراح ينشر مشكلته على صفحات الصحف والمجلات، بكلمات مغموسة بالمرارة والغضب، تنهمر من الفم الذي

أطلق مئات النكات، وأضحك الملايين:

»هو فيه كام إسماعيل يس تاني علشان يحاربوني كده؟! أنا رفعت قضية على التلفزيون بطالب بمائة ألف جنيه... حقي في المسرحيات اللي سجلوها وباعوها للبلاد العربية... بيبيعوا الدقيقة بـ ١٣ جنيهاً ونص... وباعوا ٥١ مسرحية من مسرحياتي! وكمان الـ ٥١ مسرحية مسجلها التلفزيون، محاولوش إنهم يعرضوا أي مسرحية منها خلال سبعة أشهر. ليه بيعاملوني كده هو أنا من «الاسكيمو»؟ كفاءتي قاعدة في البيت مقفول عليها أوضة أنا لي سنتين ما بشتغلش في السينما. أعمل إيه!؟.«

بهذه المرارة القاسية تحدّث ياسين! وكان آنذاك أحد الأصدقاء المقربين لخالد نجل الزعيم جمال عبد الناصر، لكن نفسه أبت أن يشكو لرئيس الجمهورية أنه لا يعمل!

وفي منتصف الستينات بدأ الميزان يميل إلى الكفة الأخرى... بدأ العد التنازلي نتيجة ضربات قاسية تعرّض لها ياسين سواء في عمله أو صحته أو حظه .كانت المفاجآت كثيرة، أولها أنه وجد فطين عبد الوهاب، مخرج أفلامه كافة تقريباً، الذي كان لا يخرج فيلماً إلا ويشترط وجود ياسين فيه بطلاً أو يقوم بأحد أدوار البطولة، أصبح يخرج أفلاماً كثيرة متناسياً هذا الأمر.

أحس ياسين بأن عبد الوهاب بدأ يشترط عدم وجوده في الأفلام، وقرر البحث عن السر وراء اسبعاده عن أفلامه، بعد أن أمضيا معاً أكثر من ١٠ أعوام صورا خلالها ما يزيد على مئة فيلم، حققت لعبد الوهاب قبل ياسين حضوراً مهماً، ورفعت اسمه إلى السماء.

بعد البحث والتدقيق، وجد ياسين أن عبد الوهاب كان مظلوماً، فقد ظل يضع اسمه في أعماله الفنية ويرشحه سواء للبطولة، أو لدور كوميدي مهم، فيما راح المنتجون والموزعون يرفضونه لأنه لم يعد يعني شيئاً في سوق السينما، في نظرهم!

في البداية رفض ياسين تصديق هذا الواقع، لكنه تأكد من الأمر عندما لاحظ أن إيرادات فرقته المسرحية في انخفاض، وشعر نجوم الفرقة بذلك فتركها حسن فايق وتبعه استيفان روستي ثم عبد الفتاح القصري، وهبطت الإيرادات هبوطاً ملحوظاً، وكان من المفروض أن يتقاضى ياسين والإبياري راتباً قدره خمسمائة جنيه شهرياً لكل منهما، ثم تحسب أرباح الفرقة في نهاية العام، لكن ياسين فوجئ بأن أرباحه في آخر موسم صيفي أحياه في الإسكندرية ١٩ جنيهاً فقط، ما جعله يبدأ في إعادة حساباته... ثم جاء الموسم الشتوي، واضطر إلى التعاقد مع عدد من الهواة، فقد رفض النجوم العمل معه وكانوا يقولون إنه بدأ يُفقدهم نجاحهم ، ويريد الاستئثار وحده بإضحاك الناس!

تأثر ياسين بهذا الواقع وبدأ يختفي في الوقت نفسه عن شاشة السينما وفن المونولوج ونصحه بعض أصدقائه بإغلاق المسرح لأنه لم يعد يجني الأرباح، لكن ياسين رفض النصيحة، واعتبر أن البعض يريد خروجه من إطار المنافسة، وكان لا يزال مؤمناً بشدة بأن عليه أن يبذل كل ما يستطيع من جهد لإحياء المسرح الكوميدي، على رغم معرفته التامة أن فرقة «الريحاني» باتت تنوء بثقل الخسائر، وأن الكسار التحق كممثل بفرقة المسرح الشعبي وأغلق مسرحه.

مرض النقرس

فعلاً عاد الجمهور إلى المسرح، واستطاع ياسين جذبهم إلى مسرحه مجدداً وفي أكثر من

موسم، حتى أنه حقق أرباحاً، لكن الأمر عاد إلى وضعه السيئ بعد ظهور فرق التلفزيون التي كانت تفتح أبوابها للجماهير بقروش قليلة، وعادت فرقة ياسين لتتعرض لخسائر فادحة ومتوالية، وأصبح معظم النجوم يعمل في مسارح التلفزيون وبأجور خيالية، مقارنة بأجور ذلك الوقت.

تقدم ياسين مع شريكه الإبياري بشكوى إلى المسؤولين في التلفزيون لعلهم يعوضون بعض خسائره، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، وبدأت المواسم المسرحية تسير من سيئ إلى أسوأ، ومن دون أن يفكر المسؤولون عن المسرح في إنقاذ «فرقة إسماعيل ياسين» من الانهيار، حتى عجزت ميزانية ياسين عن تغطية خسائره وشريكه الإبياري، وبدأ الاثنان يستقبلان المحضرين من وكلاء الدائنين يومياً، وبدأت مصلحة الضرائب توقع الحجز التحفظي على بعض ممتلكات ياسين وحسابه في البنوك.

في هذا الوقت جاءت إليه الهموم الكبرى على شكل مرض، بل ربما مجموعة من الأمراض بدأت تتسرب إلى بدنه، وتصيب شريكه الإبياري أيضاً، وكان معظمها بسبب التوتر العصبي والإرهاق النفسي.

في أغسطس (آب) عام ١٩٦٦ عاد ياسين، وقدّم «سيدتي العبيطة» على مسرح» إسماعيل ياسين» في الإسكندرية، رداً على مسرحية فؤاد المهندس وشويكار» سيدتي الجميلة»، وفعلاً نجحت المسرحية وحققت إقبالاً متميزاً من الجمهور، أسعد ياسين.

في أحد الأيام رنّ الهاتف، وأجاب ياسين. إنه صديقه المؤلف أبو السعود الإبياري:

-الحق يا إسماعيل.

-إيه فيه إيه يا أبو السعود.. إيه اللي حصل؟

-الممثلين في الفرقة أعلنوا إنهم مش هيدخلوا المسرح أو يمثلوا.

-ليه... إيه اللي حصل؟

-بيقولوا إنهم مش هيشتغلوا إلا لما ندفع لهم مرتباتهم المتأخرة.

تذكر ياسين موقفه مع فرقة «أمين عطا الله» في بيروت قديماً، وشعر أنها بداية النهاية.

سقوط على المسرح

فجأة ظهرت مصيبة جديدة في حياة ياسين بعد أن استيقظت مصلحة الضرائب من نومها وتذكرت أنه لم يسدد ضرائب عن أرباحه ودخله منذ عام ١٩٥٥، وطالبته بسداد مبلغ طائل لا يملكه في هذه الظروف، فساءت حالته الصحية وتمكنت الأمراض من جسده المنهك وهاجمته بقسوة.

خلال أدائه دوره في المسرحية سقط ياسين على خشبة المسرح من شدة الإرهاق والمرض، ونُقل إلى مستشفى المواساة في الإسكندرية... هاجمه النقرس لأنه كان أدمن تناول اللحوم

للتعويض عن سنوات الفقر والحرمان، وزادت على ذلك أمراض الرئة.

وظل إسماعيل في المستشفى مدة شهرين للعلاج، واضطر الإبياري إلى تسريح أعضاء المسرح بعد أن وعدهم بدفع أجورهم المتأخرة حين ميسرة.

انتظر ياسين خلال مرضه أن تسأل عنه هيئة ما أو نقابة أو جهة مسؤولة، فقد كان الشيء المدهش حقاً آنذاك أنه لم يكن يملك ثمن العلاج والأدوية لأن الضرائب والدائنين حجزوا على كل ما يملك وحتى على رصيده في البنك وعلى إيرادات عمارته في الزمالك، وجاء دور زوجته فوزية لترتيب الأمور، فباعت مجوهراتها واقترضت من بعض المعارف والأصدقاء، وعلى رغم ذلك أخفقت في الدفع في الوقت المحدد، لذلك بقي ياسين في المستشفى أياماً عدة بعد شفائه، وعند خروجه وضع الأطباء له شرطاً:

-حمد الله على السلامة يا أستاذ إسماعيل.

-الله يسلمك يا دكتور.

-لا ده إحنا بقينا عال قوي. صحتنا النهارده بقيت تمام.

-كله بفضل الله وبجهودكم يا دكتور أنا مش عارف أشكركم إزاي.

-ده واجبنا انت فنان كبير وثروة قومية.

-أهو الحب الكبير ده أهم عندي من العلاج.

-أيوه بس مش لازم نهمل العلاج، ويكون في مواعيده خصوصاً إننا هنسمح لحضرتك النهارده بالخروج.

-ده أسعد خبر سمعته في حياتي.

-بس مش هتقدر توقف تاني على خشبة المسرح.

-وده أسوا خبر سمعته في حياتي... ليه يا دكتور مش بقيت كويس خلاص؟

-متنساش يا أستاذ إسماعيل إن مشكلة النقرس هتستمر معاك شوية، وده هيمنعك من الوقوف كتير، وكمان تعب الرئة يمنعك إنك تتكلم كتير أو تجهد نفسك، وانت سيد العارفين إن المسرح محتاج مجهود كبير.

اعتبر ياسين هذا الكلام «حكما بالإعدام» الفني عليه فهو يعني ببساطة الحرمان من عشقه «خشبة المسرح» ومواجهة الجمهور... واعتقد أن القدر ساهم في ذلك بحرمانه من صديق العمر الإبياري، الذي رحل في مارس (آذار) ١٩٦٩.

فشل مسرحي

بعد أن فقد ياسين الأمل في الوقوف ثانية على خشبة المسرح برحيل الإبياري، فوجئ ذات يوم بطلعت حسن مدير فرقة «مسرح عمر الخيام» يعرض عليه القيام ببطولة مسرحية «اتفضل قهوة»، فقبل وشاركه فيها الوجه الجديد سهير رمزي ابنة صديقته القديمة، التي شاركته في أفلام عدة في أيام مجده المطربة درية أحمد، ومعهما ميمي شكيب وصلاح منصور.

لم تكن المسرحية إلا على طريقة المثل الشعبي «الآذان في مالطا» فلم تستقطب الجمهور، ولم يجد ياسين النجاح الذي كان يرجوه ولم ير النقاد في العودة ما يبشر بالأمل أو بجديد على رغم أن ياسين قدّم شخصية جديدة لا علاقة لها بصورته السابقة، لكن بلا جدوى! في أحد أيام العرض لم يتجاوز عدد المتفرجين عدد أصابع اليد فتوقفت المسرحية التي كانت آخر أعمال ياسين.

عادت الكوارث والمصائب تحط على رأس ياسين، وعادت مصلحة الضرائب تطالبه بمستحقات لها بلغت مائة ألف جنيه، ثم تعرّض لحادث مؤلم، فقد اتهم بالقتل حين صدم فتاة صغيرة بسيارته، لكنه أثبت أن الأخيرة خالفت قانون المرور وبرأته المحكمة بعد أن أمضى سنتين متردداً على المحاكم إلى جانب اشتداد مرض النقرس عليه، فأجبره الأطباء على تناول الخضار المسلوقة بالمياه فحسب، ومن دون ملح.

طوق النجاة

جاء طوق النجاة هذه المرة من دولة الكويت، إذ وجهت إليه الدعوة للزيارة والتعاقد معه على تقديم مونولوجاته وأعماله المسرحية هناك، فسافر في آخر مايو (أيار) عام ١٩٦٧ يحدوه الأمل في استعادة بريقه وأمجاده مجدداً، لكن الأقدار كانت له بالمرصاد، فما كاد يحط رحاله في دولة الكويت حتى وقعت الحرب بين مصر وإسرائيل في ٥ يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧!!

ترك ياسين الكويت مضطراً وذهب إلى بيروت للعودة عن طريقها إلى مصر، وفي بيروت عقد بعض الاتفاقات الفنية لتقديم عدد من الأفلام، وكان ذلك بمثابة عودة الروح إليه.

رجع ياسين إلى القاهرة فور التعاقد، ليصطحب معه إلى لبنان، زوجته فوزية وابنه الوحيد ياسين، فهو لا يستطيع العيش من دونهما، ولم يكن الابن أنهى دراسته في المعهد العالي للسينما في قسم الإخراج، لكنه ترك المعهد وسافر مع والده.

وبسبب ظروف الحرب وآثار النكسة وانعكاسها على الأوضاع الاقتصادية والفنية في مصر، هاجر إلى لبنان عدد كبير من فناني مصر، في مقدمهم المخرجان يوسف شاهين وبركات، فاتن حمامة، فريد شوقي، فريد الأطرش، مريم فخر الدين، عماد حمدي، وسبقهم الفنان عبد السلام النابلسي.

!Error



في المستشفى معانياً من النقرس

إسماعيل يس حكاية رجل حزين انطفاء الأنوار... الحلقة (٢٦) والاخيرة

إسماعيل يس
حكاية رجل حزين
انطفاء الأنوار...

الحلقة (٢٦) والاخيرة

خلال وجوده في لبنان لم يجد ياسين الفرصة الحقيقية التي كان في حاجة إليها، والفرص التي أتيحت أمامه لم تعطه الدور الأول أو الثاني أو حتى الثالث، لكن أمام ضغوط الحياة اضطر أن يقبل بها لتسيير حياته، فقد أراد البعض استغلال اسمه، فشارك في «كرم الهوى، لقاء الغرباء، وفرسان الغرام».

من السينما إلى التلفزيون حيث قدم ياسين البرامج وامتد نشاطه إلى المشاركة في الحفلات الفنية وبعض الملاهي والفنادق، ووجدت الإعلانات الدعائية فيه«صيداً»، فسقط في إغرائها وقدم إعلانات تروج لبضائع مختلفة!

خلال هذه الأعمال التي لا ترضي روح الفنان الحقيقي، تولّد الأمل في قلب ياسين وظهرت الرغبة في أن تظل الأضواء مسلطة عليه، فشكّل فرقة مسرحية جديدة تعمل في سورية ولبنان، وشارك معه محمود المليجي، عقيلة راتب، جمالات زايد، هالة الشواربي، وبعض فناني سورية ولبنان، وحاول ياسين أن يعيد مجد الأيام الخوالي التي تجول خلالها في ربوع مدن سورية ولبنان وذاق حلاوة النجاح وصنع له اسما في تاريخ الفن حفره بالجهد والتعب والمثابرة، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، إذ خسر رأس ماله الذي حققه من السينما والتلفزيون، ولم تحقق الفرقة أي نجاح مادي أو فني.

استجابة لمبادرات كثيرة عادت «الطيور المهاجرة»، وهو الاسم الذي أطلق على الفنانين الذين استقروا فترة في لبنان، وعاد معهم ياسين، لكن فجأة تبخرت الوعود.

ومضى زمن طويل لم يسأل أحد فيه عن ياسين، فذهب إلى عبد الحميد جودة السحار الذي كان يتولى منصب رئيس هيئة مؤسسة السينما آنذاك، وشكا له موقف المنتجين والمخرجين منه، خصوصاً أولئك الذين يعملون لحساب المؤسسة وقال له إنه من غير المعقول بعد أن كان يمثل ستة أفلام شهرياً يجد نفسه من دون عمل!

أبدى السحار دهشته، وأكد أنه معجب بموهبة ياسين ولا يحب ممثلاً كما يحبه، ووعده بأن يحقق رغبته في العمل وابتهج ياسين بذلك وانتظر تنفيذ الوعد من دون جدوى، فبدأ يطوف على مكاتب المنتجين، خصوصاً الذين مثل لحسابهم أفلاماً كثيرة سجّلت أرباحاً مادية طائلة، واستقبله هؤلاء استقبالاً طيباً، ووعدوه بالكثير، لكن الوعود لم يكن مصيرها أفضل من وعود السحار!

روح مناضلة

ترك المرض على جسد ياسين الواهن علامات جعلته يبدو وهو في أواخر الخمسينيات، كعجوز في السبعين، لكن المرض لم يستطع الوصول إلى روحه المناضلة، فقد حزن ياسين على ضياع الفرقة التي تحمل اسمه، والكثيرين الذين كانوا «يأكلون عيش» من ورائه، فتوقفه عن الصعود إلى خشبة المسرح أو عدم وقوفه أمام الكاميرات، معناه أن يتشرد بعض الأسر وتنطفئ الأنوار من حول اسمه... وهو الذي ضحى كثيراً خلال مشوار حياته كي يصنع هذا البريق، فلماذا لا تستمر تضحيته ويحاول ثانية؟

عاد ياسين وبدأ مجدداً، وعُرضت عليه أعمال لم تكن ترقى إلى مستواه وشهرته، لكن الظروف عاندته، فالجسد لم يعد يحتمل، والروح المرحة الضاحكة طوال الوقت أزاحها بغض المرض وهمومه، وانعكس ذلك على شخصية ياسين، حتى على خشبة المسرح، والجمهور بطبعه لا يرحم، فهو لا يعرف ظروف الفنان ولا معاناته ولا آلامه، يريد رؤيته كما تعوّد عليه، وربما كان ذلك السبب الرئيس في اعتزال ليلى مراد في أوج مجدها وشهرتها وعمرها لم يتجاوز الـ ٣٣ عاماً في عام1955 ، ولم يلتفت ياسين إلى ذلك لشدة حبه لفنه وجمهوره، لكن الأخير خذله، ولم يعد يأتي لمشاهدة «سمعة»، وتراجعت عروض الفرقة، وتبع ذلك هروب بعض أعضائها إلى مسارح التلفزيون وانشغال البعض الآخر بأضواء السينما، تاركاً ياسين وحيداً يكابد آلامه.

هنا تدخل ياسين الابن في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فهو يريد أن يفعل شيئاً لمساعدة

والده، فتقدّم لإخراج أول سهرة درامية في حياته كمخرج بعنوان» دوائر الشك«، واختار والده بطلاً، ظناً منه أنه سيحقق إحدى أمنياته وهو في بداية حياته العملية، ويصنع عملاً لتاريخه الشخصي، يجمع بينه وبين إسماعيل ياسين ليس الأب، فقد ظهر معه سابقاً في فيلم «إسماعيل ياسين بوليس حربي»، بل صاحب التاريخ الطويل والنجم الكبير، فقرر الظهور مع والده في مشاهد عدة في هذه السهرة، كذلك كانت أمنية ياسين تقديم عمل من إخراج ابنه الوحيد، وتحققت أمنية الاثنين، وكانت الأخيرة لكليهما!

العودة إلى البدايات

في عام ١٩٧٠، وفي يوم عيد ميلاد إسماعيل ياسين (١٢ سبتمبر) يُفاجأ جمهور مسرح «ملهى رمسيس» بوقوف ياسين على خشبة المسرح يلقي مونولوجاته، وكان حدثاً غريباً وغير متوقع، فبعد غياب ما يقرب من ٢٠ عاماً أو أكثر عاد لإلقاء مونولوجاته في الملاهي الليلية... ما أشبه الليلة بالليالي البارحة!

لم يكن الفرق بعيداً بين رواد ملهى بديعة، حيث وقف ياسين في بداية حياته يلقي مونولوجاته، والجمهور الذي وقف أمامه في ملهى رمسيس، لكن المدهش أن الجمهور أحسن استقباله، ودفع هذا النجاح أكثر من ملهى إلى التعاقد معه!

لم يكن ياسين هذه المرة الشاب الذي يبحث لنفسه عن مكان بين الكبار، بل كان نجماً خلفه تاريخ طويل، يحاول أن يصنع مستقبلاً موازياً له فشتان بين الشاب الذي يبدأ حياته وابن الستين الذي تمكنت منه الأمراض، واضطرته الظروف الصحية لتقديم وصلته مرتدياً «الشبشب» لإصابته بمرض النقرس!

من الملهى الليلي إلى السينما، كأنما التاريخ يعيد نفسه، قبل ياسين العودة ليس في دور البطولة أو البطل الثاني أو حتى «السنيد»... بل أحد الأدوار المساعدة أمام أبطال مثل هند رستم، ورشدي أباظة، وغيرهما من الذين كان يؤدي سابقاً الأدوار نفسها مثلهم.

عندما شعر أن الدنيا قد تضحك له مجدداً، وجدها تضحك عليه، ورحل الرجل الذي أحبه وتعلق به، على المستويين الرسمي والإنساني، ففي الساعة السابعة و٤٥ دقيقة من مساء يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠، وقبل صعوده إلى خشبة المسرح لإلقاءمونولوجاته كما تعود يومياً، سمع من الإذاعة خبر رحيل الزعيم جمال عبد الناصر!

بكى طويلاً كما لم يبكِ يوم رحيل والده، وعلى رغم أنه كان يكبر الزعيم بست سنوات، إلا أنه كان يشعر بأنه والده الحقيقي، ما أوقعه تحت وطأة الأمراض مجدداً، وبسبب ظروفه الصحية السيئة بقي في بيته غالبية أيام الأسبوع بلا عمل!

بلا الأصدقاء

لم يكن ياسين مسح دموعه بعد على رحيل عبد الناصر، حتى بكى مجدداً أحد أقرب الأصدقاء إليه، فقد رحل المخرج فطين عبد الوهاب، صديق العمر والنجاح والشهرة... ولم يكد قلب إسماعيل في جنازة صديقه يصرخ باكياً، كما ودع سابقاً أبو السعود الإبياري، حتى أعلنت مصلحة الضرائب عن بيع عمارته في منطقة الزمالك وفاء للضرائب المستحقة عليه، وأعطته

الدولة معاشاً استثنائياً بعد أن تذكرت الصحافة والحياة الفنية أن هذا الفنان كان في أحد الأيام «فلاشة الضوء» على غالبية دور العرض السينمائي، ثم عاوده المرض بقسوة ونصحه الأطباء بالراحة والبعد عن جو الحزن الذي أحاط به في القاهرة، فقد تغير كل شيء، ولم تعد الأجواء والأحوال السياسية والاقتصادية كما كانت، تبدل كل شيء حتى الفن، وطغت المادة على كل شيء.

بعد أن كان ياسين يعيش وسط جيل من الفنانين يعملون بإخلاص وحب لأجل الفن ...رأى الجميع يعمل لأجل المال والشهرة والأضواء، فشعر أنه وحيد في هذا العالم الذي بات غريباً عليه، وكان لا بد من أن يتقبل الأوضاع الجديدة التي أفرزتها الحياة السياسية والاجتماعية في مطلع السبعينات!

شريط الذكريات

ذهب ياسين إلى الإسكندرية لعله يجد في هوائها نسمة ترد إلى قلبه الهدوء وإلى نفسه الراحة، وهناك حيث الهدوء والراحة، وأمام شاطئ البحر راح يستعرض تاريخ حياته منذ بدأ رحلة الهروب من السويس بحثاً عن مكان الأضواء في القاهرة.

وانهالت الذكريات: من مطرب المونولوج، إلى مطرب المونولوجات الأول، ثم ممثل في الأفلام كافة، ثم أول ممثل يقدم سلسلة أفلام باسمه... أول ممثل يقدم ما يزيد على ١٨ فيلماً سنوياً... تذكر المنتجين والمخرجين الذين كانوا يتهافتون عليه، وينتظرون منه مجرد توقيع، النجاح في الدول العربية، الصعود خطوة خطوة إلى سماء الشهرة والمجد في المونولوج والسينما والمسرح، و{أفيشات} الأفلام التي كانت تحمل اسمه وتغطي دور العرض كافة... والمسرح الذي أعطاه كل ما كسبه... ثم تجاهل الجميع له وانحسار الأضواء عنه وقسوة معاملة الضرائب له وحجزها على أمواله في البنوك وعمارته!! تساقط الأصدقاء الذين ساندوه ووقفوا إلى جانبه يصنعون مجده ومجدهم.. تذكر المخرجين والمنتجين الذين كسبوا من ورائه أموالاً طائلة ولا يسألون عنه ولا يعترفون به الآن.

ربما حزّ في قلبه أن يعود إلى نقطة الصفر ليبدأ مجدداً في هذا العمر المتأخر، أو ربما أوحت إليه الإسكندرية بنوع آخر من الذكريات، إذ ارتبطت زيجاته الفاشلة والناجحة بها.

من يدري في ما كان يفكر ياسين في أيامه الأخيرة؟ هل كان يفكر في المستقبل ويشحذ القلب والنفس في فترة الراحة والاستجمام ليبدأ مجدداً، متذكراً أن ما مضى كان أشد قسوة وأكثر حلكة وظلاماً من الحاضر، فلا شك في أنه كسب الآف الجنيهات، وأكثر ما كان يسعده على رغم ضياعها، أنه لم ينفقها على الشرب أو النساء أو اللهو، بل على الفن، لذلك كان على يقين بأن القلب والإرادة التي شقّت طريقها إلى القمةتستطيع الانتصار مجدداً.

الاستعداد للنهاية

بدأ ياسين في هذه الفترة يشعر بدنو أجله، خصوصاً بعد أن اشتدّ المرض عليه، ومنعه داء «النقرس» من معشوقته «اللحمة» وكان يقول ذلك لابنه ياسين وهو يضحك:

-أنا بدأت حياتي وأنا نفسي في حتة لحمة، أو حتة فرخة، ويظهر إن حياتي هتنتهي برضه وأنا

نفسي فيها.

كان يروي لابنه غالباً كيف خرج من السويس وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى الجنيهات الستة، وكيف كان ينام في المساجد ويأكل مع المجاذيب وكيف شق طريقه على الشوك، ثم كيف تحولت الحياة من دمعة حزينة إلى بسمة كبيرة حتى أصبح ملك السينما والمسرح المتوج، وكيف بدأ العد التنازلي، حتى تآمرت عليه الدنيا! ضحك ياسين طويلاً... واندهش ابنه:

-بتضحك على إيه يا عم إسماعيل.

بضحك على الدنيا اللي ضحكت عليا، بتخلص تارها (ثأرها) منيّ.

-ليه بتقول كده؟

-لأن اللي أنا شفته محدش شافه، ومعتقدش أن ممكن حد يشوفه بعد كده خالص مهما نجح ومهما طلع.

-أنا متأكد من ده.

-مش علشان أنا أبوك، لا لأن فعلاً اللي حصل ده لما ببصله دلوقت بحس إنه مكنش طبيعي. ده كان حلم. تخيل الولد السويسي الصغير اللي محلتوش «اللضا «ومفيش في جيبه ولا مليم وجاي ونفسه يغني زي عبد الوهاب، يوصل بيه الحال أنه يكون أغلى نجم في مصر والدول العربية، وينجح النجاح ده كله. وبعدين بعد ما الدنيا تطلع بيه لسابع سما تنزله مرة واحدة لسابع أرض.

-بس انت لسه إسماعيل ياسين مهما حصل.

-إسماعيل ياسين مات خلاص.

-ألف بعد الشر عنك. متقولش كده.

-ده مش أنا اللي بقول، الدنيا هي اللي قالت كلمتها خلاص.

-بابا أرجوك بلاش الكلام ده خلينا نغير السيرة.

-يا ابني الموت علينا حق.

وضحك ياسين كثيراً

-بتضحك على إيه؟

-افتكرت عمك عبد الفتاح القصري الله يرحمه لما كان دايما يقول: «الموت عليكوا حق وكأنه مش عليه هو كمان}. أهو مات وبرضه بعد العز والفخفخة مات وهو مش لاقي حق الدوا.

-الموت ده حاجة فظيعة.

-تتصور إني مش خايف من الموت.

صمت ياسين الابن منتظراً أن يتابع والده حديثه.

-مقولتليش ليه؟

-ليه؟

-لأني محضر للموت ألف نكتة. أول ما أحس بيه داخل عليه هفضل أقول نكت لنفسي علشان أفضل أضحك. وزي ما عشت أضحك الناس أموت وأنا بضحك!

وصدقت مقولة ياسين، إذ كانت توقعاته بالنسبة إلى نهاية حياته صادقة، وعاد من الإسكندرية إلى القاهرة في ٢٣ مايو (أيار) ١٩٧٢ وأمضى أمسيته مع أسرته، ولم يتوقف ليلتها عن إلقاء النكات... ضحك وضحكوا حتى سالت الدموع من عيونهم، ومع الساعات الأولى من صباح ٢٤ مايو سلّم ياسين الروح مبتسماً.

رحل ياسين عن عمر يناهز الستين عاماً

حتى الطبيب الذي احتاج إليه في اللحظات الأخيرة من حياته لم يكن إلى جانبه...

رحل إسماعيل ياسين، بعد أن أضحك

الملايين... أضحك الدنيا كلها

وضحك عليها، ولم يكن يدري أنها

هي التي ستضحك أخيراً...

رحل بعد أن كان يوماً ملكاً متوجاً تجري

من حوله الحاشية يميناً ويساراً.

رحل ياسين تاركاً لنا ثروة قومية تقدر بنحو خمسمائة فيلم حول المواضيع والشخصيات

كافة، وما يزيد على ٨٠ مسرحية

صوّر منها التلفزيون المصري أكثر

من ٥٠ مسرحية.

رحل جسد إسماعيل ياسين، لكن روحه

المرحة الجميلة الضاحكة لا تزال ترفرف

في سماء حياتنا المفتوحة.

